اَلْعَقائِدُ الاِسْلامِيَّةُ

فی ضَوْءِ القَرآنِ و السُنَّةِ و العَقْل

المؤلف:

محمّد محمّدرضا السُلطانی

المترجم:

خلیل زامل العِصامی

الفهرست ٢

المشهد الاوّل

للعلم خصائص و مواصفات؛ و مفاهيمه و قواعده الاوّلية محدّدة و خاضعة للتعريف و موضوعاته قابلة للاثبات. و العلم يرسم لنا صورة كاملة عن الواقع و بعيدة عن التناقض و لاتدخل فی مسارات مغلقة. نذكر مثلاً أن الفيزياء علمٌ، و هو يقوم على أساس مفاهيم أوّلية كالمادة، و الطاقة، و الضوء، و الحركة، و ما شابه ذلک. و هذه المفاهيم قابلة للتعريف و محددة المعنى و كلّ موضوعاته يمكن الاستدلال عليها. و يطرح هذا العلم فی رؤيته الذاتية نموذجا تامّاً لعالم الوجود. و لا شکّ فی أن درجة اعتبار أیّ علم تتوقف على مدى صواب ذلک المثال أو الصورة التی يعكسها عن الواقع. نذكر كمثال على ذلک، انّ علم الهيئة القديمة قد سقط من الاعتبار و انقرض لانّه كان مبنيّاً على فكرة أن الارض مركز الكَوْن، و على وجود سبعة أفلاک، و لكنّه عجز عن إيجاد تبريرات مقبولة للواقع و لميتمكن من تقديم صورة صحيحة لنا عن السماء.

والسؤال الذی يتبادر إلى الاذهان هنا هو: هل ما نحمله من معتقدات دينية منذ صبانا و حتى الشيخوخة، يتّصف بهذه الخصائص أم لا؟ و هل معتقداتنا الدينية قائمة على أساس مفاهيم واضحة و محدّدة و معروفة؟ و هل يمكننا إقامة دليل على ما نؤمن به ديناً و عقيدة؟ و هل تمثّل معتقداتنا مشروعاً كاملاً خالياً من التناقض و التعارض؟!

حاولنا فی هذا الكتاب بحث المعتقدات الشيعية فی ضوء السياقات التی طُرحت فی الاسئلة الانف ذكرها، لكی يكون لدى القارىء ابتداءً تعريفٌ واضحٌ للّه و صفاته، و كلامه، و عدله، و تعريفٌ للرسول، و العصمة، و الامامة، و المعاد، و ما إلى ذلک. ثم تناولنا بعد ذلک موضوعات المعتقدات و بحثنا أكثر ما بحثنا فيها التوحيد، و العدل، و بعض مباحث النبوّة انطلاقاً من نظرة عقلية. كما درسنا أيضاً جوانب من النبوّة، و الامامة، و المعاد، استناداً إلى ظاهر القرآن فقط و بعيدا عن كل أنواع التفسير و التأويل.

و فضلاً عن المباحث الشائعة فی الكلام الاسلامی أو ما يُسمّى بأصول الدين الخمسة، حاولنا – على قدر ما يسمح به الكتاب – أن نطرح على بساط البحث و التحليل قضايا و مباحث دينية جديدة منها لغة الدين، الهرمنوطيقيا، مسألة الشرّ، وحدة الوجود و الولاية.

يُسْتهلّ كلُّ واحد من الفصول الخمسة التى يضمّها هذا الكتاب بين دفّتيه بمقدّمة تحت عنوان «استشراف» تُطرح فيه التساؤلات الاساسية التى تُثار بخصوص ذلك البحث، و يُختم بخاتمة عنوانها «استنتاج» تُكَرّسُ فيها خلاصة ما بُحث.

الفصل الاول

التَوحيد

استِشْرافٌ

ما هو الاساس الذى يُبنى عليه نَيْل المعرفة؟

ما هو اللّه وكيف نُثبت وجوده؟

ما هى صفات اللّه كالعلم و القدرة؟ و كيف؟

هل اللّه واحدٌ؟ وما الدليل على ذلک؟

كيف نرتبط بربّنا؟

كيف تكلّم اللّه معنا؟

و كيف يمكن أن نفهم كلامه؟

المعرفة و جذورها

يملكُ الانسان قوى و طاقات شتّى؛ فلديه سمع، و بصر، و لديه قدرة على التذوّق، و اللمس، و الشمّ. و هذه الحواس الخمس هى التى تصوّر العالَمَ للانسان. و ما تدركه الحواس هو الاساس الذى يقوم عليه العلم البشرى. و من هنا ندرک مدى صحّة القول المشهور: «مَن فَقَدَ حِسّا فَقَدَ عِلماً». إنّ الحواس الخمس تشبه فى عملها إلى حدٍّ بعيد عمل مداخل المعالج فى الحاسوب؛ فهى تنقلُ إليه ما يتناهى إليها من معلومات ومعطيات. و من الطبيعى أنّ هذه المعلومات المُتلقّاة لها تأثيرها فى الانسان؛ إذ لابدّ أن تؤثِّر فى عواطفه، و عقله.

العواطف مشاعر بشرية، كالحبّ، و الكره، و الحقد، و الحسد، و الغضب، و الضجر، و الفرح. و هذه المشاعر شبيهة إلى حدٍّ بَعيد بحاسّة اللّمس وحاسّة البَصَر؛ واقعيّة و بيّنة. فمثلما أنّ لمس الاجسام الحارّة يحرق اليد كذلک مشاعر الحسد تُسبب الاذى، ولعلّ مثل هذا الاذى يمكن أن يُقاس بالاحتراق. و مثلما يستشعر المرء حلاوة الاستحمام بالماء الدافىء، كذلک الحبّ الذى ينساب إلى الروح بهدوء يلامسها و يناغيها.

اذا تجاوزنا هذه المشاعر خطوة، نصل الى ضفاف العقل، حيث يتفتّح و يزدهر، و يبحث و ينقّب فى الامور ويقضى بينها و يصدر حكمه فيها. فعند ما نريد اثبات قضيّة هندسية، أو دراسة معادلة فيزيائية، أو التأمل فى عبارة فلسفيّة، فأىّ الحواس الخمس تعيننا على هذه المهام؟! و هل تنجدنا مشاعر الحبّ أو الكره مثلاً على حلّ هذه المسألة أو تلک؟! كلا طبعا، و انّما العقل هو من يتولّى معالجتها و ايجاد الحلّ لها. و أمّا المواد الاولية التى يعتمدها العقل فى عمله – وهو ما نسمّيه بالتفكير – فقد تكون معلومات انتقلت الينا عن طريق الحواس الخمس تارة، و قد تكون تارة أُخرى منبثقة من العقل نفسه، إذ انّ العقل ينتج تلقائياً – كالينبوع الدافق – فكراً حول ما لا يملک معلومات حسيّة عنه.

و إذا ما ارتقينا درجة أعلى نجد أنه قد أُودعت بين ثنايا الروح البشريّة جذبات و إِثارات مما لا تطالها الحواس الخمس، و لا تقع ضمن مَدَيات مَرمى العقل، بل هى بذاتها مبعث لحركة العقل و مدعاة لاثارة

الاحاسيس البشريّة، هی تلک البذرة الاولی التی غُرست فی روح الانسان لتدفعه إلی سعی حثیث صوب العُلا و الکمال، و تحدو به إلی طلب موجبات القوّة والتخلّی عن کلّ دواعی الضعف؛ فی
طلب العلم و یستهجن الجهل و یمیّز بین الجمیل و القبیح. وهذه هی الطینة الاساسية لما نسمّيه "فطرة".
الفطرة هی الخلق النقی الاوّل لبنی الانسان.

إنَّ ما یتعقّله الانسان أو یجده فی فطرته کالذی یشاهده بعینیه و لا سبیل لِإنكاره. فهل ثمّة شکّ أو شبهة فی ما تراه عیناک أمامها الان و هو عبارة عن صفحات بیضاء علیها کلمات مسطورة؟ أو هل یمکن لآخر أن یزعزع اعتقادک فی صواب ما تری؟ کلا طبعا. فالعقل أیضاً عین باطنیّة، وهو بمثابة عین الفطرة. و مثلما تؤلّف الحواس الخمس المصادر الاساسية لما یتناهی إلی الانسان من معلومات مادیّة. کذلک العقل و الفطرة مصدرٌ لما یستقیه البشر من معلومات مستمدة من عالم ما وراء المادة.

«قُلْ هُوَ الَّذِی أَنشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الاَبْصَارَ وَ الأَفْئِدَةَ قَلِیلاً مّا تَشْکُرُونَ». الملک،٢.

اللّه تعالی موجودٌ

هذه قضیة بسیطة. و لکن إثبات أیّة قضیّة یتطلب معرفة جزئیها؛ أی الموضوع و المحمول، لکی نوجد فی ما بعد علاقة و تناسبا بینهما، أو نفیهما عن بعضهما. فما هو «اللّه»؟ و ما هو «الوجود»؟! اللّه حقیقةٌ و هو عبارة عن «وجودٍ» فی مقابل العدم، و حقیقةٍ فی مقابل الوهم. و هذا الوجود هو الخالق لکلّ «الموجودات» الاخری، و هو وجود مطلق و خارج إطار الزمان و المکان، و کمال مطلق و منزّه عن کلّ عیب أو نقص.

«موجودٌ» هو محمول قضیّتنا هذه و هی الاعتقاد بوجود اللّه. لعلَّ القضية تعقّدت شیئا ما، ولکننا نحاول إثبات وجود اللّه، فهو موجود! و نستعین أوّل الامر بعقلنا.

الدلیل الاوّل: الخِلقة

العالم الذی نعیش فیه، لم‌یکن ثمّ خُلق؛ بل نحن أنفسنا خُلِقنا یوما فیه، نشاهد هذه حقیقة واضحة فی ما یخصّ إخواننا الصِغار أو أبناءنا، و هذا المعنی ینطبق أیضاً علی حبّة الحنطة تتبرعم ثم تتحول إلی نبتةٍ

خضراء. فهذه الاشياء لم تكن ثم كانت. والسؤال الاوّل الذى يتبادر إلى ذهن كل شخص – وإن كان صغير السّن – هو: انّه من الذى خلق هذه الاشياء؟

فإما أن تكون هذه الاشياء قد جاءت بنفسها، أو أوجدت نفسها بنفسها وإما أن تكون قد خلقتها الطبيعة، أو انّ الذى خلقها هو اللّه. فهل ثمّة جواب آخر لديكم؟ !

من الطبيعى إنّ هذه الكائنات لا تستطيع خلق نفسها؛ لانّها لم تكن لكى تخلق نفسها. فهل خلقتها الطبيعة؟ وما معنى الطبيعة؟! هل هى هذا الماء، و التراب، و السماء، و الارض، و البذور، و غيرها؟!

«**وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلّا الدَّهْرُ وَ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلّا يَظُنُّونَ**». الجاثية، ٢۴.

فهل تخلقُ أشياءُ وضيعة فاقدة للشعور كائناً متكاملاً ذاشعور؟! و لو فرضنا أن الامر كذلک، نعيد سؤالنا هذا حول الطبيعة و نقول: من الذى خلق الطبيعة؟!

إذاً هذا الخَيار لا يقنعنا أيضاً. و قبل التحدّث عن وجود اللّه، قد ينهض أحد قبل انتهاء المجلس و يصيح: لا أحد! فحبّة الحنطة أو أخى الصغير و غير ذلک لم يخلقهما أحد! وإنّما كان خلقهما مجرّد صدفة و أن الطبيعة هى التى خلقتهما.

هل رأيتم حتى الان أنّ الحروف تنتظم إلى جانب بعضها فى مطبعة ثمّ تأتى على الورق و تَطبع من تِلقاء ذاتها قصيدة غرّاء؟! كلا طبعا، فالعقل لا يقرُّ الصدفة. و هل يقبل أحد أن بناية فخمة و جميلة تأتى إلى الوجود نتيجة لصدفة عمياء؟!

إذاً يبقى خيار وحيد للجواب، و هو أنّ هناک إله يخلق حبّة الحنطة ثم يرعاها إلى أن تتحول إلى نبتةٍ حيّة. و يخلق النطفة من مادة أوليّة غير ذات روح و يجعلها مادة لايجاد إنسانٍ.

و لكن قد ينظر إلينا أحدٌ نظرةً ساخرة و يقول: إنّ كان كلّ شيءٍ يحتاج إلى خالق، فماذا لو طبّقنا هذه القاعدة على اللّه، و قلنا: من خلق اللّه؟! هل خلق هو نفسه؟ أم لم يخلقه أحد؟ أم خلقته الطبيعة؟ أم خلقه إله أكبر منه؟ و ليس أمامنا إلاّ أن نشطب كل الخيارات حتى نصل إلى خيار الاله الاكبر، و نقول: ومن الذى خلق هذا الاله الاكبر؟! هل إلهٌ أكبر آخر، و هكذا؟

و لكن من حقّنا أيضاً أن نقول: حصل هنا خطأ! فنحن لم‌نَقُل إنّ كلّ شیءٍ یحتاج إلی خالق، و إنّما قلنا بأنَّ کلّ شیءٍ لم‌یکن ثم کان یحتاج إلی خالق؛ بَیْد أنّ الخالق کان و لایزال موجوداً علی الدوام.

سؤالکم هو: من خلق اللّه؟! ثمّ یأتی الجواب: إما هو، أو الطبیعة، أو لا أحد، أو إله أعظم منه و أکبر؛ سؤالکم هذا شبیه بسؤال من یسأل: من الذی حاک قبّعة ثالث قیاصرة روما القدیمة؟ هل هو حاکها، أم حائک، أم الطبیعة، أم لا أحد؟! و هذا السؤال بحدّ ذاته غیر صحیح حتی یکون له جواب؛ لانّ روما القدیمة لم یکن لها قیصر ثالث. و سؤالکم هنا خطأ أیضاً عندما تسألون: من خلق اللّه؟ فاللّه غیر مخلوق؛ فهو موجودٌ بذاته. لو فرضنا أن هناک ماءً قلیلاً یجری فی ساقیة، فمن أین یمکن أن یکون هذا الماء قد جاء؟! هل جاء من ینبوع؟ و نذهب إلی عین الینبوع. و لکن من أین جاء ماء هذه العین؟! من أحواض تحت الارض. و نحفر باطن الارض. و لکن من أین یأتی هذا الماء؟ و نصل إلی صخرة یتدفّق منها الماء. و هذه الصخرة لا تستقی الماء من موضع آخر، وإنّما هی مصدره. وکذلک اللّه لم یستق الوجود من مصدر آخر و إنّما هو مصدر الوجود.

«**اللّه نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**». النور، ۳۵.

کلّ شیء یتوضح فی النور، و لکن النور نفسه کیف یتوضّح وینبلج؟!

إنّ انبلاج النور ینبثق من ذاته، و اتّضاح بقیّة الاشیاء یکون فی النور. فی القرآن الکریم، آیات عدیدة تشیر إلی برهان الخلقة، منها: «**وَ مِنْ آیَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فیهِمَا مِن دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَی جَمْعِهِمْ إِذَا یَشَاء قَدِیرٌ**». الشوری، ۲۹.

و منها قوله تعالی: «**سُبْحَانَ الَّذِی خَلَقَ الأَزْوَاجَ کُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لایَعْلَمُون**». یس، ۳۶.

الدلیل الثانی: النظم

النظم یعنی الانسجام والتناسق، مثل الصورة المقطّعة التی إذا أُعید صَفُّها بانتظام و ترتیب، فهی تؤلّف صورة متکاملة و متناسقة. فالعالم الذی نراه، بل أعضاء بدن کل واحدٍ منّا ذات انسجام و تناسق تامّ. و

النظم إن كان من غير ناظمٍ فهو تماماً كالصدفة العمياء و هى شىءٌ يرفضه العقل. إذاً فعالم الوجود له ناظم و هو ما أشار إليه القرآن و استعرض فى آياته أمثلة مما فى هذا الوجود من نظم وانسجام؛ منها حركة الكواكب، و تعاقب الليل و النهار، و توالى الفصول، و حركة الرياح و الغيوم و ما إلى ذلک.

«وَ فى خَلْقِكُمْ وَ مَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ مَا أَنزَلَ اللّه مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الاْءَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون». الجاثية، ٥-۴.

الدليل الثالث: التدبير

العالم الملىء بالتدبير والحكمة ماثل أمامنا؛ فكلّ موجودٍ مزوّدٌ بكلّ ما يحتاج إليه. فالطير الذى خُلق ليلتقط الحبَّ، جُعل له منقار و حوصلة، و ما خُلق من الحيوانات للصيد جُعلت له مخالب و أنياب، و ما خلق ليعتاش على أوراق الاشجار جُعلت له رقبة طويلة، و ما خُلق ليتغذّى على الحشرات جُعِل له لسان طويل و لاصق. فكلّ موجود خُلِقَ بما يتناسب مع متطلّباته. إذاً فهذا المشهد الرائع لابدّ أن يكون له مدبِّرٌ، وهذا المدبّر العظيم هو الذى يدبِّر هذا العالم كلّه.

«اللّه الذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لاَجَلٍ مُّسَمّىً يُدَبِّرُ الاَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُون». الرعد، ٢.

الدليل الرابع: الفطرة

جاء رجل إلى الامام الصادق عليه‌السلام و قال له: أريد أن تدلّنى على اللّه! و لعلّک أنت أيضاً تراودك مثل هذه الرغبة! فالدليل و الاستدلال يخلق علما، و لكن ماذا عن الرؤية؟! عندما يقول أحد أريد أن أرى اللّه أو حسب قول أميرالمؤمنين عليه‌السلام : «**ما كُنتُ أعبدُ ربّاً لم أرَه**». و ليست الرؤية هنا هى رؤية العين الحائرة، و إنما رؤية القلب، و الاستيقان القلبى. فقال له الامام: هل ركبتَ سفينة قطّ؟!

– **نعم.**

– فهل كُسِرت بک حيث لا سفينة تُنجيک، و لا سباحة تُغنيک؟

– **نعم.**

– فهل تعلّق قلبک هناک أنّ هناک من هو قادر على إنقاذک؟

– نعم.

– فذلک هو اللّه القادر على الانجاء حيث لا منجى ... . بحار الانوار، ج۳۷، ص۴۱.

قد يَخطُر على بالکم سؤال و هو: لماذا نشعر بوجود اللّه الى هذا الحدّ فى حالة الخطر فقط؟! ولماذا لانشعر به فى ظروف الحياة العادية؟!

و جواب ذلک هو: إنّ مشاعرنا فى الليل والنهار مشتتة بين أمور الدنيا و تائهة فى خِضَمِّها. ولعلّنا تمرُّ علينا أحياناً بضعة أيام دون أن نلتفت إلى الشمس الساطعة. فهل هناک ما هو أسطع من الشمس؟! الغفلة سِتار يحجب أوضح الاشياء و أسطعها. و لکن عند الخطر لا يشغل الذهن أى اهتمام آخر سوى الخلاص، و لايفکّر إلاّ فى مُعين يعينه؛ فهو منقطع عن الجميع و لاينصبّ اهتمامه إلاّ على المنقذ و المنجى، و عند ذاک يترآئى اللّه أمام عينيه. و لکن هناک من يرون اللّه و يشعرون بوجوده حتى فى خِضَم الحياة اليومية، و يعيشون معه لحظةً بلحظة، وقلوبهم عرش للّه، و مسکن له وحده. اُنظروا الى أميرالمؤمنين عليه‌السلام حين يقول: «**ما رأيتُ شيئاً الّا و رأيتُ اللّه قبله و بعده و معه**». مسند الامام على(ع)، ج۱، ص۱۵۰.

الدليل الخامس: الشمسُ، دليل الشمس

وجود اللّه لا يحتاج إلى دليل أصلاً! لابدّ و أنّکم قرأتم دعاء عرفة للامام الحسين عليه‌السلام فما أجمل قوله: «**کيف يستدلّ عليک بما هو فى وجوده مفتقر إليک، أيکون لغيرک من الظهور ما ليس لک حتى يکون هو المظهِر لک! عميتْ عينٌ لا تراک... بک أستدلُّ عليک**».

الادلة السابقة کانت کلّها کمن يضىء مصباحا يدويا و يريد أن يَرى الشمس فى ضوئه. فى الواقع ان اللّه هو الموجود الوحيد الذى يدلّ على ذاته. ولکن کيف؟! لقد أجبنا مسبقاً عن هذا السؤال. فالوجود المطلق، الازلى، الابدى، الذى هو فى غاية الکمال و لا نقص فيه، و هو مصدر کلّ الوجود، لابدّ أن ينتهى تصوّره إلى تصديقه.

فالوجود الذی ینبثق وجوده من ذاته یکفی مجرّد تصوّره لاثبات وجوده. نصغی إلی ما جاء فی القرآن الکریم: «**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفی اللّه شکٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضِ**». ابراهیم، ۱۰.

الشکّ مفخرة لنا!

یقول القائل: إنّ العلم القلیل مثل فکّة النقود! کثیرٌ رنینها ولکن لا قیمة لها. أما صاحب العِلم الکثیر فیقول: کلّما ازداد الانسان علماً علم أنه لا یعلم! من یملک القلیل من العِلم یُصابُ بالغرور. کان المرحوم مدرّس الافغانی یقول: کان أحد الطلبة الجدد یحمل بیده کتاباً من القطع الرحلی و یشبره، ثم یشبر صدره، فسألوه: ما تفعل؟! قال: أنا متعجّب کیف أن صدراً لا یزید علی ثلاثة أشبار یتّسع لکتاب من خمسة أشبار!! و الشاب بمجرّد أن یحصل علی شهادة جامعیة علیا حتی یأخذُه الشکّ فی کلّ شیء، علی اعتبار أن شکّ العاقل أفضل من یقین الجاهل!! نعم، شکّ العاقل له قیمته، ولکن لیس الشکّ الذی یأتی عن تکبّر و غرور، لانّ مبعثه الجهل.

«**بَلْ هُمْ فی شَکٍّ یَلْعَبُونَ**». الدخان، ۹.

جاء رجل إلی الامام جعفر الصادق علیه‌السلام مصرّحاً بأنّ اللّه لا وجود له. فسأله الامام: هل نزلت تحت الارض؟! فقال: لا.

– هل سرتَ فی السماء؟

– لا.

– فعجباً لک مابلغت المشرق و المغرب و مانزلت تحت الارض و لا صعدت الی السماء و انت تجحد ما فیهنّ؟! و هل یجحد العاقل ما لایعرف؟! بحار الانوار، ج۳، ص۵۱.

و لنتجاوز کلّ هذا، و نفترض أنَّ أحداً شکّ فی کلّ شیء، حتی فی وجوده، «أنا أفکّر و لکن من غیر الواضح أنی موجودٌ»!! فماذا لدیک من الجواب له؟ کان فی زمان الامام الصادق علیه‌السلام رجل اسمه ابن‌أبی‌العوجاء، و کان حینذاک علی رأس المادیین أو من کانوا یُسمّون فی ذلک العصر بالدهریین. و کان هذا الرجل یأتی إلی الامام و یدخل معه فی جدل و نقاش، و یخرج حائراً لا جواب لدیه. غیر أنه

كان يعود فى اليوم التالى بقلب تملؤه الشكوک و الشبهات. إلى أنْ قال له الامام ما مضمونه: إنّک فى شکٍّ حول وجود اللّه، و هل هناک نبى، و قيامة، و كتاب و حساب أم لا؟ و هذا الحال لايخرج عن واحد من احتمالين: و هو امّا أنّ هذا العالَم كما تظن أنت، خلقتْه الصدفة العمياء، و نحن نصير كلّنا من بعده تراباً و نتلاشى فى الارض. ففى هذه الحالة نتساوى أنا وأنت، نحن كلانا قد عشنا فى هذه الدنيا و أكلنا و شربنا ثم متنا و فَنَيْنا! و لكن لو كان العالَم كما قُلتُ، فلن نتساوى يومذاک؛ إذ سأعيش بعد الموت فى نعمة لا زوال لها، بينما ستعيش أنت فى أشد العذاب! إذاً حتى لو كان لديک شکّ أو شبهة فإنّ العقل يأمر بالحذر، فعليک بالدين فعسى أن تكون هناک قيامة. بحار الانوار، ج٣، ص٤٥.

صفات اللّه تعالى

يمكن معرفة صفات اللّه من خلال مخلوقاته؛ فهو عليمٌ، و إلاّ لما استطاع خلق عالم بهذه الدقّة. و هو لطيفٌ، و إلاّ لما كان هذا اللطف فى مخلوقاته. و قديرٌ، و خلق الكواكب دليل على ما نقول. و هو أيضاً سميعٌ و بصيرٌ؛ لانَّ هاتين الصفتين كليتهما منبثقتان من العلم. و هو عادلٌ لا يَظلم؛ لان الظلم نقص و هو الكمال المطلق. و لكن تبقى هنا مجموعة من الامور.

انّه يعلم الغيب

اللّه تعالى يعلم ما مضى؛ لانّه كان و رأى. كما أنه يرى الزمان الحالى أيضاً؛ لانّه حاضرٌ و ناظر. و هو يعلم المستقبل أيضاً! المستقبل الذى لم يأت بَعدُ! فهذا الفتى لم يتزوّج بَعْدُ، فكيف يعلم اللّه أنّ مولوده الاوّل سيكون ذكراً أسود العينين والحاجبين، أو ستكون أنثى خضراء العينين ومعقودة الحاجبين؟!

للاجابة عن هذا السؤال نضرب هاهنا مثلاً و هو: إنّک تسير فى سيارة بين مدينتين، و وقع حادث اصطدام سيارتين على بعد أربعين كلومترا منک، فأنت طبعاً لاتعلم بوقوعه لأنَّک لم تَصِل بَعدُ إلى هناک، و إنّما ستصل إلى هناک و تعلم بالحادث و تراه بعد عشرين دقيقة مثلاً. و لكن لو كانت هناک طائرة عمودية تحلّق فوق تلک المنطقة فإنّ طيّارها سيشاهد الحادثة قبل أن تشاهدها أنت الذى فى

السيّارة قبل عشرين دقيقة. فما الفارق بينک و بين الطيّار؟ الفارق هو انّک تسير على الارض وهو يطير فی السماء. أنت فی الطريق محکوم ومقيّد بظروف الطريق، بينما هو متحرّر من هذا القيد. أنّک على الارض و تنظر من ذلک الموقع بَيْد انّه مُشرف على المنطقة و ينظر إليها من الاعلى. و على هذا الاساس فهو يرى الآن ما ستراه أنت بَعد عشرين دقيقة.

خط الزمان هو الطريق بين مدينتين. و ولادة أول أبناء هذا الفتى هی تلک الصدفة. و أنت عندما تسير فی هذا الخط فأنت فی إطار الزمان، فی حين أن اللّه خارج دائرة الزمان، و محيط به، و ينظر من أعلى، ويستوى لديه طوفان نوح، و حروب الفرس والروم، ومناظرة موسى و فرعون، و الحرب العالمية الثانية، و ظهور آخر حُجّة، يراها کلّها و يعلم بِها.

علم اللّه وإرادتنا

انّ اللّه يعلم أنّ فلاناً مسافرٌ غداً. و لکن ما طبيعة العلاقة بين علم اللّه و إرادة هذا الشخص؟ و هل هذا الشخص مُجْبَرٌ على السَفَر غداً؟ و إذا لم‌يُسافر، فهل علْم اللّه بسفره کان خطأً؟! هذه الشبهة قديمة طبعاً، إذ انَّ شاعراً کان يُکثر مِن شُرب الخمر، ولمّا نصحوه بعدم الشرب لانّه حرام، قال:

دَرى اللّه قُدْما بارتِشافی للطِلا   فإن أجتَنبُها يَنقَلِبْ عِلمُهُ جَهْلا

ولو دققنا النظر فی هذا الاستدلال نلاحظ أن فيه خطأً، فاللّه يعلم ما يفعله فلانٌ فی المثال، و لکننا لانعلم ما الذی يعلمه اللّه!!

«**وَ هُوَ اللّه فی السَّمَاوَاتِ وَ فی الاَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جهرَکُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَکْسِبُون**». الانعام، ٣.

فلو سافر هذا الشخص، يتّضح أن اللّه يعلم أنّه يسافر، وإن لم يُسافر، يتبيّن أنّ اللّه کان يعلم أنه لم يُسافر. و هذا الشاعر وقع فی هذا الخطأ نفسه أيضاً. فاللّه کان منذ الازل يعلم بما سيفعله و ليس بشربه الخمر؛ فإن شرب الخمر، فإنَّ اللّه کان يَعْلَمه، و إن تابَ فإنَّ اللّه کان يعلم توبته. فاللّه يعلم ما سنختاره و ما سنفعله.

القدرة

هناک ملاحظتان تسترعيان الانتباه فی ما يخص قدرة اللّه:

الاولی: هی إنّ هناک شبهة و هی: هل انّ اللّه قادرٌ علی وضع الماء الذی يملا وعاءً كبيراً فی وعاء صغير كالقدح مثلاً؟ أو هل يستطيع وضع القمر فی كفّ أحد؟ و جواب ذلک هو أن اللّه قادرٌ علی أن يفعل ما يشاء، علی أن يكون ذلک الفعل ممكنا. أما المُحال فلا يمكن فعله. و هذا ليس نقصاً ولا ضعفاً فی اللّه، و إنّما النقص فی ذلک العمل نفسه و نقصه عبارة عن استحالة وقوعه بالمطلق.

الثانية: إذا كان الفعل ممكناً فلا فرق عند اللّه بين سهله و صعبه، و كلّ الممكنات متساوية عند اللّه سواءً كانت حركة حجرٍ صغير أو تدوير منظومة فلكية كبری، و يستوی عنده خلق النملة مع خلق الجمل. فقضية السهولة والصعوبة لها مفهوم بالنسبة لنا نحن؛ لانَّ قدرتنا محدودة. فتكون النتيجة أن كسر البيضة سهل بالنسبة لنا بينما كسر صخرة صعب جداً. وأمّا قدرة اللّه فهی غير محدودة، ومثلها كمثل اللامتناهی الذی يصغر أمامه أی عدد مهما عَظُم.

«**للّه مُلْکُ السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضِ وَ مَا فيهِنَّ وَ هُوَ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ**». المائدة، ١٢٠.

الكيفيّة

كنتُ صغيرا و ضعيفاً، و جاهلاً، فأصبحتُ رجلاً قويّاً وتَعلّمتُ ما لم أكن أعلم. فهذه القوّة و العلم أُضيفا إلیَّ. ثمّ إننی ضاعفت من قوّتی البدنيّة شيئاً فشيئاً فی النوادی الرياضيّة. ثمّ درست فی الجامعة فزاد علمی. فالقدرات الجسمانيّة والعلميّة تُضاف إلينا بالتدريج من قبل الخالق القدير. ففی زمانٍ كُنّا لا نملک هذه القدرات التی نمتلكها اليوم؛ و انّها أُضيفت إلينا لاحقاً. و لكن هذه المعادلة لا تُصدق علی اللّه. فعلم اللّه ليس خارجٌ من ذاته و كذلک قدرته، و لايضاف إليه شیء و لميكن هناک زمان لم يكن اللّه فيه قادراً ولميكن محيطاً به علماً. بل علمه و قدرته مرتبطان بذاته، مثلما صفة الانسانية بالنسبة لنا، فانّها غيرمنفصلة عنا. و هكذا الحال بالنسبة إلی اللّه فهو الكمال المطلق، لا تُضاف إليه إضافة. و من هنا يمكن استخلاص نتيجة مهمّة و هی انّ سنّة اللّه لا تبديل لها أيضاً لانّ الذی يغيّر سلوكه و سنّته هو من

يكسب معلومات أكثر، أو ينال قوّة أعظم. فهو ينتهج مسلكاً جديداً من أجل إحراز مزيد من التطور والتقدّم. و لكنَّ قدرة اللّه مطلقة أزلياً و أبدياً، و هذا يعنى أنّ سيرته و سنّته لا تتبدل و لا تتغيّر.

صفات الفعل

تُقسم صفات اللّه إلى نوعين: صفات مرتبطة بذاته، سواء كانت هناک مخلوقات أم لم تكن؛ فهو تعالى حىّ، و سميع، و بصير، و قدير. و هذه صفات مرتبطة بالذات. و أما صفات الفعل فهى ما تتجلّى من خلال علاقة اللّه بمخلوقاته. فهو مثلاً رازق و هذه الصفة تشير إلى طبيعة الصفة بين اللّه و مخلوقه. و هكذا الحال بالنسبة إلى صفات أخرى كالهادى، و المُحسن، و المُجازى.

اللّه تعالى واحدٌ احد

يُقال إن شخصاً كان مصاباً بالوسواس، و كثيراً ما كان يسأل: أريد أن أصلّى فهل حلَّ وقت أذان المغرب؟! وبعد بضعة دقائق يهبّ مخافة أن يكون الليل قد تجاوز نصفه فتصبح صلاته قضاءً!!

الجاهل فاقدٌ للاتزان والاعتدال و لايتصف بالحدّ الوسط، فهو إما مُفرِط أو مفرّط. فقد قرأنا حتى الان عَمّن لا يرون ضرورة لوجود خالقٍ لهذا العالَم، و نحن نُواجه الآن من يؤمنون بتعدد أو بكثرة الارباب والالهة!! و هذا ما يدفعنا إلى إثارة هذا السؤال و هو: ما الدليل على أنّ اللّه واحدٌ؟!

و الجواب هنا مُقتضب و صريح و هو: إن الاعلى والاقوى لا يمكن أن يكون أكثر من واحدٍ! فإنَّ المطلق واحدٌ على الدوام و لايمكن أن يكون له ثانٍ. و هذا بمثابة دليلٍ أوّل.

و أمّا الدليل الثانى: فهو إنّ وجود الشريک يدلّ على نقصٍ، واللّه منزّهٌ من كل نقص.

«وَ جَعَلُواْ للّه شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَ خَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ». الانعام، ۱۰۰.

و أما الدليل الثالث على وحدانية اللّه فهو: إنَّ الاله لا يكون من غير آثار و مؤثّرات دالّة عليه. و لو كان هناک إلهٌ آخر لخلق نظاماً مستقلاً و لَأرسل رسلاً، أو لتدخّل فى النظام الفعلى لهذا العالَم! و لو حصل

ذلک لأضطرب عالم الخلقة و سادته الفوضی. وهذا یدلّ علی أن نظام الخلق لیس له أکثر من مدبّرٍ واحد: «**لَوْ کَانَ فیهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللّه لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللّه رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا یَصِفُونَ**». الانبیاء، ۲۲.

وحدة نظام الخلقة أفضل دلیل علی أنّ الخالق واحد. نذکر مثالاً علی ذلک: إنّ الکتاب الذی یشترک فی ترجمته إثنان یظهر ذلک جلیاً فیما یکتنف الکتاب من التباین فی أسلوب و ذوق و ترتیب کلّ واحد منهما. فی حین انّ الکتاب الذی یترجمه شخص واحد یتّسم عادة بوحدة الاسلوب و السیاق.

«**مَا اتَّخَذَ اللّه مِن وَلَدٍ وَ مَا کَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ کُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَی بَعْضٍ سُبْحَانَ اللّه عَمَّا یَصِفُونَ**». المؤمنون، ۹۱.

تجلّیات التوحید

للتوحید مدیات شتّی و میادین واسعة. و منه التوحید فی الذات، الذی یعنی أن خالق الکون واحد لا شریک له. و التوحید فی العبادة، الذی یعنی أن لایُعْبَدَ غیره و لایُسْجَدَ لسواه، وأنّ الحمد له وحده. و علی صعید آخر یجد التوحید فی کل واحد من صفات اللّه معنی خاصّاً. فهو تعالی وحده القادر و کلّ قدرة أخری فی الوجود مستمدّة منه. و هو العلیم و کلّ العلوم هو منشؤها. و هو الخالق و کلّ المخلوقات مصدرها منه. و هو الجمیل و کلّ معالم الجمال الاخری تجلیات لجماله. و هو الرازق، و کلّ ما تحصل علیه الموجودات من الرزق فهو منه. و هو الحَکَم و له السیادة و کلّ حُکْمٍ آخر مدین له. و یمکن القول بإیجازٍ أنّ الموحد هو من یعزو کل ما یراه فی الوجود إلی اللّه. و لیس هناک من هو غنیّ عنه لحظةً. صحیح أن الخُبز یُشبِع، و السُمّ یَقتُل و السیف یقطع، و النار تُحرق و لکن هذه الاشیاء لا تتصف بهذا الافعال من تِلقاء ذاتها، بل اللّه هو الذی یُشبعنا بالخُبز، و یجعل السُمَّ قاتلاً، و السیف قاطعاً، و النار حارقة، ولو شاء لجعل النار برداً وسلاماً!

«**قُلْنَا یَا نَارُ کُونِی بَرْداً وَسَلاماً عَلَی إِبْرَاهِیمَ**». الانبیاء، ۶۹.

الموحّد ينظر إلى الدنيا بمثل هذه الرؤية، وهو لا يصل إلى طريق مسدود أبداً و لا يصيبه اليأس، و إنّما يرى اللّه العلى القدير حاضراً و ناظراً فى كلّ مكان و زمان، و كلّ القدرات الاخرى ليست سوى ذرّات من عظيم قدرته المطلقة، و كلّ شىء خاضع لارادة اللّه.

«**إِن كُلُّ مَن فى السَّمَاوَاتِ وَالاْءَرْضِ إِلّا آتِى الرَّحْمَنِ عَبْداً**». مريم، ٩٣.

و هذا ما يجعل لدنيا الموحّدين مالكاً ومديراً ومدبِّراً، وهى دنيا مخلوقة على أساس الحكمة و العقل، و على هذا المنوال تسير قُدُماً. و هذه الدنيا لها بداية و لها نهاية ولم تُخلق عبثاً و إنّما خُلقت لهدف.

و الموحِّد واثق بربّه و مطمئن الجانب به، و على هذا فهو لا يخشى أحداً ولا طمع له بما فى أيدى الناس. و قلبه مغمور بالسكينة لانّه واثق بأن من خلقه يرعاه و يرأف به، و يهديه نحو الجمال و النور. و أما الذى لايؤمن باللّه فهو يجعل له أندادا يعلّق عليهم الآمال، و الركيزة التى يستند إليها واهية لا ثبات لها.

«**حُنَفَاءَ للّه غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَن يُشْرِكْ بِاللّه فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مَكَانٍ سَحِيقٍ**». الحجّ، ٣١.

يقع الشرک – حسب اصطلاح القرآن و الحديث – فى مقابل التوحيد. فالتوحيد يسرى فى كل شرايين الحياة، و كذلک الشرک يمکن أن يتغلغل فى کل مفاصلها و يعشعش فيها. فمن يخالط عبادته الرياء، و يعبد ربّه لاستقطاب انتباه الآخرين و نيل رضاهم، فهو مصابٌ بنوع من الشرک. و من يرى المال حلّالاً لکلّ المشکلات و يجعل کل شىء رهيناً بالحسابات المالية، و ينظر إلى کلّ شىء بنظارات الدينار و الدولار فهو الاخر بعيد عن التوحيد و قد أشرک باللّه عن طريقٍ غير مباشر. و من لا يتورّع عن اقتراف أيّة جريمة فى سبيل الاستحواذ على السلطة أو الاحتفاظ بها فيخادع، و يکذب، و يدمّر، فى سبيل البقاء فى السلطة لمدّة أطول، فهو الاخر مشرک. و من يتّخذ لنفسه ربّاً و سيّداً من عند نفسه، يعوّل عليه فى جميع أموره، و بدلاً من أن يرى الحقّ من اللّه، يُعلّق بَصَره على ما يتفوّه به سيّده، فهو أيضاً بعيد عن التوحيد. و لکن الشرک العظيم هو أن تجعل للّه شريکا فى ربوبيّته، و قدرته، و علمه، و خلقه، و تدبيره، و رزقه و تقديره، و سيادته و حکمه و غير ذلک.

لابدّ أنّكم سمعتم البعض يقول: لولا فلان و مساعدته لی لحصل ما حصل لی و لهلكتُ. و هذا أيضاً فرعٌ من فروع الشرك. فالعون المطلق من اللّه وحده و لكن أجراه على يد ذلک الشخص الذی وفّقه اللّه و قاده للوقوف إلى جانب ذلک المضطّر. و لو لم يكن ذلک الشخص لجعل اللّه عونَک على يد شخص آخر غيره و لو لم يكن أحدٌ أبداً، لأنقذک اللّه من حيث لا تحتسب.

و لابدّ أنكم سمعتم من يقول: إنّنی أعلّق الامل على اللّه أوّلاً و عليک ثانياً. فهذا الكلام ينطوی أيضاً على نوع من الشرک. فما هی القدرة التی يمتلكها ذلک الشخص لكی يكون فی مصاف اللّه؟ فكلّ لحظة من لحظات وجوده رهينةٌ بإرادة اللّه، و كلّ ذرّة من ذرات كيانه موقوفة على رعاية اللّه تعالی.

لعلّكم لاحظتم أن البعض يتشبّث بالاحراز و الطلاسم و الاحجار و الادعية الوهمية الغامضة التی يرتجی من ورائها أن يقول للشیء كُن فيكون، و يحيی بها الميّت، و يشفی الاعمی و يجلب بها الرزق و ينجو من المخاطر و غير ذلک، و هذا شرک أيضاً. فما تأثير هذه الاحراز و الطلاسم و غيرها فی إرادته تعالی؟! نعم إذا كان الدعاء كما يريده اللّه صادراً من القلب و نابعا من الثقة به فإنَّ الباری تعالی يسمع و يستجيب فقد قال تعالی: «**وَ قالَ رَبُّكُم اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ**». غافر، ٦٠

أرادت حليمة أن ترسله إلى الصحراء، فقد كان من أشراف قريش. والده كان قد مات قبل أن يولد هو. ومنذ أن جاءت به حليمة إلى دارها حلَّ فيها الخير و ازدادت البركة. كانت حليمة بدوية من أهل الحجاز، فجاءت بقلادة أحجارها من الحصی. حصی متعدد الالوان و غيرمصقول. نُظم فی خيط مِن صوف. وضعت حليمة تلک القلادة فی عنقه.

- ما هذا يا أمّاه؟!

- أحجار تقيک من الشرور و تصونک من الاخطار!

إنتزع الاحجار من رقبته و جعلها أمام حليمة و قال: و كيف تحفظنی هذه الاحجار، إنَّ لی ربّاً يحمينی. بحار الانوار، ج١٥، ص٣٩٢.

محمد صلی‌الله‌عليه‌وآله صغيرالسنّ، و لكنّه يعلّم مرضعته، بل يعلّم العالم كلّه درس التوحيد.

قلنا: إنَّ مَنْ يطرق باب بيتٍ غير بيت اللّه، و يمدّ يد الحاجة إلى الاخرين و ينظر بعين الامل إلى مخلوق، فهذا يعنى أن شعبة من الشرک متغلغلة فيه. فإذا كان الامر كذلک فما معنى ما نفعله نحن حين نتوسّل بالنبىّ صلىاللهعليهوآله وبالسيدة الزهراء عليهاالسلام ، وبأمير المؤمنين عليهالسلام و بغيرهم من الائمة المعصومين عليهمالسلام ، أو حتى بأولاد الائمة مثل السيّدة فاطمة المعصومة عليهاالسلام ، أو أبىالفضل العباس عليهالسلام ، ونطلب منهم ما نطلب؟! و هل هذا العمل - كما يظنّ الوهابيون - شركٌ؟!

التوسّل

التوحيد هو أن تطلب كل ما تريده من اللّه، و الشرک هو أن تجعل آخر بدلاً عنه تطلب منه ما تريده. و لكن ما هو التوسّل؟! قلنا: إنَّ الحكم و السيادة للّه. و لكن إذا كان اللّه يجعل امورنا الى احد ممن يصطفيهم، لنتّخذه واسطة بيننا و بينه تعالى فمثلاً يستغفر و يدعو لنا؛ فماذا عسانا أن نفعل؟! علينا طبعاً الاستجابة لأمر اللّه.

و لا شکّ فى أنّ مَن يصطفيه اللّه موثوق به، و أنّه يرشد إلى ذات السبيل التى يريدها اللّه. و هكذا الحال فى إظهار الحاجة. اللّه وحده يلبّى حاجة الانسان و يستجيب لما يريد. و لكن إذا جعل اللّه واسطة و وسيلة و يأمرنا بالتوسل بمن جعله خليفة عنه فى الارض كأن يكون نبياً أو إماماً، و يجعله واسطة للفيض معتبراً التقرّب إليه بمثابة التقرّب إليه تعالى. ففى هذه الحالة لا يُعتبر التوسّل بهذا الشخص نوعاً من الشرک، بل يُعَدُّ تجلياً من تجلّيات التوحيد. إذاً فأنا أتوسّل بهذا الشخص امتثالاً لأمر اللّه فانّه أمر أن أقصد داره و أطلب بواسطته من اللّه ما اُريد.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللّه وَ ابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَ جَاهِدُواْ فى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**». المائده، ٣٥.

النبىّ وسيلة و نحن نطلب منه أن يدعو لنا اللّه. و من الواضح أن اللّه عزّ و جلّ هو الذى رسم مثل هذه العلاقة بيننا و بين رسوله.

«فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ». آل‌عمران، ۱۵۹.

اللّه يأمر نبيّه أن يدعو للمؤمنين و يستغفر لهم، بمعنى أنّه جعله واسطة و وسيلة الى مرضاته.

بعد ما افتضح فعل أولاد النبىّ يعقوب و انكشف للناس قبيح عملهم إذ ألقوا يوسف فى البئر، جاءوا إلى أبيهم و...

«قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». يوسف، ۹۸–۹۷.

نلاحظ هنا أنّهم يطلبون من أبيهم أن يطلب من اللّه أن يغفر لهم ذنوبهم، ثم أنَّ النبىّ يعقوب لم يَنهاهم عن هذا الطلب، بل وعدهم أن يستغفر اللّه لهم.

و أما الشرک، فهو أن تطرق باب من لم يجعله اللّه وسيلة إليه. و التوسّل هو أن تطلب ممن اصطفاه اللّه و جعله خليفة له. و الشرک هو أن تعتبر غير اللّه ذا قدرة مستقلّة عن قدرة اللّه. و التوسّل هو أن تجعل وليّاً من أولياء اللّه وسيلة و واسطة إلى اللّه.

وحدة الوجود

مَن الخالق و ما هو و كيف؟ نقاش يدور منذ انبلاج فجر المدنيّة و الوعى إلى يوم ينتهى هذا العالم و تُطوى صفحته. فالنبىّ إبراهيم عليه‌السلام بطل التوحيد علَّم بنى‌الانسان أنّ إلهكم ليس هذا الحجر و الخشب و الذَهَب، و لا تلک الاصنام الخاوية التافهة، و لا الكوكب و الشمس و القمر، بل خالقكم و خالق كل ما ترون، إلهٌ واحد أحد. و قد تحدّث موسى و عيسى و محمد عليهم‌السلام عن الخالق العظيم لكلّ المخلوقات.

و لكن هناک فى مختلف الثقافات فكرة شائعة و هى أن ما هو موجود فى عالم الوجود هو اللّه. و أن الوجود واحدٌ و هو اللّه. و ما ترونه فى صورة إنسان و حيوان و حجر و نبات، إنّما هو قبسات من ذلک الوجود. ثم يضربون على ذلک مثالاً و يقولون: انظروا البحر تجدونه وأحداً، و أمواجه تضرب الساحل فينشأ عنها ما لا يُحصى من الفقاعات. و لكن هذه الفُقاعات خالية و ليست ذات شىءٍ. و

الشیء الموجود هو البحر. و یأتون أیضاً بمثال آخر و هو الشمس و یقولون إنَّ الشمس واحدة و لکن تنبثق منها آلاف الانوار و الاشعاعات التی تُضیء الدنیا. و الاشعاعات هی الشمس نفسها.

وحدة الوجود معناها أن الوجود کلّه واحد، و ذلک الوجود الواحد هو اللّه الذی یسری فی شرایین مخلوقات الکَوْن. أمْعِنوا النظر فی أقوالهم و أناشیدهم ابتداءً من محییالدین ابنالعربی، الذی یوصف و للاسف بأنّه رائد العرفان الاسلامی، و نجد أن کبار و أعلام مسلک العرفان والفلسفة یقضون الشهور بل السنوات فی الاستماع إلی الدروس التی تُلقی فی الفصوص والفتوحات. یقول ابنالعربی:

«فکلّ ما تدرکه فهو وجود الحق فی أعیان الممکنات فالعالم متوهَمٌ ما له وجود حقیقی وهذا معنی الخیال». فصوص الحکم، ص۲۳۴.

«سبحان من أظهر الاشیاء و هو عینها». الفتوحات المکیة، ج۲، ص۴۵۹.

«فما عُبد غیر اللّه فی کلّ معبود إذ لا غیره فی الوجود». فصوص الحکم، ص۱۴۳.

«إن هویّة الحق هی التی تعیّنت و ظهرت بالصورة العیسویّة کما ظهرت بصورة العالم کلّه». فصوص الحکم، ص۳۲۵.

و کتب آخر: «کذلک هدانی ربّی بالبرهان النیّر العرشی إلی صراط مستقیم من کون الموجود و الوجود منحصراً فی حقیقة واحدة... ولیس فی دار الوجود غیره دیّار و کلّما یترائی فی عالم الوجود فإنّه غیر الواجب المعبود إنّما هو من ظهور ذاته و تجلیّات صفاته التی هی فی الحقیقة عین ذاته». الاسفار الاربعة، ج۱، ص۱۱۷.

و کان منصور الحلاّج ینادی: أنا الحق. و کان آخر یقول: لیس فی جبّتی إلاّ اللّه. و لازالت نداءاتهم تُسمع من فوق أعواد المشانق، و یمکن العثور علیها فی بعض الکتب کنموذج للعرفان و التوحید.

و لکن هل ینسجم هذا الاعتقاد مع التوحید؟! و هل یقدّم لنا القرآن مثل هذا الاله؟! هناک آیات صریحة فی القرآن الکریم ترفض فکرة وحدة الوجود، منها قوله تعالی:

«**لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ وَ هُوَ السَّمِیعُ البَصِیرُ**». الشوری، ۱۱.

«**فَلاَ تَضْرِبُواْ للّه الاَمْثَالَ إِنَّ اللّه یَعْلَمُ وَ أَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**». النحل، ۷۴.

«**قُلْ هُوَ اللّه أَحَدٌ * اللّه الصَّمَدُ * لَمْ‌یَلِدْ وَ لَمْ‌یُولَدْ * وَ لَمْ‌یَکُن لَهُ کُفُواً أَحَدٌ**». الاخلاص، ۴-۱.

«**فَلاَتَجْعَلُوا للّه أَندَاداً وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ**». البقرة، ۲۲.

و یقول أمیرالمؤمنین علیه‌السلام فی دعاء الصباح: «**یا من دلَّ علی ذاته بذاته و تنزّه عن مجانسة مخلوقاته**». بحار الانوار، ج۹۱، ص۲۴۲.

و قال أیضاً فی موضع آخر: «**توحیده تمییزه من خلقه و حکم التمییز بینونة صفةٍ لا بینونة عزلةٍ إنّه ربّ خالق غیر مربوبٍ مخلوقٍ ما تصوّر فهو بخلافه**». بحار الانوار، ج۴، ص۲۵۳.

و قال الامام الحسین علیه‌السلام : «**إنّه لایوصفُ بشیءٍ من صفات المخلوقین**». بحار الانوار، ج۴، ص۳۰۱.

و قال الامام الصادق علیه‌السلام : «**شیءٌ بخلاف الاشیاء ارجع بقولی شیءٌ إلی إثبات معنیً و أنّهُ شیءٌ بحقیقة الشیئیّة غیر أنّهُ لا جسم و لا صورةٌ و لا یُحسُّ و لا یُجسُّ** (ای لایُمَسّ) **و لا یُدرک بالحواس الخمس لا تُدرکه الاوهام و لا تنقصهُ الدهور و لا تغیّره الازمان**». بحار الانوار، ج۳، ص۲۹.

و قال أیضاً: «**من شبّه اللّه بخلقهِ فهو مشرکٌ إنّ اللّه تبارک وتعالی لایشبهُ شیئاً و لایشبههُ شیءٌ و کلّ ما وقع فی الوهم فهو بخلافه**». الکافی، ج۱، ص۸۰.

و قال الامام الرضا علیه‌السلام فی هذا المجال: «**فلیس اللّه من عُرِّف بالتشبیه ذاتُهُ و لا ایّاهُ وحَّدَ مَن اکتنههُ** (ای وَصَفَ کُنهَ ذاتِه تعالی) **و لا حقیقته أصابَ مَن مَثَّلَهُ** (ای ضرب له مثلاً) **و لا به صدّقَ من نهّاهُ** (ای جعل له نهایة و حدّاً) **و لا صمَّدَ صَمَدَهُ مَن أشارَ إلیه و لا إیّاهُ عنّی من شبَّههُ**». بحار الانوار، ج۴، ص۲۲۸.

و قال أیضاً: «**فکلّ ما فی الخَلقِ لا یُوجدُ فی خالقهِ و کلُّ ما یمکنُ فیه یمتنعُ فی صانعهِ**». بحار الانوار، ج۴، ص۲۳.

و قال الامام محمد الجواد علیه‌السلام : «**فما وقع وهمُک علیهِ من شیءٍ فهو خلافهُ لا یشبههُ شیءٌ و لاتدرکهُ الاوهامُ**». الکافی، ج۱، ص۸۲.

و الان، فی أی اتّجاه تسیرون؟! هل تتوجّهون صوب الاشعار و الاوهام و التخیّلات، أم تریدون معرفة اللّه من مصادر صافیة نقیّة و هی القرآن و النبی و الائمة المعصومین؟!

یصرّح القرآن الکریم بأنَّ اللّه لیس کمثل باقی الاشیاء، فلا تضربوا له الامثال. و لیس کمثله شیء و لایضاهیه شیءٌ. وقال أئمتنا أیضاً إنّه لیس کمخلوقاته، و لاتتجسد له فی فکر الانسان صورة؛ إذ إنّه أسمی وأجلَّ من تقییده بقیود الاوصاف.

یا مَن تعتبرون الوجود کلّه وأحداً و هو اللّه، بأی دلیل تُنادون بمثل هذا الاعتقاد؟! و من الطبیعی أنّهم سیستدلّون بآیات من القرآن الکریم.

«**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّه یَعْلَمُ مَا فی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فی الاْءَرْضِ مَا یَکُونُ مِن نَّجْوَی ثَلاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لا أَدْنَی مِن ذَلِکَ وَ لا أَکْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَیْنَ مَا کَانُوا**». المجادلة، ۷.

«**وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ مَا کُنتُمْ**». الحدید، ۴.

إنَّ اللّه معنا؛ فإذا کان هناک شخصان یتناجیان فهو معهما و هو ثالثهم، و ان کان ثلاثة فهو رابعهم. فموضوع «إنّ اللّه معکم» یختلف عن موضوع «اللّه هو أنتم»! فاللّه عزّ و جلّ معنا و مطّلعٌ علی أحوالنا، و هذا لا یعنی طبعاً أنَّه نحن!!

و یستند آخرون إلی هذه الآیة الشریفة: «**إِنَّا للّه وَ إِنَّا إِلَیْهِ رَاجِعونَ**». البقرة، ۱۵۶.

علی اعتبار أن معناها هو اننا من اللّه و سنرجع إلیه. فی حین أنّ عبارة «انّا للّه» لا تفید هذا المعنی. والدلیل هو الآیة التالیة: «**للّه ما فی السَّمَاواتِ وَ مَا فی الاَرْضِ**». البقرة، ۲۸۴.

«إنّا للّه» تفید أننا له و هو مالکنا، مثلما هو مالک السموات و الارض و أنّا نرجع إلی حکمه وإلی ما یأمر به.

«**هُوَ الاَوَّلُ وَ الاْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ**». الحدید، ۳.

هو الاوّل، إنّه کان حین لم یکن شیء. و الاخر بمعنی انّه موجود حین یفنی کلّ شیء. دلائله و آیاته تملأ العالم فهو الظاهر. و الباطن بمعنی أنّه خُفی عن الانظار و بعیدٌ لاتحیط به الاوهام و الخیالات. فما هی علاقة هذه الآیة بوحدة الوجود؟! و قد یستدلّون بهذه الآیة:

«فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّه إِنَّ اللّه وَاسِعٌ عَلِيمٌ». البقرة، ۱۱۵.

فقد كان المسلمون يتوجّهون فی الصلاة نحو بيت المقدس. فقال اليهود إنّهم يصلّون باتجاه قِبلتنا. فأمر اللّه المسلمين بالتوجه فی صلاتهم نحو الكعبة. و سواءً توجهتم نحو المشرق أو المغرب أو أی اتجاه آخر فأنتم تتوجهون نحو اللّه؛ لانّه تعالى غير محدود بجهةٍ معينة و لا هو موجود فی اتجاهٍ خاصّ. فكيف يُفهم من هذه الآية أن الوجود واحدٌ، وذلک الواحد هو خالق الوجود؟!

و بعد ما ينفضون أيديهم من هذه الآيات سيقولون: إذاً فما طبيعة علاقة اللّه بنا ونسبته إلينا؟! هل هو بمعزلٍ عنا أم فينا و جارٍ فی أوصالنا؟! فإنْ قُلتم إنّه بمعزلٍ عنّا فهذا يعنی أنكم تُحددونه. و إن قلتم أنّه فينا، فكلامنا صحيح، و الوجود كله يصير وأحداً!

نسير بهذا اللغز إلى أميرالمؤمنين عليه‌السلام ليقول رأيه فيه و نسأله: ما علاقة الانسان - بل كلّ المخلوقات الاخرى - باللّه؟! و هل هو موجود فی وجودنا و كياننا أم لا؟! و يأتينا الجواب منه على النحو التالی:

«داخلٌ فی الاشياء لا كشیءٍ داخلٍ فی شیءٍ و خارجٌ من الاشياء لا كشیءٍ خارجٍ من شیءٍ سبحان من هو هكذا و لا هكذا غيره». الكافی، ج۱، ص۸۵.

«مع كلّ شیءٍ لا بمقارنةٍ و غير كلّ شیءٍ لا بمزايلة». بحار الانوار، ج۴، ص۲۴۷.

إنَّ حقيقة اللّه تختلف عن سائر المخلوقات و لكن هذا الفارق لا يعنی أن اللّه بعيد عنا و بمعزل عنا. فهو عزّ و جلّ غير موجود فی مكان معيّن و زمان محدّد، و إنّما هو فوق المكان و الزمان. و صفاته كالعلم و القدرة و الحياة و السمع و البصر عين ذاته، و لكن تختلف عن صفات سائر المخلوقات. فنحن نرى و لكن بعين و ضمن شروط و حدود. أما هو فيرى و لكن رؤيته بمعنى أنّه يعلم الاشياء لا بعين و نحن نسمع، حين تهتزّ طبلة الأذُن، و تعكس الاعصاب السمعية الصوت إلى الدماغ. و اللّه تعالى يسمع أيضاً أی بمعنى أنه مطّلعٌ على المسموعات. و نحن موجودون و لكن بكيان خاصّ محكومٌ بظروف الزمان والمكان و لهذا الكيان بداية و نهاية. و هو أيضاً موجود و لكن وجوده خارج دائرة الزمان و

المكان، و لا بداية له و لا نهاية. و نحن و كلّ المخلوقات وُجدنا بإرادته، و لكن لا بمعنى أننا كلّنا و هو شيء واحد!!

«إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فى آيَاتِ اللّه بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّه إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». غافر، ٥٦.

انّه ليس بجسمٍ و لا يُرى!

من خلال ما قُلناه حول اللّه تعالى، ربّما يتّضح هذان الامران بكلّ جلاء. فالجسم محدود و له طول و عرض و ارتفاع و يقع فى حدود زمان و مكان، و هو معرّض للفناء. إذاً انّه تعالى مطلق و غيرمحدود بالزمان و المكان. و لايمكن أن يكون جسماً و لايمكن أن يُرى؛ لاننا إذا رأينا بأعيننا الصغيرة هذه شيئاً، فلابدّ أن يكون ذلک الشيء محدوداً و يحتلّ حيِّزاً من المكان و يعكس الضوء. و هذه الصفات لاتنطبق أيٌّ منها على اللّه.

«لاتُدْرِكُهُ الاَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِکُ الاَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». الانعام، ١٠٣.

و هذا المعتقَد المتكامل و الراقى لا تجدونه عند الكثير من المذاهب الاسلامية. فالاخرون يعتقدون أنّ اللّه يُرى، فى الدنيا أو فى الآخرة. و هو يأتى و يذهب، و ينزل ليلة الجمعة من العرش إلى السماء، و يسمع دعاء عباده. و فى يوم القيامة يجلس على سرير و يجلس إلى جانبه النبىّ محمد صلىاللهعليهوآله ، وفى تلک الاثناء تظهر ساق اللّه، فيسجد المؤمنون عندما يرون ساقه، و لايستطيع الكافرون السجود. و هذه الرؤية التى تَصِفُ جلوس اللّه على السرير، و مجيئه و ذهابه، و ساقه و كأنّه إنسانٌ! رؤيةٌ يرفضها العقل والمنطق.

و إذا ذهبنا خارج دائرة المسلمين، نجد أن اليهود والنصارى يعتقدون أنَّ اللّه قد أرى نفسه لآدم وحوّاء على هيئة إنسان. وتصارع ذات ليلة مع يعقوب إلى الصباح و صرعه يعقوب، وغير ذلک من الاقوال. فهل مثل هذا الاله المحدود يُمكن أن يكون خالقاً للكون بما فيه من مجرّات و منظومات شمسيّة يعجز الانسان حتى عن تصوّرها؟!

اللّه یأتی!

«**وَ جَاء رَبُّکَ وَ الْمَلَکُ صَفّاً صَفّاً**». الفجر، ۲۲.

«**هَلْ یَنظُرُونَ إِلّا أَن یَأْتِیَهُمُ اللّه فی ظُلَلٍ منَ الْغَمَامِ وَ الْمَلائِکَةُ وَ قُضِیَ الاَمْرُ وَ إِلَی اللّه تُرْجَعُ الامُورُ**». البقرة، ۲۱۰.

عند النظر إلی هذه الآیات یتبادر إلی الذهن فی الوهلة الاولی أنَّ اللّه یأتی یوم القیامة مع الملائکة، بل إنّه یأتی فی ظُلل من الغمام! فهل الامر کذلک؟! و هل أنّه لم یکن فی مکان ثم جاء إلی ذلک المکان. أو انه یأتی محاطاً بغمام؟! فلنرجع الی القرآن.

«**أَلا إِنَّهُمْ فی مِرْیَةٍ من لِقَاء رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ**». فُصّلت، ۵۴.

اللّه الذی هو محیطٌ علی کلّ شیء کیف یُحاط بِغَمامٍ؟!

«**وَ هُوَ الَّذِی فی السَّمَاء إِلهٌ وَ فی الارْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ**». الزخرف، ۸۴.

فهو سبحانه وتعالی فی الارض إلهٌ، و فی الوقت نفسه هو فی السماء إله أیضاً، و لا یجوز القول إنّه فی السماء و ینزل منها إلی الارض. إذاً کیف نفهم هاتین الایتین؟ الحلّ هو أن نعود إلی القرآن فنراه یقول:

«**هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتَابِ مِن دِیَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن یَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم منَ اللّه فَأَتَاهُمُ اللّه مِنْ حَیْثُ لَمْیَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فی قُلُوبِهِمُ الرُعْبَ**». الحشر، ۲.

تحصّن الیهود فی قلاع و حصون منیعة، و لکن جیش الاسلام کان أشدّ استحکاماً من قلاعهم. و دخلها اللّه علیهم من حیث لم یتوقّعوا. و من الطبیعی أن اللّه لمیدخل القلاع وإنّما دخل علیهم أمره فألقی فی قلوبهم الرعب. إذاً نلاحظ فی هذه الآیة بدلاً من أن یقول: «فأتاهم أمر اللّه» نراه یقول: «فأتاهم اللّه». و هناک آیة أخری.

«**هَلْ یَنظُرُونَ إِلّا أَن تَأْتِیهُمُ الْمَلائِکَةُ أَوْ یَأْتِیَ رَبُّکَ أَوْ یَأْتِیَ بَعْضُ آیَاتِ رَبِّکَ**». الانعام، ۱۵۸.

و هل اللّه غائبٌ عن ذلک المکان أو غیر موجود فیه حتی یأتی إلیه؟ کلا طبعاً و إنّما هو موجود علی الدوام فی کلّ مکان.

«**إِنَّ اللّه عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ**». الحجّ، ۱۷.

إذاً فما المراد من أنّ اللّه یأتی یوم القیامة؟! قال الامام الرضا علیه‌السلام فی جواب هذا السؤال: «**إنَّ اللّه لا یُوصفُ بالمجیءِ و الذهابِ، تعالی عَن الانتقالِ، إنَّما یعنی بذلک و جاءَ أمرُ ربِّک**». بحار الانوار، ج۳، ص۳۱۸.

نعم، یُطلق القرآن تسمیة مجیء العذاب الالهی أو الآیات الالهیّة، تسمیة مجیء اللّه مجازاً.

ثمّ نجد عند أهل الجماعة حدیثاً مرویّاً عن رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله جاء فیه: «**إنَّ اللّه یفتحُ أبواب السماءِ ثُلثَ اللیلِ الباقی ثمَّ یهبطُ إلی الارضِ ثمَّ یبسطُ یدهُ ثمَّ یقولُ: إلا عبدٌ یسألنی فأعطیهِ و مَن یستغفرُ فأغفر له و مَن یدعونی فأستجیبُ له**». صحیح البخاری، الحدیث ۱۱۲۸ و مسند احمد، الحدیث ۴۲۶۵.

و قد ورد فی کتب أحادیث الشیعة مثل هذا المضمون فی ما یخصّ لیلة الجمعة. (راجع الکافی، ج۳، ص۴۱۴) إذ جاءت فی بعض هذه الاحادیث کلمة هَبَط، بینما جاءت فی أحادیث أخری کلمة نزل، و کلاهما بمعنی واحد. فهل یعنی هذا أنّ اللّه غیر موجود علی الارض فی النهار أو فی أوّل اللیل، ثم ینزل إلی الارض فی الثلث الاخیر من اللیل فقط؟! وهل عندما ینزل إلی الارض، لا یبقی له وجود فی السماء؟ و هل یمکن إطلاق کلمة الهبوط علی اللّه؟! أطلق اللّه کلمة هبوط فی القرآن لوصف إخراج آدم من الجنّة ونزوله إلی الارض. کان آدم فی الجنّة و لم یکن فی الارض. فخرج من الجنّة و هبط إلی الارض. فهل یمکن إطلاق هذه الحالة من الانتقال علی اللّه تعالی؟! نرجع إلی القرآن فنراه یقول:

«**أَلَمْتَرَ أَنَّ اللّه یَعْلَمُ مَا فی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فی الأَرْضِ مَا یَکُونُ مِن نَّجْوَی ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لاخَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لا أَدْنَی مِن ذَلِکَ وَ لا أَکْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَیْنَ مَا کَانُوا**». المجادلة، ۷.

یقول اللّه فی هذه الآیة إنْ کان هناک شخصان یتناجیان فهو عزّ و جلّ ثالثهما؛ أی بمعنی أنّه یسمع کلامهما و یطلع علی سرّهما. و إن کانوا ثلاثة فهو رابعهم. اللّه موجود و ناظر و حاضر فی کلّ مکان و زمان. و فی ضوء ما ورد فی القرآن الکریم ینبغی أخذ هذه الاحادیث بمعنی أن الرحمة الالهیّة تنزل فی

الثلث الاخير من الليل، أو يهبط مَلَکٌ من الملائکة بأمر اللّه إلى السماء الدنيا و يدعو الناس إلى الدعاء و الاستغفار، کما نجد فى الروايات أيضاً ما يوافق هذا.

«**انّ الربّ تعالى ينزل أمره کلّ ليلة جمعة إلى سماء الدنيا من أولّ الليل، و فى کلّ ليلة فى الثلث الاخير و أمامه ملکان فينادیان: هل من تائبٍ فيُتاب عليه؟ هل من مستغفرٍ فيُغفر له؟**». وسائل الشيعة، ج٧، ص٣٩١.

إلهٌ کالانسان!

يعتقد البعض أن اللّه شبيه بالانسان، و ربّما أکبر منه قليلاً! و لکن له يدان و عين، و رِجل، و يرى ساقُه يوم للقيامة کلّ الخلق و... بل إن اللّه خلق الانسان على شکله و شمائله. تعود جذور هذا التشبيه إلى التوراة التى تصوّر اللّه فى مواضع کثيرة على هيئة الانسان.

«و سمع آدم و امرأته صوت الربّ الاله و هو يتمشّى فى الجنّة عند المساء، فاختبأ من وجه الربّ الاله بين شجر الجنّة». سفر التکوين، القسم٣.

«ثمّ صعد موسى و هارون و ناداب و أبيهو و سبعون من شيوخ بنیإسرائيل، فرأوا إله بنیإسرائيل و تحت قدميه شبه رصيف من الياقوت الازرق، نقیّ کالسماء ذاتها؛ ولکن لم يمدّ يَدَه عليهم لانّهم رأوه، ثم أکلوا وشربوا معاً». سفر الخروج، القسم٢٤.

و لکن ما الذى يقوله القرآن فى هذا المجال؟ وصف القرآن الکريم، اللّه تعالى ، بأن له يد و يدين، و يمين، و عين، و أنّه استوى.

«**يَدُ اللّه فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**». الفتح، ١٠.

«**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَکَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَیَّ**». ص، ٧٥.

تأتى کلمة اليد أو اليمين بمعنى هذا العضو المعروف فى جسم الانسان، کما أنها تأتى مجازاً بمعنى القدرة والقوّة. فنحن نقول إن لفلان يداً فى هذا العمل، أو له يد طولى. و يفهم فى ضوء ذلک أن عبارة «يد اللّه فوق أيديهم» لا تعنى أن للّه يداً مثلما للانسان يد، ثمّ أن يده فوق کل الايدى الاخرى! کلا

طبعاً. فمعنى الآية واضح و هو أنَّ يد اللّه فوق أيدى كل من بايعوا النبىّ فالمؤمنون عندما بايعوا الرسول فكأنّهم بايعوا اللّه.

و هكذا الحال بالنسبة إلى خلق آدم أيضاً. فالاية الانف ذكرها لا تعنى أن اللّه خلق بقية المخلوقات بيد واحدة و خلق آدم بكلتا يديه، و إنّما المراد من الخلق بيدين اثنين أنّه خلقه باهتمام و قوّة. و فى يوم القيامة يقبض اللّه الارض، «و **السَّماواتُ مَطويّاتٌ بِيَمينِهِ**». الزمر، ۶۷.

و من الطبيعى أن اليد اليمنى ترمز إلى اليد الاقوى والاشدّ؛ أى أن طىّ السماوات من المظاهر الكبرى للقدرة الالهية. و تأمل فى هذه الآية: «**وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَاالاْيْدِ إِنَّهُ أَوّابٌ**». ص، ۱۷.

و كذلک عندما يخاطب البارى تعالى النبىّ نوحاً عليه‌السلام أو النبىّ محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله بقوله: «**بِأَعيُنِنا**» (هود، ۳۷ و الطور، ۴۸) أى بمعنى أننى معكما و أراكما، و ليس بمعنى أن اللّه له عين ينظر بها إلى شخص و يغفل عن آخر. و كلمة العين تستعمل عادة فى اللغة بمعنى الانتباه و الملاحظة، كما تأتى عبارة «بعين اللّه» بمعنى أن اللّه يرى هذا الشىء.

«**قَالَ لاتَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**». طه، ۴۶.

و تأتى كلمة استوى بمعنى الجلوس المقرون بالهيمنة والسطوة.

«**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**». طه، ۵.

ذهب البعض إلى الاخذ بالمعنى البدوى للآية و قالوا إنّ عرش اللّه عبارة عن سرير فخم عرضه كذا ذراع و طوله كذا ذراع، و هو جالس عليه، و فى يوم القيامة يُجلِس النبىّ إلى جانبه. و لكن لاحظوا معنى كلمة «استوى» فى آية أخرى:

«**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**». القصص، ۱۴.

و لا داعى للقول بانّ كلمة استوى لا تأتى هنا بمعنى الجلوس، و إنّما تعنى الكمال. و فى ضوء هذا المعنى نعود إلى الآيات التى وردت فيها هذه الكلمة بشأن اللّه تعالى:

«**هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم ما فى الاَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**». البقرة، ۲۹.

و مِن الواضح أن «استوى» هنا تعنى إرادة اللّه و قدرته فى خلق السماوات. كما جاءت كلمة "استوى" مقرونة بتدبير الامور.

«**اللّهُ الَّذى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الاَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**». الرعد، ۲.

و تأتى كلمة «استوى» مقرونة بالعلم.

«**هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ فى سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فى الأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فيها**». الحديد، ۴.

«**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلأَرْضِ اِئْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**». فصّلت، ۱۱.

«استوى» مقرونة هنا بمعنى تسخير الشمس والقمر. «استوى» تعنى نوع من الهيمنة والهيبة المقرونة بالعلم و الاطلاع و التدبير. و نرى من المناسب هنا أن نقرأ الآية التالية لمن يقيسون موضوع جلوس اللّه بالاشبار و الاذرع!

«**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضَ**». البقرة، ۲۵۵.

و هذه الآية تعنى طبعاً أنّ السماء والارض تحت سطوته و ضمن علمه، و لا تعنى أنّه جالس على كرسيٍ طوله و عرضه كذا ذراع!!

قال أمير المؤمنين عليه‌السلام فى هذا المعنى: «**استوى تدبيره و علا أمره**». بحار الانوار، ج۳، ص۳۱۰.

و اما ما رُوى عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من أنّه قال: «**خلق اللّه آدم على صورته**». البخارى، الحديث ۶۰۸۴.

بل يمكن العثور على هذا المعنى فى التوراة أيضاً: «و قال اللّه: لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا، و ليتسلّط على سمک البحر و طير السماء...». سفر التكوين، القسم الاول.

و لكن الشيعة و بعض أهل الجماعة يصرّحون بأنّ هذا الحديث المروى عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم‌يُنقل بكامله، و إنّما له بداية و هى أنّ رسول اللّه مَرَّ برجلين يتسابّان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه:

قبَّح اللّه وجهَک و وجهَ من یُشبهک. فقال له النبیّ صلی‌اللهعلیه‌وآله : «**یا عبد اللّه! لا تقل هذا لاخیک! فإنّ اللّه خلق آدمَ علی صورتِه**».

أی أنّ اللّه خلق کل بنی‌آدم علی صورة و هیئة واحدة. فکیف تقبّح وجهه و أنت مثله. فعلی هذا فإنَّ الضمیر فی کلمة «صورته» لایعود الی اللّه، و إنّما یعود الی ذلک الشخص الذی توجّه السبُّ إلیه.

«**لایقولَنَّ احدُکُم قَبَّحَ اللّهُ وجهَکَ و وجهَ مَن یُشبِهُ وجهَکَ فإنَّ اللّهَ خَلَقَ آدمَ علی صُورَتِه**». بحار الانوار، ج۴، ص۱۱ و صحیح ابن‌حبّان، الحدیث ۵۶۲۳.

مسألة الساق!

«**یَوْمَ یُکْشَفُ عَن سَاقٍ وَ یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ فَلایَسْتَطِیعُونَ**». القلم، ۴۲.

أحصی اللّه خصائص کثیرة لیوم القیامة منها: یوم الحساب، یوم الندامة، یوماً عبوساً قمطریراً، و منها أیضاً قوله: «یوم یُکشف عن ساق» و عندها یدعو اللّه الجمیع إلی السجود؛ فیسجد المؤمنون، و لا یستطیع الکافرون السجود. و القضیة الجدیرة بالاهتمام هنا هی ما معنی «ساق» فی هذه الآیة؟!

هناک ثلاثة تفاسیر لهذه الآیة: یذهب أوّلها إلی القول بانّ تعبیر «کشف الساق» کنایة شبیهة بقولنا: شمّر عن ذراعیه الذی یعنی الاستعداد و التأهّب. و الکشف عن الساق کذلک کنایة عن الشدّة و الصعوبة. فمتی ما اشتدت الامور و صَعُبت علی أحدٍ فی حرب أو غیرها، یُکنّی عن ذلک بهذه العبارة.[1]

قامت الحرب علی ساقٍ   کشفتْ لهم عن ساقها

و أن عضّت به الحرب عضّها   و ان شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا

و علی هذا فمعنی الآیة واضح تماماً و هو أنّ یوم القیامة یوم عسیر و صعب جداً. و عندما یدعو اللّه الناس فیه إلی السجود؛ المؤمن یسجد و الکافر یتعذّر علیه السجود. و هذا التفسیر یقرّه الشیعة و ألسنة.

أما التفسیر الثانی لکلمة الساق هو أنْ نأخذ هذه الکلمة بمعنی الاصل و الاساس فی کلّ شیء، فیکون المعنی أنّ اللّه یکشف یوم القیامة عن أساس العرش أو أساس الحقیقة، أو أساس جَهَنم. و هنا لا یُؤخذ

---

[1] -«الساق الامر الشدید و کشفه مثلٌ فی شدة الامر». لسان العرب، ج ۱۰، ص ۱۶۶.

المعنى على أنّه كناية بل هو تعبير صريح. و هذا التفسير يقرّه الشيعة و أهل الجماعة أيضاً. و معناه أن اللّه يكشف يوم القيامة عمّا خَفى من الحقائق، أو أنه يكشف يومئذ عن العرش باعتباره رمزاً لقدرة اللّه و علمه. فيسجد المؤمنون و يعجز الكافرون عن السجود. يقول الامام الرضا عليه‌السلام : «**يكشف عن حجاب من نورٍ فيقعُ المؤمنون سُجَّداً**». بحار الانوار، ج۴، ص ۷.

و أما التفسير الثالث لهذه الكلمة فهو أن تؤخذ كلمة الساق هنا بمعنى ساق الرِجْل، فيكون المعنى أنّ اللّه يرفع ثوبه! مثلاً فيكشف عن ساقه. و هذه علامة بينه و بين المؤمنين، و حين يرون بريق ساقه يخرّون سجّداً!

و من خلال المقارنة بين هذا التفسير و التفسيرين السابقين تتضح لنا تفاهة وتهافت هذا التفسير. و الشيعة و الكثير من علماء الجماعة لايقرّون هذا المعنى. (شرح نهج البلاغة لابن‌ابی‌الحديد،ج۹، ص۴۱).

رؤية اللّه تعالى

يعتقد الشيعة الاماميّة أنَّ اللّه لا يُرى، و لكن الكثير من الاديان والنِحَل اليهودية، و المسيحية، أو بعض فرق أهل الجماعة يقولون برؤية اللّه بشكلٍ أو آخر، سواءً يراه الانبياء فقط أم كلّ الناس، فى الدنيا أو فى الآخرة! جاء رجل إلى الامام الصادق عليه‌السلام و سأله: هل يمكن رؤية اللّه؟!

قال له الامام: أتستطيع أن تملا عينيک من الشمس؟!

قال الرجل: لا.

فقال الامام: الشمس خلق من خلق اللّه، و لكن ضياؤها ساطع إلى درجة أنک تعجز عن النظر إليه. فالعين التى تعجز عن رؤية مخلوق من مخلوقات اللّه، كيف يمكنها أن ترى الخالق؟! الكافى، ج۱، ص۹۳.

لعل هذا المعنى لم يكن واضحاً لدى القدماء كما هو عليه اليوم. فعين الانسان ذات قدرة محدودة، فأنّها ترى الاجسامَ فى ظروف خاصّة فقط، بينما تعجز عن رؤية الطاقة، و الكهرباء، و الامواج، و الغازات عديمة اللون. و كذلک الاذن؛ فهى لا تسمع من الاصوات إلا حُزَماً ذات ذبذبة معيّنة. و من الطبيعى أنّ

اللّه الذی هو خالق الکَوْن لا ینبغی أن یکون محدوداً أو یکون جسماً یحتلّ حیزاً مکانیاً معیناً بحیث یمکن رؤیته. و علی هذا الاساس فإن اللّه سبحانه وتعالی لا یُری.

«لاتُدْرِکُهُ الاَبْصَارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الاَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ». الانعام، ۱۰۳.

و لکن لننظر هل فی القرآن الکریم آیات أخری تؤیّدنا فی ما ذهبنا إلیه؟! نلاحظ فی ما یلی الآیات التالیة.

«وَ لَوْ تَرَی إِذْ وُقِفُوا عَلی رَبِّهِمْ قَالَ أَلَیْسَ هَذَا بِالْحَقِّ». الانعام، ۳۰.

«کَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ». المطففین، ۱۵.

الآیة الاولی معناها واضح و هو أنّ المجرمین یقفون یوم القیامة بین یدی اللّه، ولکن لا بمعنی أن اللّه جالس فی مکان معیّن، ثم یُؤتی بالمجرمین إلی هناک، بل مثل هذا التعبیر شائع فی مختلف اللغات، فیقال مثلاً إنّ هذا الشخص مسؤول أمام القانون. و من الواضح أنّ القانون لیس له مکان محدّد، و لکن المعنی هو أن هذا الشخص یتحمّل مسؤولیة حین تکون السیادة للقانون. و یوم القیامة یزول کلّ حُکم، و یکون الحاکم الوحید هو اللّه، و الکلّ یقفون بین یدیه.

أمّا الآیة الثانیة التی تقول إنّهم محجوبون عن ربّهم، فهذه کنایة شائعة أیضاً فلو أراد أحدٌ تجاهل أحدٍ یُقال إنّه لم یصغ لکلامه، أو لم یلق لدیه الاستقبال، أو تغاضی عنه. و فی یوم القیامة لا یسمع اللّه کلام المجرمین، بمعنی أنّه لا یُعیر أهمیة لهم، فهم محجوبون عنه، أی یتجاهلهم، و ینزل علیهم النقمة و العذاب.

«وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إِلَی رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». القیامة، ۲۳-۲۲.

هل أهل الجنّة ینظرون إلی اللّه؟! هل رأیت أحداً بحاجة إلی معونةٍ منک فیقول لک: «إنّ عینی ناظرة إلیک»؟! و قد یقول هذه الجملة فی مکالمة هاتفیة من غیر أن یراک! أهل الجنّة لا یرون اللّه بهذه العین المادیة؛ لأنّ اللّه لا یُری. و إنّما عیونهم ناظرة إلیه أملاً برحمته، و ترقّباً مسبقاً لرأفته.

«**وَلَما جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْکَ قَالَ لَن تَرَانِى وَ لَکِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَما أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَکَ تُبْتُ إِلَيْکَ وَ أَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**». الاعراف، ۱۴۳.

بنوإسرائيل معروفون بكثرة اختلاق الذرائع و الحجج، و كانوا يتوقّعون من موسى أن ينحت لهم أصناماً ذات بهارج وبريق لكى يروا ربّهم و يلمسوه. و لم تكن عقولهم الصغيرة تتصور أنّ هناک شیء موجود و لكن لا يمكن رؤيته! وقد ضاق موسى بهم ذرعاً. فاختار موسى سبعين رجلاً من كبارهم و سار بهم إلى الجبل الذى موضع مناجاته مع ربّه، و هناک دعا ربّه إنّ هؤلاء القوم يريدون أن يروک يا ربّی! و جاء الجواب «لن ترانى»، وكلمة لن تفيد تأبيد النفى. إلهى فماذا أقول لهذه الامّة البليدة؟! فقال لهم اللّه عن طريق موسى: انظروا إلى الجبل فإن استطاع أن يستقرّ مكانه فسترون اللّه. و جاء أمر اللّه و تحرّک الجبل من مكانه، و أوشک على ابتلاع بنىإسرائيل. فما معنى هذا المشهد؟! معناه أن عظمة اللّه على هذا القدر بحيث انّ الجبل يندکُّ من تجلى إرادته. فهل أعينكم أكثر ثباتاً من الجبل؟ يا لَه من بشرٍ مغرور يريد أن يرى اللّه بهاتين العينين الصغيرتين!

إن كان اللّه لا يُرى فلماذا طلب موسى من اللّه رؤيته؟! و الجواب واضح و هو أنّ إلحاح بنىإسرائيل دفع موسى إلى أن يثبت لهم أن أعينهم غير قادرة على رؤية اللّه.

سُئِل أميرالمؤمنين عليه‌السلام : هل رأيت ربَّک؟ فقال: «**ما كنتُ أعبدُ ربّاً لمأرهُ**» قال السائل: و كيف رأيَتَهُ؟! فقال الامام: «**لاتُدركهُ العيون فى مشاهدة الابصار ولكن رأتْهُ القلوبُ بحقائقِ الايمان**». الكافى، ج۱، ص۹۸.

و فضلاً عن البصر فإنّ الانسان عاجز عن إدراک اللّه حتى بخياله و وهمه. فاللّه مطلق والانسان محدود؛ فعقله، و فكره، و خياله، و مشاعره كلّها مقيّدة بحدود و لايمكنها الاحاطة بالمطلق.

«**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لايُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**». طه، ۱۱۰.

قال الامام محمد الباقر عليه‌السلام : «**كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم فی أدقّ معانيهِ مخلوقٌ مصنوعٌ مثلكم مردودٌ اليكم و لعلَّ النمل الصغار تتوهم أنّ للّه تعالی زبانتين فانَّ ذلک كمالُها و يتوَّهمُ إنَّ عدمها نُقصانٌ لمن لا يتصفُ بهما**». بحار الانوار، ج۶۶، ص۲۹۲.

الارتباط باللّه

بعد ما قلناه من أنّ اللّه فی غاية الكمال، و العلم، و القدرة، و هو فوق الزمان و المكان، و لا يدركه الانسان بإدراكاته و مشاعره، يتبادر إلی الاذهان هذا السؤال و هو: كيف إذاً نستطيع الارتباط به؟! و هل ثمة سبيل للوصول اليه؟! و ما هو هذا السبيل؟! و ما هی طبيعة العلاقة التی يمكن أن تربطنا مع هذا الاله؟

لعلَّ أجمل معانی العلاقة و الترابط بين الناس هی العلاقة بين الامّ و وليدها. فالوليد ضعيفٌ و لايمكنه دفع أیّ ضرر عن نفسه، و لايمكنه الحصول علی طعامه، أو تنظيف نفسه و الشیء الوحيد الذی يتسنّی له فعله هو البكاء. فالبكاء هو نداؤه الوحيد، و هو يعتمد فی كلّ وجوده علی أُمّه؛ فهی التی ترضعه، و تحتضنه، و تلاطفه، و تنظّفه، و تسعی لتسكين آلامه، و... . أجمل صور العلاقة بين الناس هی هذه العلاقة؛ يتجلّی فيها الضعف التامّ و الحاجة و الطلب من جهةٍ، و القدرة و المكنة المقرونة بالعطف و الرأفة من جهةٍ أخری. و هذه العلاقة نفسها، بل أعمق منها و أرقی تتجسد بين الانسان بل كلّ المخلوقات و بين اللّه تعالی فهو مالک كلّ شیء و غنی، و قادر.

«**وَ إِن من شَیْءٍ إِلّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم**». الحجر، ۲۱.

و هناک علی الجانب الاخر مخلوق ضعيف لا يملک لنفسه نفعاً و لا ضراً، و ليس لديه شیء، و طعامه و شرابه يأتيه من رزق اللّه، و كلّ ما لديه إنّما هو مستعار من اللّه. ففی جانب ضعف و حاجة و سؤال، و فی جانب قدرة وغنی و عظمة و لطف و رأفة و كرم. هذه هی طبيعة العلاقة بين الانسان وربّه؛ علاقة مخلوق بخالقه.

«**أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَی اللّه وَ اللّه هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِيدُ**». فاطر، ۱۵.

بکاء الولید تعبیر عن حاجته لاُمّه کی تتلطف علیه بکرمها و عطفها، و هناک عند الانسان حالة شبیهة بهذه و هی ما نُسمّیها «الدعاء».

الدعاء یعنی الطلب و الاعراب عن الحاجة، و هو یعنی أن تستحضر ربّ هذا العالم فی ذهنک و تناجیه و تعبّر له عن ضعفک و قدرته طالباً منه أن یکتنفک برعایته.

«**قُلْ مَا یَعْبَأُ بِکُمْ رَبِّی لَوْلا دُعَاؤُکُمْ**». الفرقان، ٧٧.

و هو قریب من الانسان إلی درجة أنّه یعلم ما یدور فی خُلده!

«**یَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْیُنِ وَمَا تُخْفی الصُّدُورُ**». غافر، ١٩.

و هو قریب جدّاً من بنیالانسان بحیث أنّه یجعل قلب الانسان حرماً له: «**القلب حرمُ اللّه، فلاتسکُن حرمَ اللّه غیرَ اللّه**». بحار الانوار، ج٦٧، ص٢٥.

و إذا آمنتَ به، یصبح قلبک عرشاً له: «**قلبُ المؤمن، عرشُ الرحمن**». بحار الانوار، ج٥٥، ص٣٩.

لغة الدین

یمکن القول بانّ بحث التوحید قد انتهی عند هذا الحدّ، و لکننا ألحقنا به الموضوعین التالیین بسبب الصِلة الوثیقة بینهما و بین مبحث التوحید.

الموضوع الاوّل هو لغة الدین، فما هی هذه اللغة و ما طبیعتها؟! و ما هی القواعد و الترابطات السائدة فی الموضوعات الدینیة؟ فاللّه قد کلّم الناس؛ فأنزل التوراة علی موسی علیهالسلام وأنزل الانجیل علی عیسی علیهالسلام ، و أنزل القرآن علی نبیّنا صلیاللهعلیهوآله . و نصوص هذه الکتب المقدّسة، و بخاصّة القرآن الکریم، موجودة بین أیدینا. فبأیة لغة کلّم اللّه الناس؟! و کیف یمکن فهم کلام اللّه؟! و هذا کلّه من جهة، و من جهة أخری نحن نتحدث حول اللّه و نَصِفه بالعلم و القدرة و ما شابه ذلک، و ندعوه أن یشبع جوعنا، و یرزقنا داراً و زوجةً صالحة و غیر ذلک. فهل ما نقوله و نسمعه حول اللّه أو حول جمیع شؤون الدین کالانبیاء، و المعجزات، و الملائکة، و عالم الاخرة، هل یمکن إدراکه؟ و هل یمکن إثباته؟!

اللغة ظاهرة عجيبة و جديرة بالتأمّل و الاهتمام. فالانسان يستطيع أن ينقل ما يدور فى ذهنه إلى الآخرين بواسطة أصوات تنشأ عن حركة اللسان و ارتطام النفس الخارج من البلعوم بالاوتار الصوتية. فهو يفتح فمه و يستنشق الهواء ثم يلقيه إلى الخارج: آه! تعنى أننى غير مرتاح! فالقرآنُ وصف الكلامَ و البيانَ بأنّه من آيات الخالق.

«**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**». الرحمن، ۴-۱.

اللغة، حصيلة لعملية تعاقدية، و لكنّها عمليّة تعاقدية متداخلة و معقّدة. إذ نلاحظ أنّ هناک كلمة واحدة تُعطى معانىَ و مفاهيمَ شتّى فى حالات و ظروف مختلفة. نذكر من ذلک مثلاً فقولنا: هذه فاكهة لذيذة، رأيتُ فى المنام حلماً لذيذاً، الحياة معک لذيذة. يلاحظ أنّ كلمة «لذيذ» فى كلّ هذه الجُمل تأتى بمعنى الطيّب والجميل والبهيج ولكنَّ لذة الفاكهة تختلف عن لذّة المنام أو لذة الحياة. و رغم اشتراک هذه الكلمات بالمعنى غير أن لكلّ واحدة خصوصيّتها.

الكلمة الواحدة يمكن أن تكون ذات معنى مجازيٍ أو قد تكون كناية، كقولنا: إنَّ يَدَ العدو خرجت من كُمِّکَ، و سعيد له يدٌ فى هذا المشروع، إمسَحْ بيدک على رأس ولدک، و تظافرت أيديهم على بعضها! و فى ضوء كلّ ما نعرفه عن لغة الانسان يجب أن نقول إنّ اللّه قد كلّم الناس بلغاتهم أيضاً.

«**وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**». ابراهيم، ۴.

إذا نظرنا فى التوراة نجدها تحمل خصائص و سجايا بنىإسرائيل، و تصطبغ بما كان شائعاً فى ذلک الزمان من عادات و تقاليد و ظروف ذهنية و بيئية. أما القرآن فقد نفخ تلک الروح نفسها فى جسمٍ عربى. و من الواضح أنّ القائل واحد؛ و لكنّه حكيمٌ و قادر على أن يتحدّث مع طلبة مرحلة الدكتوراه بلغة تختلف عن اللغة التى يتحدّث بها مع فتيان فى المرحلة الاعدادية. بل حتى فى كتاب سماوى واحد كالقرآن نلاحظ أنه قد خاطب الناس بصيغ و أنماط شتّى؛ فنراه فى موضعٍ يسرد قصّة، و فى موضع آخر يحكى ملحمة، و احياناً يقدّم نُصحاً و موعظة، و فى موضع آخر يصدر حكماً، و غير ذلک.

لا شکّ فى أنّ اللغة محدودة و متناهية لانّها من إنتاج الانسان. هذا من ناحية، و من ناحية أخرى يُعتبر كلام اللّه حصيلة لحكمته و علمه، و هذا يعنى أنّه غير متناهٍ و لا محدود. و هذه معجزة كبرى أظهرها

اللّه للناس حين ألقى كلامه باللغة العربية التى يتحدّث و يكتب و ينشد بها ملايين الناس، و لكن كلامه يحمل جانبين؛ جانباً إلهياً يتعدى حدود الزمان و المكان، وجانباً بشرياً ضئيلاً و محدوداً. و كُلّما تطوّر الانسان و اتّسع عقله و ارتقى فكره غدا أكثر مقدرة على فهم كلام اللّه، والعبور من ظواهره السطّحية إلى الاعماق، و اجتياز الحجب الاولى المُسْدَلَةِ دونه.

«**إنَّ للقرآن بَطناً وللبطنِ بطناً و لهُ ظهرٌ وللظهر ظهرٌ**». بحار الانوار، ج۸۹، ص۹۵.

و لكن لابدّ أن نأخذ بنظر الاعتبار أيضاً أن اللغة شيء بشرى و يفرض قيوده على الوحى. فالقرآن نزل باللغة العربية و فى الجزيرة العربية و فى القرن السابع للميلاد. و كانت الخيل وسيلة مناسبة و ضرورية للقتال و الحروب يومذاك. و استناداً إلى ذلك يدعو القرآن إلى:

«**وَ أَعِدُّواْ لَهُم ما اسْتَطَعْتُم من قُوَّةٍ وَ مِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّه وَعَدُوَّكُمْ**». الانفال، ۶۰.

و لو أن القرآن كان ينزل اليوم، هل كان سيدعو المؤمنين إلى إعداد رباط الخيل للدفاع ومواجهة أعداء اللّه؟!

و عندما كان القرآن يريد إظهار آية من آيات اللّه فى ذلك الزمان و المكان، يذكر الجمل و السفينة و النجوم و التمور و الاعناب، و لكنّه لو كان قد نزل القرآن فى بيئةٍ أخرى لكان من الطبيعى أن يذكر أنواع الفواكه والمزروعات الشائعة فى تلك البيئة. و حين يتحدث القرآن عن نساء الجنّة يصفهنّ بالحور العين (الدخان، ۵۴) أى ذوات الاعين السوداء، فى حين أن المؤمن إذا كان من بلاد أوربا قد تستهويه العيون الزرقاء أكثر، والمؤمن الايرانى قد تستهويه العيون الخضراء!

و لكن هذا لا يخلق أية مشكلة فى فهم القرآن، و حتى غير العربى يفهم رسالة القرآن. فحين يقول القرآن الكريم: «**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت**». (الغاشية، ۱۷)؛ يمكن أن نضع بدل الابل فراشة! لاحظوا الآية التالية:

«**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لاَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فى سَمِّ الْخِيَاطِ**». الاعراف، ۴۰.

هذا مثلٌ عربی و معناه أنّه من غیر الممکن دخول الجمل فی ثقب الابرة[1] أی من غیر الممکن أن یدخل الکافرون الجنّة. و قد یبدو هذا المثل غیر مألوف بالنسبة إلی الذین لایتکلمون العربیة و لکنّه علی أیة حال یفهمون هذا المعنی وفقاً للمفاهیم و الافکار السائدة بینهم؛ کأن یقول إنّ الکافر لا یدخل الجنّة إلاّ إذا انطبقت السماء علی الارض.

و أمثال هذه التعابیر موجودة فی الاحادیث، کقول النبیّ: «**إنَّ من أغبط أولیائی عندی رجلٌ خفیفُ الحاذِّ ذو حظٍّ من صلاة**». بحار الانوار، ج۸۱، ص۲۶۸.

وردتْ فی هذا الحدیث عبارة «خفیف الحاذّ»، و الحاذ هو لحم ظاهر الفخذ. و خفیف الحاذ بمعنی النحیف. و قد استعمل النبیّ هذه العبارة کنایةً عن قلّة العیال. و لعلَّ مثل هذا التعبیر غیرشائع الآن. إذاً مهما کانت اللغة التی یکلّم اللّه و رسله بها الناس - إذا أُزیحت عنها حجب الزمان والمکان والقیود اللغویة الاخری بقلیل من النظر والتأمل - تنتعش الرسالة الالهیّة الواضحة الجلیّة التی صُهرت فی ذلک القالب الضیّق و فی تلک الصیاغة. فلعلَّ هذا التعبیر لا یخلو من نقصٍ، ولکن مثلما أن أشعار امرؤالقیس والنابغة الذبیانی یمکن أن تُفهم فیما إذا کان لدی القارئ قلیلٌ من المعلومات، رغم أنها نُظمت قبل قرون عدیدة، کذلک یمکن فهم القرآن.

«کِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَیْکَ مُبَارَکٌ لِّیَدَّبَّرُوا آیَاتِهِ وَلِیَتَذَکَّرَ أُوْلُوا الاْءَلْبَابِ». ص، ۲۹.

القراءات و أنماط الفهم

قُلنا إن الوحی نور، و لجذوره امتدادات فی حکمة اللّه و علمه، و هو شیء مطلق، ولکن اللغة محدودة و ذات مدیات متناهیة، و هی بطبیعة الحال تفرض قیودها و حدودها علی الوحی، من غیر انْ یغلق السبل علی آفاق الوحی و مدیاته. فالوحی واسعٌ، عمیقٌ خالد.

---

[1]- یعتقد بعض الباحثین أن کلمة "الجمل" هنا لا تعنی البعیر و إنّما تعنی الحبل الضخم. و علی هذا یکون معنی المثل هو أن هذا الامر لایکون إلا إذا دخل الحبل فی ثقب الابرة!

هناک قیود تفرضها اللغة ابتداءً علی الوحی، و هناک أیضاً قیود أخری تتجلی عند تلقّی القرّاء و المؤمنین و عند فهمهم للوحی و هذه القیود تفرضها طبیعة أفهامهم و إدراکهم. فالقرآن بل جمیع النصوص الدینیة وردتْ فی قوالب الالفاظ. و الالفاظ کبقیة المنتجات البشریّة یتراکم علیها الغبار و یعتریها القِدَم. و بتعاقب الاجیال تتبدل اللغات و الالفاظ و تتداخل فیما بینها؛ و تتغیر الافکار و تتنوع الافهام. نأتی فی ما یلی بمثال صریح علی ما نقول، و هو أن النبیّ صلی‌الله‌علیه‌وآله قال فی علائم آخر الزمان: «**إنّ النساء فیه کاسیاتٌ عاریات**». کنز العمال، ج۱۶، ص ۴۰۱.

و بقی القدماء متحیّرون فی فهم معنی هذا الکلام إلی أن ظهرت الثیاب الشفاعة التی تُری منها الابدان.

إنَّ مرَّ الزمان تفتح أمام الانسان آفاقاً جدیدة تتبدل علی أثرها الافهام. فالنصوص الدینیة ثابتة فی قوالب من الالفاظ و لکن هذه الالفاظ یمکن أن تکون ذات معانٍ متفاوتة؛ فکل جیل یقرأها و یفهمها علی نحو مغایر لفهم الجیل السابق.

و السؤال الذی یتبادر إلی الاذهان هنا هو هل أنَّ أحد هذه الافهام و القراءات صحیح و الاخری کلّها باطلة؟! أم کلّ الافهام و القراءات صحیحة؟! وبأیّ میزانٍ و معیار تُعرف القراءة الصحیحة من القراءة المغلوطة والباطلة؟!

لابدّ من الانتباه ابتداءً إلی أنّ الفهم و الادراک الصحیح لا ینحصر بواحدٍ فقط، و إنّما یمکن استخلاصه من جملة إفهام مختلفة مما یکون صحیحاً ومقبولاً. و کما سبق أنّا بیّنّا أنَّ هذه الظاهرة تُعد من عجائب اللغة.

لو نظرنا إلی ما ورد بشأن الآیة الشریفة «**بسم اللّه الرحمن الرحیم**» فی کتب التفاسیر حیث وضعت کل واحدة من مفرداتها ابتداءً من حرف الباء، ثم کلمة اسم، ثم لفظ الجلالة، ثم الرحمن و الرحیم، علی بساط البحث و الشرح و التفسیر، انطلاقاً من زوایا و رؤی؛ احدهم فسرّها برؤیة عرفانیّة، و الآخر من نظرة فلسفیة و ثالث فی ضوء الروایات التفسیریة الکثیرة و المتنوّعة.

و لا یمکن القول طبعاً إنَّ أیَّ شخص کان یمکنه – وإن کانت لدیه بعض المعلومات – أن یطرح فهماً للنصوص الدینیة، و یکون فهمه صحیحاً. فمثلما أنّ فهم أشعار المتنبی أو أبیتمّام الطائی یتطلّب أن

يكون الشخص متضلّعاً فى اللغة العربية، كذلك تفسير آيات القرآن الكريم وخُطب نهج البلاغة و النصوص الدينية الاخرى يتطلّب تخصصاً وتضلّعاً فى اللغة العربية و العلوم الدينيّة. و المتخصصون قد تكون لديهم عدّة أفهام و قراءات لموضوع واحد؛ فبأىّ ميزان و معيار يميّز بين خطئها و صوابها؟!

للاجابة عن هذا السؤال، هناک ثلاث ملاحظات يجب أن توضع نصب العين: الاولى هى هل أنَّ ذلک المتخصص استقى هذا الفهم و هذه القراءة من النصّ الدينى نفسه، أم فرضها عليه تعسّفاً؟ قد يكون المتخصص كتلميذ يجلس بين يدى القرآن و يمعن النظر فيه و يصغى إليه و يتدبّر معناه، ثم يخرج بفهم مّا للآية، هنا يكون الاساس هو القرآن و يكون الوحى هو الذى يكلّم ذلک الشخص، فيأتى فهمه مستقىً من القرآن. و لكن قد يأتى شخص إلى آيةٍ أو حديث و هو يحمل فى ذهنه مجموعة من الافكار و المتبنّيات الخارجية لكى يلبسها ثوب الاسلام و القرآن فيجد آية و يحاول فرض رؤيته عليها بأىّ نحو كان. فهنا لا يكون الكلام للقرآن او الحديث، بل هناک فكرة معيّنة تريد توظيف النصّ الدينى لتتلبّس به.

أما الاساس الثانى فهو أن تكون القراءة أو الفهم متناسباً مع ظاهر اللفظ و مع المفهوم العرفى للكلام. فمن المعروف أن الكلمة الواحدة أو الجملة قد تكون لها دلالات ومعانٍ شتّى، و لكن لهذه المعانى حدود، و كلّ كلمة لها دائرة معيّنة من المعانى، و من غير المحبّذ و لا من المقبول أن يأتى الفهم خارج هذه الدائرة. نورد فى ما يلى مثالاً لهذا النمط من الفهم.

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ». البقرة، ١٢۴.

معنى الآية واضح، و هو أن اللّه لا يجعل الظالم إماماً وقائداً. و لكن بما أن هذا المعنى لا يتماشى مع المبادئ الاعتقاديّة والسياسية لاهل الجماعة، لانّهم يوجبون إطاعة أىّ خليفة و حاكم حتى و إن كان ظالماً او فاسقاً، فقد فسّروا بعضهم كلمة «الظالم» فى هذه الآية بالمشرک لتكون النتيجة هى أنّ المشرک لا يمكن أن يكون حاكماً و أن المسلم يمكن ان يكون إماماً و قائداً و إن كان ظالماً. و من الواضح طبعاً

أنّ هذا الفهم يتعارض مع ظاهر الكلمة من جهة، و يمثّل من جهة أخرى نوعاً من التفسير بالرأى و فرضاً تعسفيّاً على الآية بما لا تتحمله من معنى.

أما الملاحظة الثالثة التى تحدد الفهم أو القراءة الصحيحة للنصوص الدينية فهى أن تؤخذ ظروف النص و القرائن المحيطة به بنظر الاعتبار، فالالفاظ و الجمل تعطى بحدّ ذاتها دلالات و مفاهيم، و لكنّها فى ظروف و أجواء خاصّة تعطى معنى آخر. نذكر من ذلک على سبيل المثال انّى سمعت من عدّة أفراد، أنّ ديانة المسيح قد تركت الشؤون الدنيوية، و تخلّت عن شؤون السياسة و الحكم و انهمكت فى قضايا العبادة و الملكوت فقط، لانّه ورد فى الانجيل أن النبى عيسى عليه‌السلام قال: «ادفعوا إذاً إلى القيصر ما للقيصر، و إلى اللّه ما للّه». انجيل متّى، الفصل ٢٢.

و على هذا الاساس تُترک شؤون الحكم للقيصر، و يكون المسجد و المحراب سهم اللّه. لكنّه عند الرجوع إلى الانجيل تلاحظون أنّ هذه الكلمة لها خلفيّة إذا أخذت بنظر الاعتبار سيتضح أن فهم هذا النصّ لم يكن صحيحاً. و خلفيّة هذا الكلام هى أنَّ اليهود أمام الناس و بحضور عمّال الحكومة الرومانية، تجادلوا مع المسيح عليه‌السلام بانّه هل ينبغى أن ندفع الضرائب إلى الروم أم لا؟! و من الواضح أنّ هذا السؤال لم يأت عن رغبة فى معرفة التكليف و فهم الواقع، بل لمجرّد إثارة الفتنة بين السيد المسيح و الرومانيين. فطلب منهم النبىّ عيسى أن يروه مسكوكة ذهبية، ثم سألهم: صورة مَن على هذه المسكوكة؟! فقالوا: صورة القيصر. فقال لهم : ادفعوا اذاً إلى القيصر ما للقيصر و الى اللّه ما للّه.

ما يلاحظ هنا هو أوّلاً: أن المسيح عليه‌السلام قال هذا الكلام فى ظروف خاصة، أو ما نصطلح نحن عليه بالتقية و حفظ النفس. ثانياً: لم يكن مراده من "ما للقيصر" شؤون الحكم و القيادة، و إنّما الدراهم و الدنانير التى كانت صورة و ختم القيصر مضروبان عليها. و على أية حال يتبيّن فى ضوء هذه الخلفيّة و او ما نسمّيه شأن النزول أن الفهم المذكور لهذا الكلام ليس صحيحاً.

القرآن كلام اللّه

ما سبق ذكره حول تعدد القراءات المقبولة للدين ينطبق على القرآن الكريم أيضاً. قلنا: إنّ الجملة الواحدة قد تكون لها عدّة قراءات تقع فى عرض بعضها الاخر. و كمثال على ذلك نذكر الواقعة التالية:

فى زمان الخليفة العباسى المعتصم جاءوا بسارقٍ. فأمر بتطبيق حكم القرآن عليه و هو قطع اليد. و لكن من أين يجب أن تُقطع يد السارق؟! أمِنَ المِرفق؟ أم من الكتف؟ أم مِنَ الرسغ؟ وبقى الفقهاء حائرين لا يعلمون كيف اجروا هذا الحكم. فَدُعى الامام محمد الجواد عليه‌السلام إلى ذلك، و سألوه عن كيفية إجراء الحكم على السارق. فقال لهم الامام: تُقطع أصابعه الاربعة فقط! و عندما طالبوه بالدليل

على ذلك قرأ الآية الشريفة: «وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ للّه فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّه أحداً». الجنّ، ١٨.

يبدو فى الوهلة الاولى أنّ كلمة «المساجد» تعنى هذه الاماكن المخصصة للعبادة والصلاة أى هذه المساجد الموجودة فى الحارات و الاسواق، و لكن الامام الجواد أخذ هذه الكلمة بمعنىً آخر و هو ما يوضع على الارض عند السجود للّه. و على هذا ينبغى أن لا تُقطع هذه الاعضاء، و كفُّ اليد واحدة من أعضاء السجود أيضاً، إذاً يجب أن لا تُقطع. وسائل الشيعة، ج٢٨، ص٢٥٣.

من الواضح أن الفهم الاوّل للآية الذى يُراد به مساجد العبادة صحيح، و كذلك الفهم الثانى الذى بيّنه لنا الامام.

لكن ينبغى بطبيعة الحال إبداء مزيد من الدقّة فى تطبيق الشروط الثلاثة الانف ذكرها عندما يتعلّق الامر بفهم القرآن أو بتعدد القراءات فيه. إذ لا ينبغى أن تكون العملية هنا بمثابة تفسير بالرأى و فرض معنىً على الآية، كما ينبغى أيضاً أن يكون متناسباً مع ظاهر الالفاظ، و أن يُنظر إلى القرائن والخلفيات. و إذا لم يُراعَ أحدٌ هذه الشروط لن يكون الفهم صحيحاً، بل قد يكون مُضِلّاً أو مبتذلاً و مثيراً للسُخرية.

و فضلاً عن هذه الملاحظات الثلاث المهمة السالفة، هناك أساليب بالغة التأثير فى فهم القرآن بالشكل الصحيح.

أولاً: انّه لا يسير القرآن على سياق واحد فى بيانه و أسلوبه. فتارة نصيحة و ارشاد، وتارة أخرى ملاحم و حماسٍ، و قد يتبع تارة ثالثة الاسلوب القصصى، و يلجأ رابعة إلى أسلوب الذمّ والتقريع. و اخرى إلى

أسلوب الثناء والتكريم و هذا يعنى أننا يجب أن لا نتوقع من كلّ آيات القرآن أن تقدّم لنا معطيات واحدة و متساوية. نذكر مثلاً أنّ سورة التكوير أو الآيات الاولى من سورة الحجّ تمثّل جرس الانذار و التحذير من يوم القيامة. و فى سورة الحاقة من الآية الخامسة والعشرين حتى السابعة و الثلاثين تقريعٌ متواصل على المجرمين و أصحاب النار. و سورة يوسف عبارة عن قصّةٍ رائعة عن الايمان و العفّة. و قصّة النبىّ إبراهيم زاخرة بمعانى التوحيد والاخلاص فى العبادة. و سورة النساء مكرّسة أكثرها لبيان أحكام الزواج و الطلاق و غيرهما. و سورة مريم تسير على وزن و قافية جذابة و متناغمة مبيّنة قصّة ولادة المسيح. و سورة الرحمن تشبه بإيقاعها المتكرّر أنشودة ذات أنغام. فلكلّ واحدة من سور القرآن مفهومٌ، و رسالة و حتى غرض خاصّ. فسورتا الناس و الفلق تبدآن كلتاهما بعبارة «**قُل أعوذُ بِرَبِّ...**». و هاتان السورتان «استعاذة» و للاستعاذة معناها الخاصّ فى الثقافة الاسلاميّة. و تمثل هاتان السورتان دعاءاً بالحفظ و تُقرآن لهذا الغرض. و الاستعمال الاساسى لسورة المسد «**تَبَّتْ يَدا أَبى لَهَب...**» هو هجاء المنكرين و ذمّ المعاندين. فهناک ضرورة قصوى تستدعى الاهتمام بأغراض السُوَر و الآيات.

ثانياً: هناک قضية النسخ؛ فبعض آيات القرآن الكريم فيها حكم مؤقت و محدود بزمان. و تُسمى هذه الآيات بالآيات المنسوخة، وأما الآيات اللاحقة التى تتضمن حُكماً جديداً فتسمّى بالآيات الناسخة. نسوق فى ما يلى مثالاً صريحاً لهذا النوع من الآيات:

كان المسلمون يتجمّعون حول الرسول لمناسبة أو غير مناسبة و يكثرون من مناجاته من غير ضرورة، و قد نزلت آية كان الغاية منها معرفة من يُقدّر قيمة مناجاة الرسول، إذ فرضت هذه الآية على كلّ من يريد مناجاة الرسول أنْ يُقدّم صدقةً.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِکَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ أَطْهَرُ**». المجادلة، ١٢.

و من بعد نزول هذه الآية لم يأت أحدٌ لمناجاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، إذ لم يكن هناک من يبذل مالاً لكى يناجى الرسول و كان أمير المؤمنين عليه‌السلام هو الشخص الوحيد الذى عمل بهذه الآية و قدّم صدقةً لكى يناجى الرسول. و بعد مدّة نزلت آية أخرى ألغت حكم السابقة:

«**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللّه عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللّه وَ رَسُولَهُ وَ اللّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**». المجادلة، ١٣.

و من الواضح أن وجوب دفع صدقة لمناجاة النبىّ صلىاللهعليهوآله لم يكن حكماً دائماً، و إنّما كان عبارة عن تعميم مؤقت لكى لا يضايق المسلمون النبىّ من غير داعٍ، و لكى يحترموا و يقدّروا وقته و يُراعوا راحتَه.

لابدّ من الاشارة إلى أن عدد الآيات المنسوخة معدودة و محدودة، و من جملة الاحكام المنسوخة، الصلاة نحو بيت المقدس، إذ جُعلت الكعبة قبلة استناداً إلى الآية المائة و الرابعة و الاربعين من سورة البقرة، و الحكم الثانى هو أن مقاربة النساء كانت محرّمة على المسلمين فى شهر رمضان إلى أن نزلت الآية المائة والسابعة و الثمانين من سورة البقرة التى ألغت ذلک الحكم و أباحت مقاربتهنّ فى ليالى شهر رمضان. و ما ورد فى الآية الخامسة عشرة من سورة النساء و هو انّ الزانية تُحبس إلى الابد، و هذا الحكم نسختْه الآية الثانية من سورة النور و استبدلت السجن المؤبّد بالجلد.

و بالاضافة إلى بحث النسخ، هناک ملاحظة أخرى و هى الآيات المحكمة و الآيات المتشابهة؛ فبعض آيات القرآن ذات معنىً واضح و صريح، مثل قوله تعالى: «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الاَنصَابُ وَ الاَزْلاَمُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**». المائدة، ٩٠.

و لكن هناک آيات لا تتسم بهذه الصراحة و الوضوح. لاحظوا مثلاً الآية التالية:

«**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْکَ مِن رَّبِّکَ وَإِن لمْتَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللّه يَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ**». المائدة، ٦٧.

و نحن لو تُركنا و هذه الآية لن نَعلم ما هى الرسالة أو البلاغ الذى أُنزل إلى النبىّ؟! وما هو الحكم الذى إنَّ لم يُبَلّغه النبىّ فكأنّه لميبلّغ كلّ رسالته؟! و ما هو الحكم الذى كان النبىّ يخشى أن يكذّبه الناس و يتّهموه بسببه؟ و لكن عند الرجوع إلى الاحاديث التفسيرية الصحيحة و الصريحة يتضح أنَّ هذه الآية

نزلتْ فى السنة الاخيرة من حياة النبىّ عند عودته من حجة الوداع، و البلاغ الذى تتحدث عنه الآية هو استخلاف و ولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام بعد النبىّ صلى‌الله‌عليه‌وآله .[1]

الآيات التى لا يتضح معناها ابتداءً أو التى تبدو غير متطابقة مع أصول الدين ومرتكزاته، تُسمّى بالآيات المتشابهة.

«هُوَ الَّذِیَ أَنزَلَ عَلَيْکَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّه». آل‌عمران، ۷.

فالآيات المتشابهة ينبغى فهمها فى ضوء الآيات المحكمة و الصريحة والروايات الصحيحة و الواضحة و فى ضوء العقل و معطياته. كما يُحتمل أيضاً أن تبقى هناک آيات نعجز عن تفسيرها، نظير الآية التالية.

«لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَ عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ و آمَنُواْ وَ عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ و آمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ و أَحْسَنُواْ وَ اللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». المائدة، ۹۳.

فمن غير الواضح ما هى الغاية المقصودة من تكرار صفة الايمان والتقوى و الاحسان فى هذه الآية. و استناداً إلى الآية السابعة من سورة آل عمران فإننا إذا عجزنا عن تفسير آيةٍ ينبغى أن لا نفهمها وفقاً لما يُمليه الظنّ أو الهوى بل ينبغى ترک علمها إلى أهل القرآن الذين هم أهل بيت النبىّ صلى‌الله‌عليه‌وآله .

اثبات المعتقدات الدينية

كيف يمكن إثبات الموضوعات الدينيّة؟! و ما المقياس المتّبع لمعرفة الصواب أو الخطأ فى المعتقدات الدينية؟!

فلو قال قائل: إن هذا الطعام مسموم، يُمكن إثبات صدق أو كذب قوله من خلال إجراء اختبار على الطعام. أو لو قال أحد إن فلاناً مات بالامس، يمكن التأكّد من صحّة الخبر أو كذبه باتصال هاتفى واحد. و لكن كيف يمكن إثبات موضوعات دينيّة مثل وجود اللّه، و القيامة، و الملائكة، و اللّه لايفعل إلّا ما فيه الخير و الصلاح، و...؟!

---

[1] راجع مسند احمد، ج۱، ص۱۱۹ و ج۴، ص۳۷۰ و كنزالعمال، ج۶، ص ۳۹۰، ۳۹۷ و ۴۰۳.

ابتداءاً لابدّ من الانتباه إلى أنّ طرائق الاثبات تختلف فی علم عن علم إلی آخر. فقد یمکن إثبات نظریة فی علم الاجتماع من خلال المقابلات، و الاحصائیات، و استمارات الاستفسار. و أمّا علم النفس فیمکن اثبات نظریاته عن طریق المشاهدة و مراقبة السلوک، و ملاحظة الافعال و ردود الافعال. و مختبرات الفیزیاء تختلف عن مختبرات الکیمیاء، و القضیة الهندسیة یمکن إثباتها بطریقة تختلف عن الطریقة التی تثبت بواسطتها قضیة ریاضیة، و للفلسفة منهج یختلف عن علم الاحیاء. و لا یتوقّع أحد من طبیب أن یبنی معلوماته علی أساس المعطیات الریاضیّة أو العبارات الفلسفیّة، و لایمکن لعالم الاجتماع أن یعرض علمه فی مختبر بواسطة الحوامض و المرکّبات الکیمیاویة. و لهذا السبب لا ینبغی النظر إلی الدین بنظارات التجربة والمشاهدة العینیة!

إنَّ ما یجعل المواضیع الدینیة ذات معنیً و قابلة للاثبات شیئان: الایمان و العقل. فالایمان یمثّل نوعاً من الاطمئنان و الثقة. نذکر علی سبیل المثال، أن الصدیق الذی أنقذک من الخطر مرّات و مرّات و مهّد لک موجبات الرقی و تحمّل الکثیر من المشقّة من أجل تمشیة أمورک، لابدّ و أنّک تثق به و تصغی لکلامه و تتقبل رأیه، فقوله حجّة لدیک. و فی میدان الدین هناک مرحلة مهمة و هی الثقة بأولیاء الدین و الایمان الراسخ باللّه. و المرحلة المهمة الاخری هی العقل. فنحن جعلنا العقل معیناً لنا لاثبات وجود اللّه، و أثبتنا ذلک علی أساس عدد من البراهین. و القرآن الکریم یؤکّد أیضاً علی هاتین الرکیزتین، و هما العقل و الایمان. ینقل القرآن الکریم عن لسان أهل النار أنّهم: «**قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فی أَصْحَابِ السَّعِيرِ**». الملک، ١٠.

الملاحظة الاخری هی أنّ المواضیع و القضایا الدینیة قد تکون فیها أحیاناً جملة یفید معناها الظاهری شیئاً آخر غیر المعنی الجوهری. و هذا ما یستدعی طبعاً اجتیاز القشرة و الوصول إلی جوهر الموضوع، و فهمه و السعی لاثباته.

لو لاحظنا الجملة التالیة مثلاً: «انّ ربّی علی صراطٍ مستقیم» یتبادر إلی الذهن فی الوهلة الاولی و کأنَّ للّه مکاناً و صراطاً و مذهباً. و لکن هذه الجملة فی حقیقة الحال تشبیهٌ؛ و هو تشبیه المعقول بالمحسوس. فنحن عادة نصوغ المفاهیم العقلیة فی قوالب حسیّة من أجل إدراکها بشکل أسرع و

أسهل؛ فنقول مثلاً انّ فلاناً بحرٌ من العِلم؛ لاننا رأينا البحر و نستوعب مدى سعته و بُعد مداه، فنُشبّه العلم به لكى نتصوّر سعته بشكل أفضل و أسرع. و كذلک الحال فى جملة «انّ ربّى على صراطٍ مستقيم» فإن المراد ليس أن اللّه جسم و له مكان و صراط، و إنّما المراد أن اللّه يخلق و يأمر ويُحاسب بالحقّ و كلّ أفعاله حقّ. و هذا القانون يصوغه علم الكلام فى الصيغة التالية: «خُذ الغايات و أترک المبادى» أى عليک أن تأخذ بالنتائج و المعطيات و لاتنظر إلى التمهيدات و المقدّمات، و عليک أن تعبر ذلک التشبيه و تتجاوزه و تصل إلى لبّ الكلام و جوهره.

و فى هذه المناسبة نودّ الاشارة إلى أن بعض المتحجّرين سواء من القدماء أم ممن يعيشون فى عصرنا، يظنون أن القرآن خالٍ من المجاز و الكناية. فى حين أن المجاز والكناية فى الكلام لا يُعدّ عيباً و لا نقصاً و إنّما جماليّة وكمالاً يُضفى على الكلام، هذا أوّلاً، و أمّا ثانياً فإنّ هذه الفئة تبقى عاجزة عادة عن فهم و تفسير الكثير من الآيات. نذكر من ذلک الآية التالية للمثال: «**وَ مَن كَانَ فى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فى الاخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**». الاسراء، ٧٢.

و نحن إذا جمدنا على المعنى الابتدائى الذى تفيده هذه الآية، فسيكون معناها أن كلّ فاقدى البصر فى هذه الدنيا يُحشرون فى الاخرة عمياً أيضاً، و هذا يعنى أنَّ كلّ المؤمنين من الرجال و النساء المحرومين من نعمة البصر، ضالّون! و لكن معنى «الاعمى» فى هذه الآية ليس هو المعنى الذى يتبادر إلى الذهن فى الوهلة الاولى. بل هو صيغة مجازيّة للتعبير عن أعمى القلب و فاقد البصيرة. فمعنى هذه الآية هو أنَّ من يتغاضى عن الحقائق و يتجاهلها فى هذه الدنيا يُحشر فى الاخرة أعمى.

استنتاجٌ

نحن نری بعینین، و نسمع بأُذنین، و نَلمس بیدین. و هذه الاعضاء إضافة إلی حاسَّتی التذوّق و الشمّ، هی التی تعرّفنا بالعالم. ثم انّ هناک ما یعیننا علی ذلک أیضاً و هو العواطف والمشاعر من جهة، و العقل من جهة أخری. و الاهمّ من کلّ ذلک، الفطرة أو النوازع الذاتیة.

نحن نصف ربّنا للاخرین علی أساس الفطرة و العقل؛ و فی ضوء ما نراه من خلق، و نظم، و تدبیر، و فطرة. فنحن أنفسنا ربّما آمنا باللّه بمشاعرنا الذاتیة أو نتیجة لتجارب شخصیة. و لکنّ هذین العاملین مما لا یمکن نقلها إلی الغیر.

إلهُنا أسمی و أعظم من أن تحدّه جدران الزمان و المکان و الشکل و الصورة. و هو أعظم و أجل من مخلوقاته. و هو لیس بجسمٍ و لا یُری، و لیس له شریک. و مع ذلک فهو قریبٌ إلینا، و علاقته بنا شبیهة بعلاقة الامّ برضیعها!

الفصل الثانى

«العَدْل»

استشرافٌ

ما هو الجمال؟ و ما العدل؟!

هل الجمال و القبح، و الخير و الشرّ، حقائق ثابتة، أم أمور نسبيّة و متغيّرة؟!

و هل العقل البشرى قادرٌ على معرفة هذين الامرين؟!

الانسان مجبورٌ أم مخيَّر؟ و هل هو حُرٌّ فى سلوكه أم مقيَّد؟!

و إن كان اللّه خيرٌ و حُسْنٌ و رحمة، فمن أين جاء إذاً كلّ الشرّ و الاعوجاج و الظلمة؟!

ما هو الجمال؟! و ما العدل؟!

يا لها من زهرةٍ جميلة! ما أجمل الجوّ اليوم! سعيد إنسان صالح! الظلم لا يدوم! ما هو الجمالُ و القبحُ، و الخيرُ و الشرّ، و الظلم والعدل؟! وكيف يمكن معرفتها؟!

لا شكّ فى أنَّ أحد الفوارق بين الانسان والحيوان هو هذه المقدرة على التمييز بين الحُسْن و القُبْح. فالانسان يعرف التناسب و الانسجام ويُسمّيه جمالاً، و حُسناً، و خيراً وعدلاً. كما أنّه يعتبر الفوضى و عدم الانسجام و التناسق قبحاً و ظلماً. و هذه القوّة مودّعة فى فطرة الانسان و هى أنّ الظلم قبيح، و العدل جميلٌ و سامٍ. و هذه الامور يدركها كلّ إنسان فى العالم.

تُسمّى هذه النظرية فى الثقافة الاسلامية «الحُسن و القبح العقليّان». و هى تعنى أن العقل البشرى يدرک الحسن و القبح. فالشيعة و فرقة من أهل الجماعة اسمها المعتزلة يعتبرون الحسنَ والقبحَ أمرين عقليين. و فى المقابل يرى أكثر أهل الجماعة أن عقل الانسان غير قادر على إدراک الخير والشرّ و الحُسن و القُبح. فهو لايدرک ما هو العدل و ما هو الظُلم و يوكّل تشخيص الحُسن و القبح إلى الدين. الحَسَن عند هولاء هو كلّ ما يستحسنه الدين، و القبيح هو كلّ ما يستقبحه الدين. و على هذا الاساس فمن الممكن انْ يُدخل اللّه المؤمنين يوم القيامة فى النار، ويُدخل المشركين الجنّةَ و لا يحقّ لاحدٍ الاعتراض على هذا الحُكم، لاننا غير قادرين على التمييز بين الخير والشرّ. و قد يجعل اللّه جاهلاً أُميّاً قائداً وإماماً لعالِمٍ متبحِّرٍ، أو يجعل جباناً رعديدً قائداً على شجاع مغوارٍ، و لا يجوز لأحد الاعتراض على ذلک؛ لانّ كلّ ما تقول به الشريعة حَسَنٌ و خير.

يتجلّى اضطراب هذه النظرية أكثر فأكثر حين يُوسَّع دائرة الشريعة بحيث لا يقتصر مداها على اللّه والانبياء فحسب، بل تشمل أيضاً الخلفاء و الفقهاء. و على هذا الاساس ينبغى الصبر على كلّ ما يحكم به الخليفة و لابد من الانصياع له؛ لاننا أساساً لا نعرف ما هو العدل لكى نفهم هل ما يفعله الخليفة عدلٌ أم ظلم! و اذا اصدر الفقهاء فى قضية واحدة عشرة احكام متخالفة فكلّ ما حكموا به صحيحٌ و مطابقٌ للحقّ. و تسمّى هذه الفكرة بالتصويب؛ بمعنى أن رأى كلّ فقيهٍ يكون مطابقاً للصواب.

و فی ضوء ذلک یُری أنّ الانسان لیس علیه إلاّ الانصیاع للشریعة – بمعناها الواسع الذی یشمل الحکومة الدینیة و رجال الدین أیضاً – لانّه لا یملک القدرة علی التشخیص، و لا یمکنه التعویل علی عقله.

ترکتْ هاتان النظریّتان تأثیراً بالغاً فی تاریخ الاسلام. أما الشیعة فلم یلتزموا الصمت إزاء الانحراف وطمس الحق بعد النبیّ صلی‌الله‌علیه‌وآله ، و لم یقرّوا خلافة الامویین الظالمة و لا حکومة العباسیین الفاسدة، و لم یقبلوا إلّا إمامة أطهارٍ معصومین. فالشیعة یذهبون إلی القول إنّ العقل رسول باطن، و لدیه القدرة علی فهم و ادراک الامور. و علی هذا الاساس لابدّ أن یُقیّم عمل المؤسسات الدینیة من خلال العقل، و لیس هذا فحسب بل حتی النصوص الدینیّة کالقرآن و الاحادیث یجب فهمها بمساعدة العقل. ألا ترون القرآن یأمر بالنظر و التفکیر و التأمل و التعقّل؟! فالقرآن قد أمَرَ الناسَ بالتفکّر سبع عشرة مرّة، و أمر بالتعقّل فی اثنین وثلاثین موضعاً، و أمر بالتدبّر أربع مرّات، و خاطب ذوی‌العقول فی ستة عشر موضعاً. فلو کان العقل البشری غیر قادر علی الادراک والتشخیص، فلماذا یؤکّد القرآن کلَّ هذا التأکید علی التأمل والتفکیر؟! وقد مرَّ علینا فی فصل التوحید انّ القرآن بَیّن أنّ سبیل الخلاص من النار انّما هو الایمان و العقل.

«**وَقَالُوا لَوْ کُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا کُنَّا فی أَصْحَابِ السَّعِیرِ**». الملک، ۱۰.

و فضلاً عن کل ذلک، فلو واکبنا القائلین بالحسن و القبح الشرعیین فی رأیهم و اعتبرنا العدالة و الخیر هما ما تقول به الشریعة، لبَدَت لنا الکثیر من آیات القرآن و کأنّها غیر ذات معنی، نلاحظ الآیة التالیة مثلاً: «**إِنَّ رَبِّی عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ**». هود، ۵۶.

و هنا نسأل: ما الصراط المستقیم؟! فان قیل: انّ الصراط المستقیم ای طریق العدالة، هو الطریق الذی یسیر علیه اللّه، یکون معنی الآیة هو «إن ربّی یسیر علی الصراط الذی علیه یسیر»! و لکن استناداً إلی قول الشیعة و المعتزلة – اللذین تُطلق علیهما تسمیة العدلیّة – یکون معنی الآیة واضحا وهو "إن ربّی علی طریقٍ قویم». و هو الطریق الذی یدرک العقل استقامته و عدله.

كذا لاحظوا الآية التالية: «**إِنَّ اللّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الاِحْسَانِ وَ إِيتَاء ذِى الْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَ الْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ**». النحل، ٩٠.

ما هو العدل و الاحسان؟! و ما هو المنكر و الفحشاء؟! استناداً إلى رؤية القشريين من اهل الحديث و الحشوية و الاشاعرة و السلفيين، انّ العدل و الاحسان هما ما يأمر به اللّه و المنكر و الفحشاء هما ما ينهى عنه اللّه فلا يبقى لهذه الآية معنى محَصَّلٌ إذ لا معنى للقول بأنَّ اللّه يأمر بما يأمر به، أو يَنهى عما ينهى عنه! فى حين أن العدليّة يعتبرون العدل و الاحسان و الفحشاء و المنكر مفاهيم عقليّة يدركها العقل و يصل اليها الفكر. إذاً، فمعنى هذه الآية هو أنّ اللّه يأمر بما يعتبره العقل عدلاً و إحساناً، وينهى عمّا يعتبره العقل قبيحاً و منكراً.

كُنا حتى الان نخوض نقاشاً حول مقدرة العقل البشرى على إدراک الجمال و القبح، و الخير و الشرّ. و لكن طائفة من الفلاسفة القدماء والجُدد يعتبرون مفاهيم الجمال و القبح، و الخير والشر، مفاهيم نسبيّة. و على هذا فإنَّ الحسن والقبح مثل الملوحة والحِدّة، تخضع للاذواق و للظروف الخارجية. فالطعام الذى يعتبر عند أهالى بلاد الهند طعاماً لذيذاً، يُعتبر عند غيرهم حاداً لا يُستساغ. و لعلّ ما يستهوى العرب قد لا يستهويه الاتراک. ففى رايهم أنّ العدل و الظلم ليس لهما قاعدة و أساس متين يمكن تعريفهما على أساسه. فكلّ شخص يرسم معالم العدل و الظلم وفقاً لمصالحه و رغباته. و هذا الرأى يعنى أن الاخلاق ليس أمراً ثابتاً، بل هى نسبية و متغيّرة. فالبعض يرى مثلاً أنّ القتل ليس قبيحاً، بل ربّما هو شىء قبيح و ربّما حسن، بل حتى انّه فى بعض الحالات ضرورى. ثمّ انّهم يذهبون إلى ما هو أبعد من ذلک و يقولون أن الاخلاق و الارشادات الاخلاقيّة و المواعظ العقليّة كلّها خاوية و لا أساس لها. و إنّما تُقال كلّ هذه من أجل أن لا يتمرّد الضعفاء و المساكين، أو لكى لا يستعمل أصحاب السلطة والحكّام قوّتهم.

أما الدليل الذى تستند إليه هذه الطائفة فهو أن حُسن العمل أو قبحه مرتبطٌ بظروفه و دوافعه؛ فضربُ الطفل إن كان لتأديبه فهو حسن، و إن كان من غير سبب فهو قبيح. و اذا كان القتل بدافع الحفاظ على أرواح عدد كبير من الناس، فهو حَسَنٌ و إلّا فهو قبيح. و الكذب من أجل حفظ النفس حسن، ولكنّه من

غير سببٍ قبيحٌ. إذاً فالحُسْن والقبح شيئان غير ثابتين. و اللدليل الثانى هو أنّ الحُسن و الخير والعدالة والجمال، و القبح و الظلم و الشرّ؛ مجرّد احكامٍ و لا يمكن تعريف هذه المفاهيم و تحديدها؟!

نقول فى دحض هذه النظرية و إثبات تهافتها: انّ الخير و الشرّ، و الحُسن و القبح مفاهيم أوليّة فى علم الاخلاق فلايمكن تعريفُها. أليست هناک فى الهندسة مفاهيم مثل الخطّ و النقطة لا يمكن تعريفها. و هكذا الحال بالنسبة إلى العدد فى الرياضيات، و الوجود فى الفلسفة. فهذه الامور من الاساسيات التى يدركها الجميع. و بما أنّها واضحة و جليّة فلذلک يتعذّر تعريفها بواسطة مفاهيم أخرى. فمفاهيم الحُسن والقُبح والخيْر والشرّ يفهمها كلّ إنسان حتى وإن تعذّر عليه تعريفها. ثمّ انّا نقرّ طبعاً بأن الفعل الواحد قد يكون حَسَناً أو قبيحاً تبعاً للظروف المختلفة، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الطعام الذى قد يكون مفيداً فى ظروف وقد يكون مُضِراّ فى أخرى.

نعم، تُقسم الافعال فى المنظومة الاخلاقية إلى ثلاثة أقسام:

الاول: المباحة التى لا تُعتبر بحد ذاتها حسنة و قبيحة، و إنّما يتحدد حُسنها أم قُبحها تبعاً للظروف، مثلما هو الحال فى حركة اليد؛ فهى إذا كانت بقصد التحيّة فهى حَسَنة، و إن كانت بقصد الشتيمة و الاستهزاء فهى قبيحة.

و القسم الثانى هو الافعال التى تُعدّ بذاتها أفعالاً قبيحة إلّا فى الحالات الاستثنائية و الخاصّة مثل الكذب الذى يُعتبر فى حدّ ذاته قبيحاً الّا فى حالات خاصّة. لأنّ القبيح على درجات، و الكذب له عشرون درجة من القبح، و قتل المظلوم البرىء له مائة درجة من القبح، وإذا أدّى عدم الكذب إلى قتل برىءٍ، فهذا العمل على مائة درجة من القُبح. و إن كان الكذب سبباً لانقاذ حياة إنسان فهو ليس قبيحاً، بل يُعتبر الكذبُ هنا حسناً لانّه كان سبباً فى نجاة برىءٍ، و نجاة البرىء احَسَن و أوجب من الصدق!

و القسم الثالث هو الافعال التى تُعتبر قبيحة على الدوام، كالظلم، والخيانة و طمس حقوق الاخرين، و ما إلى ذلک.

إذاً، فالاخلاق ليست هى التى تتبدل، وإنّما الذى يتبدّل هو الظروف التى تؤدّى إلى أن ينتقل الفِعلُ فى المنظومة الاخلاقيّة من دائرة المستقبَحات إلى دائرة المستحسَنات أو بالعكس.

إلی هنا أثبتنا انّ القُبح والحُسن له معنی و یمکن إدراکه، و أن العقل قادرٌ علی التمییز بین القبیح و الحسن، و بین الخیر و الشرّ، و بین العدل و الظُلم.

و فی ضوء هاتین المُقدّمتین نأتی فی ما یلی علی بیان الرکن الثانی من معتقداتنا و نقول: انّ اللّه تعالی عادلٌ لایفعل قبیحاً. و کلُّ ما فعله أو سیفعله جمیلٌ وفقاً لما یحکم به عقلنا. و ذلک للاسباب التالیة:

الاول: إنَّ اللّه الذی عرفناه و أثبتنا وجوده یجب أن یکون علی هذه الشاکلة؛ أی أنّه مَظهرٌ لکلّ حسنٍ و جمیلٍ و تجسیداً للکمال المطلق، و الخیر و النور.

الثانی: نسأل ما هی منطلقات الظُلم والقُبح؟! هی طبعاً الجهل و الغرور، و الضَعف و الضِعة، و الخوف و الخطأ. و هذه المنطلقات یتنزّه عنها اللّه تعالی. فهو علیمٌ و قادر و لایخطأ ولایخاف أحداً. إذاً فلماذا یَظلم مع إنَّ دوافع الظلم معدومة لدیه؟!

الثالث: إذا لم نؤمن بعدالة اللّه تعالی، یتزعزع فی أنظارنا الدین و الاخلاق. لانّه إذا لم تکن عدالته ثابتة عندنا، فإنّه من المحتمل أن یصدر منه القبیح، و هذا یعنی عدم الوثوق بأیٍّ من الانبیاء أو الکتب السماویّة؛ إذ ربّما یکون اللّه قد کذب علیهم!! وإنّه ربّما لن یفی بما قطعه فی القرآن من الوعود!! ولعلّه یعذّب الصالحین یوم القیامة بدلاً من إثابتهم! وعلی صعیدٍ آخر لن تکون للاخلاق أیّة رکیزة و قاعدة. لأنّا إذا لم نؤمن بالحق المطلق و العدل المطلق، لن یکون هناک أی جوهر للاخلاق البشریة.

«**إِنَّ اللّه لایَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّة**». النساء، ۴۰.

«**وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَکِن کَانُواْ أَنفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ**». البقرة، ۵۷.

إنَّ عدالة اللّه – بما تعنیه من خیرٍ و استقامة – ذات معطیات کثیرة. فهو عادل و هذا یعنی طبعاً أنّه لایصدر منه قبیح. إذاً فهو سَیَفی بما وعَدَ به؛ لانّ خُلف الوعد قبیح!

«**إِنَّ اللّه لایُخْلِفُ الْمِیعَادَ**». آل‌عمران، ۹.

و إذاً، فهو لَنْ یُعاقب الناس قبل أن یبعث لهم نبیاً و یبلّغهم بأحکامه.

«**وَمَا کَانَ اللّه لِیُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتی یُبَیِّنَ لَهُم مَّا یَتَّقُونَ إِنَّ اللّه بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ**». التوبة، ۱۱۵.

إذاً، فهو لا يَتركُ مخلوقاته، بل يرعاها. و يمكن القول بإيجاز إنّ اللّه لا يفعل شيئاً مما يعتبره العقلُ قبيحاً.

الجبر و الاختيار

تَبرّع محمد يوم أمس بدارٍ لعائلةٍ فقيرة. جرح عدنان جاره أثناء شجار نشب بينهما فى الاسبوع الماضى. هنا سؤال يتبادر إلى الاذهان وهو: من الذى تبرّع بدارٍ، ومن الذى جرح جاره؟ و من هو الذى قام بهذين الفعلين؟ الجواب هو محمد و عدنان. و لكن هل كان بإمكانهما أن لا يفعلا ذلک؟ و هل كان باستطاعة محمد لو احتسبَ التكلفة المادية للتبرّع بالدار أن ينصرف عن هذا العمل؟ أو لو أنّ عدنان تحمّل قليلاً فى لحظة الغضب ولم يتناول سكيناً و يجرح بها جاره؟! هل كان هذان الشخصان قادرين على القيام بهذين الفعلين أم عدم القيام بهما؟! والجواب هو: نعم. إذاً، هل الانسان حُرٌّ و مخيَّرٌ فى أفعاله؟! إليک الجُمَل الاخبارية التالية:

اصطدم سليم يوم أمس بدرّاجة و انكسرت رِجله و رقد مدّة شهر فى المستشفى. عندما استيقظ سلمان من النوم فى صبيحة أحد الايام شعر بثقلٍ فى جسمه، و يبدو أنه قد أُصيب بالشلل. و يُقال أنه أُصيب بجلطة، و لا زال طريح الفراش.

يُستفاد من هذه الجمل الاخبارية أنّ الكثير من الحوادث التى ترسم طريق حياتنا ليست بأيدينا. إذ ليس فى أيدينا تحديد الزمان و البلد الذى نولد فيه. و لا نحن الذين نعيّن من يكون أبونا وأمّنا، و ليس باستطاعتنا رسم طبيعة السلوک و السجايا التى يكون عليها إخوتنا و أخواتنا، أو هل نكون أذكياءَ أم أغبياء، و هل نتمتع بتمام العافيّة و قوّة البدن، أم يتغلب علينا المرض و الضعف، و هل يكون لنا صوت رخيم و وجه جميل أو بشرة سمراء و قامة شَيِّقة.

إذاً، فالحرية و الخيار لنا فى أعمالنا، و لكن الكثير من الظروف و الاحوال ليست فى أيدينا. إنَّ هناک ثلاثة عوامل لها تأثيرها فى رسم حياة الانسان؛ أوّلها: الوارثة، فالكثير من الصفات و الخصائص تنتقل

إلينا من الاباء و الامّهات عن طريق الوراثة. و هذه العوامل تؤثر فينا لا إرادياً و نحن لا نستطيع تغييرها أو التحكّم فيها.

أما العامل الثانى: فهو البيئة، سواء كانت بيئة الأُسرة أو الشارع أو المدرسة، فالبيئة تفرض نفسها على الانسان وتؤثر فيه.

و العامل الثالث: هو اختيار الشخص و قراره. و هذا العامل أقوى و أكثر تأثيراً من العاملين السابقين. إذ كثيراً ما يقرّر أشخاص نيل درجات عليا من العلم والتقدّم والنجاح رغم أنّهم ينحدرون من أُسر فقيرة و ينشأون فى بيئة متخلّفة.

إذاً، هناك عوامل مؤثرة فى حياة الناس، منها: الوراثة، و البيئة، و التعليم، و الامراض و العاهات الجسمية و الاضطرابات النفسية و... و لكن يبقى التأثير الاشدّ و الاقوى لقرار الانسان و اختياره.

الانسان مخيَّرٌ لا مُجبَر و لا مُفوَّض اليه

موضوع الجبر والتفويض واسع و متشعّب. ويُقسم أهل الجماعة بشكل عامّ فى ما يخص نظرتهم إلى هذا الموضوع، إلى قسمين، هما:

الحشوية و الاشاعرة و السلفيون و كل من رفع شعار الجبر يقول: إنّ كلّ ما يجرى فهو فعل الله و بإرادة اللّه. و دليلهم على ذلک هو إننا إذا قُلنا إنّ الارادة و الفعل للانسان فمعنى ذلک أنّ إرادة الانسان أقوى من إرادة اللّه. فهل يُعقل أنّ اللّه يخلق الانسان ثم يجلس متفرّجاً و مكتوف الايدى و عاجزاً عن القيام بأن يفعل إزاء ما يفعله هذا الانسان؟! و هذا ليس صحيحاً؛ فاللّه تعالى قادر و قاهر و غالب و ليس عاجزاً و لامقهوراً و لا مغلوباً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أليس ما يجرى فى العالم كلّه من خلق اللّه؟! و لقد نقرأ فى القرآن: «**وَاللّه خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ**». الصافات، ٩۶.

إذاً كلّ ما نفعله إنّما هو من خلق اللّه و صُنعه، و ليس فى أيدينا شىء.

و فی مقابل هذا الفریق کان المعتزلة یقولون إنّ الانسان حُرٌ و مُختار؛ وإلّا فمن الذی یرتکب کلّ هذه المآثم والقبائح؟! هل اللّه هو الذی یفعلها؟! لیس من المعقول أن ینهی اللّه عن القبائح ثم یَمدّ یده فی کُمِّ احدٍ و یقترف قبائح علی یده! و من أبشع الظلم أن یقترف اللّه إثماً علی ید انسان، ثمّ یدخله النار و یعذّبه علی عمل ارتکبه هو نفسه.

ماذا عسانا أن نقول فی مقابل ما یقوله هذان الفریقان؟ إن قلنا إننا مَجبورون، وکلّ ما یحصل إنّما هو من فعل اللّه، فمعنی ذلک أنّ اللّه ظالمٌ و هو یفعل القبیح. و إن قلنا إننا أحرار و الخیار بأیدینا، فمعنی ذلک أنّ اللّه عاجز و مغلوب، فهل هناک طریق آخر بین الطریقین؟!

یقول الائمة المعصومون؛ نعم، هناک بین هذین الطریقین طریقٌ واسع. فکلّ ما فی هذا العالم مخلوقٌ بقدرة اللّه، ولکنّ اللّه منح جزءاً محدوداً من قدرته للانسان؛ فَمَنَّ علیه بسواعد قویّة للعمل، و بعینین ینظر بهما، و بلسانٍ یتکلّم به، و بمقدرة مالیة و مکانة اجتماعیّة ثمّ فوّض له التصرّف و جعل له حریّة الاختیار فی هذا المجال لکی یسلک سبیل الصلاح أو الفساد.

«**أَلَمْ نَجْعَل لهُ عَیْنَیْنِ * وَ لِسَانًا وَ شَفَتَیْنِ * وَ هَدَیْنَاهُ النَّجْدَیْنِ**». البلد، ١٠-٨.

«**ثُمَّ جَعَلْنَاکُمْ خَلاَئِفَ فی الاَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ**». یونس، ١۴.

و هذا الحال شبیه بمن یعطی لکلّ واحدٍ من ولدیه مقداراً من المال و یترک لهما حریّة التصرّف فی إنفاقه؛ فینفقه أحدهما فی شؤون التعلّم و الدراسة و الاشتراک فی النوادی الریاضیّة، بینما ینفقه الاخر فی تعاطی المخدّرات و القمار. فالوالد قد منح لولدیه هذه القدرة الشرائیّة، فاختار کلّ منهما طریقه بنفسه. فهنا لا یعتبر الاب مسلوب الارادة و مغلوباً علی أمره؛ و ذلک لانّ قدرتهما مستمدّةٌ منه، و هو متی ما شاء یمکنه سلبها و استعادتها منهما. کما أنّ الاب لایعتبر فی هذه الحالة ظالماً، فمع أنّ المال الذی أُنفق فی القِمار کان من الاب، غیر أن الذی أنفقها فی هذا المجال القبیح هو الابن.

لقد خلق اللّه الناس و زوّدهم بقوی و طاقات فی مجالات مختلفة. و متی ما شاء یمکنه أن یسلب منهم تلک القوی أو یحول بینهم و بین ما یریدون و ما یختارون. و یستطیع الانسان أن یسخّر هذه القوی و الطاقات - بإرادته و اختیاره - لیعمل صالحاً أو یقترف سیئةً. جاء فی حدیث شریف: «**قال اللّه: یا**

ابن‌آدم بمشیئتی کُنتَ أنتَ الذی تشاءُ لنفسک ما تشاءُ و بقوّتی أدّیتَ فرائضی و بنعمتی قویتَ علی معصیتی جعلتُکَ سمیعاً بصیراً قویّاً؛ ما أصابکَ من حسنةٍ فمن اللّه وما اصابکَ من سیئةٍ فمن نفسک». الکافی، ج۱، ص۱۵۲.

أورد العلاّمة الحلّی فی کتابه النفیس المعروف بأسم کشف المراد، عشر مجموعات من الآیات القرآنیة الدالة علی أن الانسان مسؤول عن عمله، و أنّه لیس هناک من جبرٍ أو إکراه، وإنّما له خیار التصرّف بالقوّة التی زوّده اللّه بها، و صنّفها علی النحو الآتی:

المجموعة الاولی: الآیات التی تعزو الافعال إلی الانسان.

«**مَن یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لاَ یَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّه وَلِیّاً وَ لاَ نَصِیراً**». النساء، ۱۲۳.

«**کُلُّ امْرِئٍ بِمَا کَسَبَ رَهِینٌ**». الطور، ۲۱.

المجموعة الثانیة: الآیات التی تُثنی علی المؤمنین لایمانهم، وتذمّ الکافرین لکفرهم. ولو لم یکن الایمان والکفر بحریة المرء و اختیاره، لما کان هناک معنی للثناء والذمّ! کقوله:

«**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّیِّئَةِ فَلاَ یُجْزَی إِلاَّ مِثْلَهَا وَ هُمْ لاَ یُظْلَمُونَ**». الانعام، ۱۶۰.

«**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنکاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیَامَةِ أَعْمَی**». طه، ۱۲۴.

المجموعة الثالثة: الآیات الدالة علی أن خلق اللّه لا عِوَج و لا ظلم فیه، فعلیه ان الذنوب و القبایح لیست من فعل اللّه تعالی.

«**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضَ وَ مَا بَیْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**». الحجر، ۸۵.

«**الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ**». السجده، ۷.

المجموعة الرابعة: الآیات التی تنهی عن الذنوب والفواحش. و لولم‌تکن تلک الاعمال بأیدی الناس و اختیارهم، لما کان هناک من داعٍ للنهی و التقریع.

المجموعة الخامسة: الآیات الدالّة بصراحةٍ و جلاء علی الحریّة و الاختیار کقوله تعالی:

«**وَ قُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّکُمْ فَمَن شَاءَ فَلْیُؤْمِن وَ مَن شَاءَ فَلْیَکْفُرْ**». الکهف، ۲۹.

المجموعة السادسة: الآيات التى تحثّ الناس على الخير و العمل الصالح كما نتلو فى القرآن:

«وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَّبِّكُمْ وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ». آلعمران، ١٣٣.

المجموعة السابعة: الآيات التى تعلّم الناس الاستعانةَ باللّه. فلو لم تكن الاعمال بأيدى الناس، و كان كلّ شىء بيد اللّه لكانت الاستعانة باللّه غير ذات المعنى.

«قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّه وَ اصْبِرُواْ». الاعراف، ١٢٨.

المجموعة الثامنة: نلاحظ فى بعض الآيات أنّ الانبياء يطلبون المغفرة من اللّه، ولو لم تكن الذنوب والمعاصى بيد الناس و اختيارهم، و كانت كلّها بيد اللّه، لما كان هناك داعٍ للاستغفار!

المجموعة التاسعة: الآيات التى نقلت لنا اعترافات الكافرين والمسيئين بما اقترفوه من ذنوب و آثام.

«قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ». المدّثر، ٤٧-٤٣.

المجموعة العاشرة: الآيات الدالة على ندم أهل النار على ما فعلوا فى هذه الدنيا. و لو لم يكن خيار تلك الافعال بأيديهم، فليس للندم من معنى.

«أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ». الزمر، ٥٨.

و فى مقابل هذه الآيات هل يمكن أن نعثر فى القرآن الكريم على آية او آيات تدلّ على الجبر؟ نعم، يُستفاد من بعض الآيات أن الهداية و الضلال ليس بيد الانسان و إرادته، و إنّما بإرادة اللّه تعالى.

«إِنَّكَ لاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللّه يَهْدِى مَن يَشَاء وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ». القصص، ٥۶.

«فَمَن يُرِدِ اللّه أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فى السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّه الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ». الانعام، ١٢٥.

حتى أنّ اللّه يختم على قلوب البعض فلا يعودون يفهمون و لا يسمعون و لا يبصرون.

«أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّه عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللّه أَفَلاتَذَكَّرُونَ». الجاثية، ٢٣.

حيث انّ اللّه عزّ و جلّ يقول إنّ الهداية والضلال بيدى، ينبغى الالتفات إلى أنّ هذا لا يقتصر على الهداية والضلال فحسب، بل إنّ أى فعل آخر ايضاً لا يقع إلّا بإذنه تعالى. و كلّ ما فى هذه الدنيا بارادته و رعايته.

و الختم على الافئدة و إعماء الابصار، عملٌ ينسبه اللّه إلى ذاته فى عدّة مواضع من القرآن الكريم. و هنا لابد من القول بانّ الانسان مختارٌ فى أن يسلک طريق الخير و الصلاح أو طريق الشرّ و المعصية و الكفران، و هو تعالى يوفِّر له القدرة و القوّة ليسلک أىّ السبيلين يشاء:

«**كُلًّاً نُّمِدُّ هَؤُلاء وَ هَؤُلاء مِنْ عَطَاءِ رَبِّکَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّکَ مَحْظُورًا**». الاسراء، ٢٠.

كان أمير المؤمنين عليه‌السلام يحظى بنعم إلهية، و كان معاوية يحظى بتلک النعم فى الدنيا أيضاً. و كانت السيوف حادّة و قاطعة لدى النبىّ صلى‌الله‌عليه‌وآله من جهة، و لدى أبى‌سفيان من جهة أخرى. و لكن من يسير فى طريق الضلال و يكفُر بنعم اللّه يغفل تدريجياً و يُختم على سمعه و بصره و يصبح قلبه أصماً كالحجارة. و هذه الحالة هى التى يصنعها لنفسه. ففى بداية الامر يتناوم و يتهرّب من الحقيقة؛ فتعتاد عيناه تدريجياً على النوم ثمّ لا يستيقظ بعدها أبداً. و هذه المرتبة من الضَلال تأتى بسبب سوء اختيار الانسان نفسه، و لكن بما أنّ ما يقع هو من صُنع اللّه و خلقه فإنّه عزّ و جلّ يَنسبُ هذا الفعل الى نفسه. فهؤلاء الناس أغمضوا أعينهم و تعاموا عن الحقائق، فسلّطنا عليهم النوم و جعلناهم لا يدركون شيئاً.

مسألة الشرّ

انّ اللّه تعالى كمالٌ و جمالٌ و خير، لا نقص فيه، و لا يصدر من الخير المطلق إلّا الخير المطلق. فهل من الممكن ان تنتج الادغال حبّات حنطة؟! أو ان ينضَح من الماءِ خَلٌّ؟! كلّا! فمِن أين إذاً تأتى كلّ هذه المصائب و الفشل و الاعوجاج؟ هذه الشبهة هى التى دفعت البعض إلى الاعتقاد بوجود مبدئين فى العالم أحدهما مصدر الخير، والاخر مصدر الشرّ. و هم الذين يُسمّون بالثنوية. و هذه الشبهة أيضاً أثارت جدلاً واسعاً فى علم الكلام المسيحى بأنّه مَن الذى خلق الاشياء المؤلمة فى هذا العالَم مثل المُعاقين

الذى يأتون إلى هذا العالم و هم يعانون من عاهات و أمراض ولادية، و ما يقع من الزلازل و الصواعق التى تحصد أرواح الكثير من الضحايا، هذا إضافة إلى وجود أمراض مؤلمة و مزمنة و مستعصية؟! فمَن الذى خلق هذه الاشياء؟! فإن كان اللّه هو الذى خلقها، فَهو خَيرٌ فلِماذا يخلق الشرّ؟! و إن كان هناک خالق آخر، فمعنى ذلک أنّ اللّه ليس هو الخالق الوحيد فى الوجود!!

نبحث ابتداءً عمّا نُسمّيه شراً أو سوءاً، و الملاحظة الاولى الجديرة بالبحث هى أنّ هناک بعض الاشياء التى تُعتبر شَرّاً فهو شرٌّ بالنسبة إلينا او إلى أُسرتنا، و لكنّها مفيدة لبقية الناس. فلو أخذنا على سبيل المثال كوّازاً أعَدَّ الاكواز و أوانى فخارية و وضعها تحت الشمس لتجفّ، ثم تحتشد الغيوم فُجأة و ترعد و تمطر، و تحوّل كل ما صنعه من الاوانى إلى الطين! ألا يحقّ للكواز أن يعتبر هذه الحادثة شَرّاً؟! كلا طبعاً، لا يحق له ذلک؛ لانّه ليس هو المعيار الوحيد للخير والشرّ. بل ينبغى النظر إلى الوضع العام. فإن كان المطر شَرّاً لعددٍ من الكوّازين فهو خير لآلاف الاحياء الآخرى. إذاً فالشرّ هو ما يُعدّ قبيحاً و ضارّاً بحدّ ذاته، و ليس ضارّاً لشخص معيّن.

الملاحظة الثانية: هى أن الكثير من الاشياء التى نعتبرها شَرّاً تأتى نتيجة لاختيارنا نحن بنوالانسان. فالبارى تعالى خلق الناس أحراراً مختارين. و من الطبيعى أن الحريّة و الاختيار خيرٌ للانسان من الاجبار. فالانسان قد يختار الخير تارة و قد يختار الشر اخرى. و اختيار الشخص الواحد قد يؤثّر فى مصير آلاف الناس الآخرين. نذكر من ذلک مثلاً أن ما فعله هتلر و صدام جلب المصائب على ملايين الناس. إذاً فهذا الشرّ لا تُعزى اسبابه إلى خلقة اللّه، و إنما يُعزى إلى اختيار هذا الفرد.

ولكن يبقى أيضاً ثمة سؤال يراود الاذهان و هو: لماذا خلق اللّه مثل هذا الشخص الذى يجلب الشرّ على الآخرين؟! والجواب هو أن اللّه خلق إنساناً سويّاً و قلباً طاهراً و فطرة سليمة و روحاً توّاقة إلى الكمال. و لكن البيئة، و التربية، و الأُسرة، و الاهمّ من كلّ ذلک هو اختيار الشخص الذى يجعل منه مثل معاوية أو مثل مالک الاشتر، أو يصنع منه مثل هتلر، أو زعيماً مثل غاندى.

و عند الالتفات الی هذه الملاحظة نجد الجواب تلقائیّاً عن الکثیر من الاسئلة. فالعاهات الولادیة التی تصیب الاطفال تأتی عادةً بسبب عدم مراعاة والدیه لما ینبغی مراعاته، و قد یکون ذلک المرض الغامض ناتجاً عن طعام غیرمناسب، أو بسبب ظروف بیئیّة ملوّثة و غیر ذلک.
«ما أَصَابَکَ مِنْ حَسَنَة فَمِنَ اللّه وَ مَا أَصَابَکَ مِن سَیِّئَة فَمِن نَفْسِکَ». النساء، ۷۹.
«الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ما تَرَی فی خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَی مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ کَرَّتَیْنِ یَنقَلِبْ إِلَیْکَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَ هُوَ حَسِیرٌ». الملک، ۴-۳.
هذه هی نظرة القرآن إلی الشَرّ؛ فکلّ ما یصیبک من سوء ناتج عن ظلم شخص آخر أو انعکاس لافعال سابقة منک و لو من المحتمل طبعاً أن لا نعلم مُنطلق أو مصدر هذه الشرور و المساویء. نسوق فیما یلی مثالاً علی ما ذکرنا تنطوی علیه القصة التالیة:
کان ولیّاً من اولیاء یمشی ذات یوم فی الصحراء فوصل إلی بئرٍ علی مقربة من شجرة. فشرب ماءً من البئر و جلس فی ظلّ الشجرة للاستراحة. و بعد لحظات جاء فارس إلی البئر و شرب منه و کان معه کیس نقود، فنسیه عند البئر و ذهب. و بعد مدّة قصیرة جاء إلی البئر شاب من الرعاة و معه قطیع أغنام فسقی غنمه، و وجد کیس النقود فأخذه و ذهب. و بعد مضی لحظات جاء شیخ کبیر و جلس عند البئر و ما کاد یشرب الماء حتی عاد الفارس مسرعاً لیأخذ کیس نقوده الذی نسیه عند البئر. ففتش عنه هناک و هناک و لم‌یعثر علیه. فنظر إلی الشیخ نظرة غضب و ریبة و قال له: لابدّ أنک أخذتَ کیس النقود؟! فأنکر الشیخ ذلک. و استولی الغضبُ علی الفارس فانتضی سیفه و ضرب الشیخ و أراده قتیلاً ثمّ غادر المکان. حصل علی ذلک و الولیّ تحت الشجرة یشاهد الموقف فتقدّم نحو البئر و وجد الشیخ یلفظ أنفاسه الاخیرة. فساءه ذلک، و جال طرفه فی السماء و قال: إلهی أین عدلک؟! وکیف ترضی أن یأخذ الشاب مال الفارس، ثم یُقتل هذا الشیخ من غیر ذنبٍ. و بعد مدّة تبیّن للولیّ أن ذلک الفارس کان قاطع طریق، و کان قد أخذ هذا المال من أب هذا الشاب الراعی. و أما هذا الشیخ فکان قد قتل فی ما مضی والد هذا الفارس، و الفارس لا یعلم طبعا مَن الذی قتل والده فنشأ یتیماً و أصبح قاطع الطریق.

عند ذاک سکنت نفس الولی حین رأی أن الشاب قد استعاد مال أبیه، و أن ذلک الشیخ قد قُتِل بسبب ارتکابه جریمة قتلٍ فی أیام شبابه.

نحن ایضاً ننظر فقط إلی الیوم و الغدٍ، حین نشاهد واحداً یئن علی فراش المرض، أو حین نری شخصاً یکابد الفقر و العوز، أو یتقلّب خلف قُضبان السِجن، من غیر أن نعلم ما الذی فعلوه فی الامس. فربّما یکون هذا الشرّ الذی هم فیه الیوم نتیجة لما فعلوه بالامس، أو أصابهم بسبب ظلم شخص آخر. و علی أیّ حالٍ فإنَّ اللّه لا یظلم عباده. هو خیرٌ مطلق و لا یصدر منه ظلمٌ ولا شَرّ.

«**إِنَّ اللّه لاَیَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**». النساء، ۴۰.

الملاحظة الثالثة: إنّ ما نعتبره شَرّاً قد یکون فیه ضررٌ و قبح من جهة،

و فوائد و منافع کثیرة من جهةٍ أخری. نذکر مثالاً علی ذلک: شابٌّ یدرس لیلاً ونهاراً استعداداً لاداء الامتحان، فیلاحظه طفلٌ صغیر و هو علی هذا الحال فیظنّ الصفل أن الشابّ یعیش معاناة مؤلمة ویتعذّب! و لکن الشابّ نفسه یعلم أنّ المشقّة التی یتحمّلها لبضعة أیام تعقبها راحة و تعود علیه بفوائد جمّة فی المستقبل. و هکذا الحال فی التشدّد و العقوبات التی یمارسها الابوان و المعلمون فمع أنّها تبدو مریرة و مؤلمة و لکنّها فی واقع الحال لذیذة لأن النتیجة التی تتمخّض عنها حسن تربیة الاولاد و تهذیبهم. و هکذا الحال بالنسبة إلی ما نعتبره نحن شَرّاً. فنحن قد نعتبر المرض الشدید الذی یصیب احداً، ظلماً أحاق به، و لکنه قد یکون مدعاة لتوعیته و إیقاظه من سبات الغفلة. و إذا نظرنا إلی قصّة النبیّ أیوب فی القرآن نلاحظ أنه کان نبیّاً ولم یرتکب إثماً أو معصیة لیُقال إنّ آلامه جاءت حصیلة لسوء اختیاره، کما أنه لم یُظلَم من قِبَل شخص آخر. و لکن اللّه أراد أن یبتلیه. و فی البلاء یُمحّص المرء و تتکامل تربیته، و یرتقی مقامه. و قد ارتضی أیوب هذا الابتلاء و صُبّت علیه سِهام البلاء صَبّاً؛ فمات أولاده، و ذهبت أمواله، و أصیب هو بمرض مبرح. و نحن قد نعتبر هذه المصائب شَرّاً، و لکن أیوب نفسه کان یراها لذیذة و جمیلة. و هکذا الحال بالنسبة إلی السیّدة زینب الکبری علیهاالسلام حین قال لها عبیداللّه بن‌زیاد: کیف رأیت صنع اللّه بأخیک؟! و هنا نلاحظ أن ابن زیاد ألقی عمله القبیح علی

اللّه. و ما أجمل ما أجابتْ به زينب عليهاالسلام حيث قالتْ: «ما رأيتُ منه إلّا جميلاً». بحار الانوار، ج ۴۵، ص ۱۱۶.

استنتاجٌ

الخير و الشرّ، و الظلم و العدل، ليست اموراً نسبيّة و إنّما حقائق ثابتة و قد خلق اللّه الانسان و زوّده بالقدرة على تشخيص هذه الامور.

و أمّا بالنسبة إلى قضية الجبر و الاختيار، فلابدّ من القول: بانّ بعض الامور تقع خارج إرادتنا مثل الاسرة و البلد الذى نولَد فيه، و ما قد نتّصف به من بدانة أو طول قامة. و هكذا أيضاً بالنسبة إلى الحوادث التى تقع لنا و الامراض التى تُصيبنا. و هذا طبعاً أحد وجهى السكّة، و نحن لانتحمّل أية مسؤولية إزاء هذا النوع من الاحداث والوقائع. و أما الوجه الاخر للعملة فهو الاختيار الذى يتجسد فى أن يدرس المرء فى فرع الحقوق أو فى فرع علم الاجتماع، و أن يسافر فى العطلة الصيفيّة إلى هذا المصيف أو إلى ذلک. فاللّه تعالى قد ترک حريّة الاختيار لنا لكى نقرر ما نريده فى كل شؤون حياتنا صغيرها و كبيرها.

و أما بالنسبة إلى قضية الشرّ، فقد يقع لنا أحياناً شَرٌّ ولكنّ هذا الشرّ ربّما يكون بحدّ ذاته خيراً و شيئاً صحيحاً مثل قضية الكوّاز و المطر التى ذكرناها. و فى بعض الاحيان قد يعود سبب الشرّ إلى اختيار الانسان نفسه، أو اختيار الناس الآخرين. و الملاحظة الاخيرة فى هذا المضمار هى أننا لا نحيط علماً بما يجرى وراء السِتار؛ فالشىء الذى نعتبره مصيبة قد لا يكون ذلک فى الواقع، بل لا يكون إلاّ سُلّماً للرقى و التكامل مثل قصّة الطفل والشاب الذى يدرس. أو ربّما أنّ ما نعتبره ظلماً يمثّل فى الحقيقة جزاءً عادلاً مثل قصّة الولىّ و الحادثة التى وقعت له عند عين الماء.

الفصل الثالث

«النُبُوَّة»

استشرافٌ

لماذا بعثة الانبياء ضرورة؟

إلى كم فئةٍ يُقسم الانبياء؟

لماذا هناک اختلاف بين الاديان، رغم إنّها مستمدّة من الوحی؟

هل الانبياء معصومون من الذنب، و الخطأ، و النسيان؟

ما هی المعجزة؟

لماذا خُتمت النبوّة برسول الاسلام؟

هل سقطت الاديان السابقة من الاعتبار بظهور الاسلام؟

تمهيدٌ

كانت هناک خيام منصوبة هنا و هناک، و جماعة من الناس جالسة تتحدث، و جماعة تدعو، و جماعة أخرى تقرأ القرآن. و لكن الخيمة التى كان فيها الامام جعفر الصادق عليه‌السلام كانت تشهد جَوّاً من نوع آخر، فقد كانت خيمة الامام حرماً فى الحرم. و كان أصحاب الامام جالسون، و يبدر منهم بين الحين و الاخر سؤال، فيأتيهم الجواب من الامام. و لكن بدا حينها و كأنّ الامام ينتظر أحداً. رفع طرف الخيمة و انشّدّت الانظار إلى الاتجاه الذى نظر إليه الامام، و حدّقت الابصار فى شاب كان مقبلاً نحو الخيمة. فمن هذا الشاب؟!

نهض الامام احتفاءً بهذا القادم. و أخذ يده و أجلسه قربه. و لكن ما الذى يدعو الامام إلى تكريم هذا الشاب إلى هذا الحدّ؟!

وجنات الشاب متورّدة، و عيناه فى الارض، شفتاه كأنّما ترتعشان.

– يا هشام! ألا تخبرنى كيف صنعتَ بعمرو بن‌عبيد و كيف سألته؟

اغرورقت عيناه بالدموع.

– إنّى اجلّک و استحييک و لايعمل لسانى بين يديک... يا مولاى!

صمتَ هشام، فقال له الامام: قُل كيف صنعتَ، و ماذا قلتَ؟!

رفع هشام رأسه، و ألقى نظرة على المجلس، و كَانّ الجميع مترقباً فى انتظار كلامه، فقال:

– بعدما بلغنى ما كان فيه عمرو بن‌عبيد و جلوسه فى مسجد البصرة، عظم ذلک علىّ، فخرجت إليه و دخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيتُ مسجد البصرة، و وجدتُه مزدحماً بالناس، و عمرو جالسٌ فى الصدارة مرتدياً ثياباً من الصوف، و الناس يسألونه. فجلستُ بين الناس. ثمّ قلتُ له: ألک عينٌ؟!

فحدّق بى الجميع. و نظر الىَّ عمرو نظرة عاقل إلى سفيه، و قال: يا بُنى أى شىء هذا من السؤال؟!

قلت له: لو صبرتَ علىَّ، فعندى بضعة أسئلة من هذا النوع!

فقال: يا بُنى سَل و إن كانت مسألتک حمقاء. ثم قال: نعم، لى عينٌ.

– فماذا تصنع بها؟!

– أرى بها.

– الک أُذنٌ؟!

– نعم.

– ماذا تصنع بها؟!

– أسمع بها الصوت.

– ألک أنفٌ؟!

ضاق عمرو ذرعاً، و قال باستیاء: نعم، أشمّ به الرائحة.

– أ لک لسانٌ؟!

قطع عمرو کلامی و قال: نعم، أذوق به الطعام.

– و أ لک قلبٌ؟!

– نعم.

– فما تصنع به؟!

– القلب محور و مرکز، و قائد لبقیة الاعضاء، و هو المسیطر علی ما یرد علی الاعضاء الاخری کالعین، و الاذن، و الانف، و اللسان.[1]

قلتُ: کیف لم یَترک اللّه جوارحک حتی جعل لها إماماً، و یترک الخلق کلّهم فی حیرتهم و شکّهم و اختلافهم لا یقیم لهم إماماً یردّون إلیه شکّهم و حیرتهم؟!

صمت عمرو، و ظلّ کلّ تلامیذه ینظرون إلیه فی حیرة و دهشة. و بدتْ معالم ثقل السؤال واضحة علی کاهله، و نضحت قطرات العرق علی جبینه. و کان من الجلی أنّه یرید إزاحة ذلک العبء عن کاهله.

– من أنت؟! أأنت هشام بن الحکم؟!

ثم أنه قام و ضمّنی إلیه و أقعدنی قرب مجلسه. و لم ینطق ولم‌یعرض له أحدٌ بسؤال بعدها حتی قمتُ.

---

[1] – المراد بالقلب فی الثقافة العربیة – الاسلامیة العقل و احیاناً الروح و احیاناً ذلک العضو الصنوبری الذی فی الصدر.

ارتسمت ابتسامة على شفتى الامام و قال:

- يا هشام! مَن علّمک هذا؟!

- کلّ ما عندى أخذتُه منک، يا مولاى.

فقال له الامام: هذا و اللّه مکتوبٌ فى صحف إبراهيم وموسى.[1] الکافى، ج١، ص١٦٩.

الخطوة الاولى

فى الفصل الاول عَرَفنا اللّه بصفات کالعلم، و الحکمة، و القدرة، و الرحمة. و أثبتنا فى الفصل الثانى أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يفعل القبيح، و إنّما هو على صراط مستقيم. و قلنا أيضاً أنّه فوّض أمر الانسان إلى نفسه ليختار الخير أو الشرّ. و الان حيث وصلنا إلى بحث النبوّة نبدأ کلامنا بالقول انّ اللّه الذى عرفناه يجب أن يکون له رسول. و لهذا «الوجوب» عدّة أدلّة:

الاول؛ انّ اللّه خالقٌ و ربّ فهو يربّى مخلوقه و يرعاه. و الذى يردده المسلم کلّ يوم عشر مرّات على الاقل هو: «**الحمدُ للّه ربِّ العالمين**».

الربّ هو الذى يرتقى بمخلوقه من الصِغر و الضِعة و الفقر و الجهل نحو الکِبَر و الرقى و الغنى، و بعبارةٍ أخرى ينقله من الظلمة إلى النور. فاللّه مُرَبٍّ يُنَمّى کلّ موجود فى مسير حياته و يضفى عليه الکمال. فکمال حبّة اللوبياء أن تنبت و تخضَرَّ و تثمر اللوبياء. و کمال نواة التمر أن تکون نخلة باسقة و وفيرة الثَمَر. و هو تعالى يرعى حبّة اللوبياء، و نواة التمر و هى فى باطن الارض و ينمّيها إلى أن تبلغ غاية کمالها. فما هو کمال الانسان؟! ولاى شىء خُلق؟!

الانسان أسمى من الاکل و الشرب، و أسمى من هذه الحياة اليومية الحيوانية. الانسان له نهجٌ آخر، نهج العقل و العواطف، و مسار الرُقى و التکامل الروحى. نهجٌ يربّى إنساناً کالمسيح، و يُنتج شخصاً کإبراهيم، و يصنع مثل سلمان، و يجود بآخر کأبىذر.

---

[1] - نتيجة استدلال هشام، هى ضرورة وجود قائد الهى فى الارض نبيّاً کان او وصىّ نبىٍّ .

كلّ مخلوقات اللّه بعينه؛ فهو ربُّها و مربّيها.

«**رَبُّنا الَّذِی أَعْطَی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَی**». طه، ۵۰.

إذاً يجب – على أساس صفة «الربوبيّة» هذه – أنْ يأخذ بيد الانسان و يهديه و لايتركه، و يعينه للسير على طريق الكمال.

نفترض أن صديقاً جاء من مكانٍ بعيد للقائک، و هو الان يقف فی محطة القطار بانتظار أنْ ترشده إلى الطريق، ماذا عساک أن تفعل؟! لعلّک تترکه يسأل هنا و هناک إلى أن يهتدی إلى دارک. و لكن هذا أمرٌ شاقّ عليه. أو لعلّک تخبره عنوانک باتصالٍ هاتفی واحد. أو تكتب عنوانک له فی رسالة. و لكن من العسير على غريبٍ أن يعثر على عنوانٍ فی مدينة يدخلها لاول مرّة. إنّ أفضل الحلول هو أن تبعث شخصاً مدبّراً و ثقةً و عارفاً إلى محطة القطار لكی يأتی صديقک برفقته إلى دارک.

لقد خَلقنا اللّه، و يجب أن نسير على طريقٍ يوصلنا إلى داره التی هی فی الواقع رحمته اللامتناهية و مغفرته الشاملة.

«**وَعَلَی اللّه قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْهَا جَآئِرٌ وَ لَوْ شَاء لَهَدَاکُمْ أَجْمَعِینَ**». النحل، ۹.

لقد أرشدنا اللّه بهذه الطرق الثلاثة؛ إذ غرس فی فطرتنا و فی خلقتنا قوّة نستطيع أن نصلَ بواسطتها إلى الحقيقة على طريق البحث و التتبع؛ و لكن هذا الاسلوب عسيرٌ و شائکٌ و محفوفٌ بالمخاطر. كما أنّه كَتب لنا عنوانه فی رسالة بعثها لنا. انظروا فی القرآن؛ كلّه آيات و دلالات. و الاسلوب الثالث هو أنّه بعث لنا ثقاة أمناء يتصفون بالحلم و الحكمة و غزارة العقل ليأخذوا بأيدينا و يرشدونا إليه. و على هذا فإنّ مقتضى ربوبيّة اللّه هو أن يبعث لنا رسلاً.

انّ اللّه حكيمٌ و ليس فی فعل الحكيم عبث، بل كلّه اِحكامٌ و لا نقص فی أعماله. و خلْقُ الانسان من غير مرشد عملٌ لا يخلو من العبث و النقص. فكيف نحن بنیالانسان حينما نريد صناعة شیء كالطائرة مثلاً أو الحاسوب نُنشئ مركزاً لادارة هذه المهمة و تنظيم العمل فيها و الاشراف عليها. كذلک الباری تعالى لا يترک الانسان من غير مرشد و قائد.

الدليل الاخر على ضرورة بعث الانبياء هو «قاعدة اللطف»؛ فاللّه تعالى نور و كمال، و قد خلقَ كلّ شىءٍ على أحسن ما يكون خلقه.

«**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**». السجدة، ٧.

خلق كلّ شىء على أحسن صورة، و هداه فى حدّ وجوده ليرتقى و يتكامل فليس هناک من اللّه منعٌ أو نقص. و إذا ثبت أن مخلوقاً يحتاج إلى شىء، «يجب عليه» انطلاقاً من لطفه و كرمه أن يعطيه ما يحتاج. و بما أن الانسان يحتاج إلى دليلٍ، و يحتاج إلى واسطة لتلقّى الرسالة الالهيّة، فمنَ الطبيعى أن لطف اللّه يشمله، و يُرتجى من حكمته و ربوبيّته و لطفه أن يبعثَ الانبياء و يُرسل الرسل.

كان الانبياء يأتون الواحد تلو الاخر، و هو تعالى بناءً على مقتضيات تلک الصفات الثلاث اى الحكمة، و الربوبيّة، و اللطف، لم يترک الناس قط بلا نبى و قائد.

«**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ**». المؤمنون، ۴۴.

و كانت للانبياء درجات مختلفة؛ بعضهم كان على ارتباط باللّه فقط، فكان نور الهداية يومض فى قلوبهم، و تداعب أنغام الوحى ارواحهم. هؤلاء كانوا أنبياء. و النبى هو من يكون لديه نبأ أو خبر. ثمّ النبى إذا ارتقى فوق هذه الدرجة يعرض نبوّته على أسرته و عشيرته و يقودهم على طريق الهداية. و على هذا فهو رسولٌ و مرسَل. فالمرسل هو من يبلغ رسالته إلى عشيرة أو قبيلة. مثلما هو الحال بالنسبة إلى أنبياء بنى‌إسرائيل، أو إلى مدينته، حتى ينتهى الامر الى الانبياء أولى‌الشريعة و الدين. و هؤلاء هم الذين يسمّيهم القرآن «أولى العزم» أى أصحاب دين وشريعة. (لاحظ الاحقاف، ۳۵).

بُعث نوح عليه‌السلام نبياً إلى بلاد ما بين النهرين، و لكن ليست هناک معالم من دينه. و هو مدفونٌ فى النجف إلى جوار مرقد أميرالمؤمنين.

و انبعث بريق النبى إبراهيم عليه‌السلام فى أرض بابل، و جاب الحجاز و الشام، و تُسمّى ديانته الحنيفية؛ أى التوحيد الخالص.

و موسى عليه‌السلام هو النبى الذى جاء بأبناء يعقوب من مصر إلى فلسطين. و كتابه التوراة و ديانته تنتسب إلى اليهودية. و موضع مدفنه مجهول.

و النبیّ عیسی، کلمة اللّه، ولدتْه مریم بأمر اللّه، و کتابه الانجیل الذی نعتقد نحن المسلمون أنه غیر موجود، و الشیء الموجود حالیاً هو روایات أربعة من تابعی عیسی و هم مَتّی، و مَرقُس، و لوقا، و یُوحنّا، عن حیاة عیسی و معجزاته و کلماته. و لم یتحمل أحبار الیهود و حُکّام الروم وجود عیسی. وقد وشی أحدُ حوارییه الاثنی عشر و اسمه یهودا الاِسخَریُوطی، إلی الرومیین بمکان وجود المسیح، فجاء الرومیون لالقاء القبض علیه، و لکن اللّه عزّ و جلّ صوّر لهم – وفقاً لما جاء فی القرآن الکریم – شخصاً آخر علی هیئة المسیح، فقبضوا علیه ظنّاً منهم أنه عیسی، و صلبوه:

«**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّه وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فيهِ لَفى شَکٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بهِ مِنْ عِلْمٍ إِلّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً**». النساء، ١٥٧.

عرج المسیح إلی السماء، و سیهبط فی آخر الزمان فی بیت المقدس و یکون من أنصار آخر أوصیاء نبی الاسلام، و یصلّی بإمامته. أما المسیحیون فیعتقدون – استناداً إلی أناجیلهم الاربعة – أنّ عیسی قد صُلب و أنّهم وضعوا جثمانه فی مقبرة و لکنهم حین جاءوا لزیارته بعد ثلاثة أیام لم یجدوه هناک، و أنّه عادت إلیه الروح بعد ثلاثة أیّام، و ظهر للکثیر من حواریّیه. و هو فی السماء و ینزل فی آخر الزمان فی بیت المقدس. فعلی هذا الاساس تلتقی معتقدات المسیحیین والمسلمین بشأن المسیح عند نقطة واحدة.

و آخر الانبیاء، هو نبی الاسلام، محمد بن عبداللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله ، من أولاد إسماعیل علیه‌السلام . و کان قد وُلد بعد ستمائة سنة من میلاد المسیح، و عاش ثلاثاً و ستین سنة، و توفی فی المدینة المنوّرة و دُفن فی داره.

لماذا الاختلاف؟!

یبیّن القرآن الکریم أنّ کلّ الانبیاء مبعوثون من اللّه، و نحن نؤمن بهم کلّهم و لانفرّق بینهم.

«**قُولُواْ آمَنَّا بِاللّه وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الاسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**». البقرة، ١٣٦.

فإن كان إبراهيم و موسى و عيسى و محمد عليهم‌السلام كلّهم رُسُل إلهٍ واحد، و أنبياء نور واحد، فلماذا اديانهم مختلفة؟! و لماذا العبادة و الاحكام و المعارف و المعتقدات فى المسيحيّة و فى الديانة اليهود تختلف عمّا فى الاسلام؟ و من أين نشأ هذا الاختلاف و التباين؟!

كلّ واحد من الاديان السماوية يتألّف من ثلاثة مكوّنات: المعتقدات، و الاحكام، و الاخلاق. و اختلاف الاديان فى ما بينها يكثر فى القسمين الاوّلين منها. فالاله الذى يعبده اليهود؛ يَهُوَه، و هو إله بَنيإسرائيل الذى يحميهم وهو خاصّ بهم. و لهذا الاله طبعاً خصائص بشريّة، و لكنه إلهٌ واحد احد. و الانبياء يصطفيهم مثل هذا الاله، و لكن ليس من الضرورى أن يكونوا أكمل الناس و أصلحهم!

مسيحيو اليوم – فضلاً عن الاختلافات – يعتقدون عادة أنّ المسيح، ابن اللّه. و أنّه جاء لكى يكون فداءً، و قطرات دم المسيح التى نزلت من الصليب بدّدت ذنوب الانسان. و المسيح له مقام إلهى، و يجلس فى الملكوت إلى يمين الاب. و إذا تجاوزنا الاله الاب و ابنه المسيح، هناک أيضاً روح القدس و هو إلهٌ ثالث. و لكنّه إلهٌ أدنى مرتبةً من الاب و الابن. و هؤلاء الثلاثة واحدٌ، و ذلک الواحد ثلاثة!

احدُ مَن كان لهم دور مهم فى صياغة المسيحية الحالية؛ هو بولس. و قد ضُبطت مجموعة رسائله فى العهد الجديد كسند مقدّس. فالاعتقاد بأنّ عيسى، ابن اللّه، و أنّه قربان لخطايا العالمين، و نظرة المسيحيين العامّة إلى اللّه، تعود جذوره إلى تعاليم بولس. كان بولس حبراً من أحبار اليهود و كان كثير الخلاف مع المسيحيين. و حينما كان متجهاً من أورشليم إلى دمشق زعم أن المسيح ظهر له فى وسط الصحراء و بعثه ليبلغ إلى الناس تعاليمه الجديدة والتكميلية! جاء فى ألاخبار إنّ من حرّم دين المسيح و أسّس المسيحية الحالية هو بولس. و انَّ آخر حجج اللّه سيُحييه و يحاكمه على ما فعل. (راجع بحار الانوار، ج۱۳، ص۳۷).

و قد ابتلى الاسلام بنحو أو آخر بمثل هذه الآفات التى ابتليت بها الاديان السماوية السابقة، و لكن بفارقين مهمّين و أساسيين، و هما: أنّ كتاب الاسلام المقدّس و هو القرآن الكريم قد دُوّن و ضُبط كلمة كلمة و حرفاً حرفاً، و يتّفق عموم العلماء على أنَّ القرآن الذى بين أيدينا اليوم هو ذلک الوحى النورانى الذى نزل على قلب النبى قبل أكثر من أربعة عشر قرناً. بل يتجلّى من خلال الدقّة فى معارف القرآن،

أنّ هذا الكتاب السماوى لم تسطره أيدى أصحاب النبى أو أيدى القديسين و علماء الدين أو النبىّ نفسهُ. و إنّما هو كلامٌ فوق كلام البشر، و يختلف حتى عمّا نُقل من كلام النبى صلىاللهعليهوآله . و هذا وعدٌ إلهى قطعه اللّه بأن يحفظ آخر الكتب السماوية من خطر التحريف.

أمّا الفارق الاخر الذى يميّز الدين الاسلامى عن الاديان السماوية السابقة – استناداً إلى ما يعتقد به المذهب الشيعى طبعاً – هو أنّ الهداية الالهيّة لم تنقطع فى أعقاب وفاة النبى، و إنّما استمرّت فى ثوب آخر و هو الامامة. فالامام وصى رسول اللّه، و خليفته، و مادامت الدنيا قائمة لابد أن يكون فيها إمامٌ. و هذا ما صرّح به رسول اللّه نفسه فى آخر أيام حياته يوم قال: «**كأنّى قد دُعيتُ فاجبتُ و إنّى تاركٌ فيكم الثقلين أحدهما أعظمُ من الآخر كتابَ اللّه حبل ممدود من السماء إلى الارض و عترتى أهل بيتى فانظروا كيف تخلفونى فيهم**».[1]

و فضلاً عن هاتين الركيزتين الراسختين و العُروتين الوثيقتين؛ أى القرآن و أهل البيت، لابد من الاقرار بأنّ كلّ آفة نخرت الاديان السابقة من الداخل، قد غارت على الاسلام أيضاً، ومن جملة ما ظهر من إفرازاتها وضع الاحاديث، و تحريف كلام النبى، أو فهمه على نحوٍ مغلوط، إضافة إلى الاخطاء التى ارتكبها الاعلام و المتصدّين لزمام الامور، و الفرق و المذاهب، ناهيک عن نزعات اكتناز الاموال، و الحرص على الاستكثار من المريدين، و الشغف بالفتوحات، و الالاعيب السياسية، و توظيف الدين لمآرب أخرى، و اصطناع آلاف التفريعات و المسائل الفقهيّة الكبرى والصغرى، و الانهماک فى تلک التفريعات و غصونها و شجونها، و التخلّف، بل الابتعاد عن حقيقة الدين و جوهره... و عصارة الكلام أنه لم يبق من الدين الالهى المبين، بعد بضعة قرون، سوى مجموعة من العادات و التقاليد و القواعد و الاحكام ذات القيود و الاَغلال.

---

[1] – بحار الانوار، ج ١٠، ٣٦٩؛ يمكن العثور على هذا المضمون فى مسند أحمد، ج ٣، ص١٧ و ٥٩ و صحيح مسلم، ج٢، ص٢٣٨.

و يفهم من ضوء ما سبق ذكره، أن منابت الاختلاف و الانشقاق تظهر فى مسير جميع الاديان و المذاهب؛ ففى الاسلام حين توفى الرسول، اجتمعت جماعة من المسلمين –قبل الانتهاء من دفنه– و غرسوا أولى شجيرات الاختلاف المليئة بالاشواک، فى جُنينة الاسلام المونِقة الغَنّاء، و فرضوا على المسلمين قيادة رجلٍ آخر غير الذى أوصى به رسولُ اللّه. و قد ترک هذا الاختلاف و الانشقاق أثره و إفرازاته فى المجالات الثلاثة للدين؛ فى مجال العقائد و الافكار، و فى القوانين و الاحكام، و حتى فى النظام القيّمى و الاخلاقى.

«**وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّه فَإِنَّ اللّه سَرِيعُ الْحِسَابِ**». آل‌عمران، ١٩.

الطبيعة البشرية للانبياء!

الخطوة الاولى هى أن نعتبر الانبياء بشراً، مثل غيرهم من البشر و لهم ما لهم من جسم و روح و غرائز و عواطف. كان لنبيّنا ولدٌ أسمه إبراهيم، و كان بطبيعة الحال يحبّه كثيراً. فمات فى صغره. فوضعه النبىّ فى حجره وبكى عليه. و ظنّ البعض أنّ هذا البكاء و هذه اللوعة لا يتناسبان مع مقام النبوّة. و اظهروا ذلک الرأى للنبىّ، فقال لهم: «**تَدمع العين و يحزن القلب و لا نقول ما يُسخِط الربّ، و إنّا بک يا إبراهيم لمحزونون**». الكافى، ج٣، ص٢٦٢.

كلام النبىّ هذا كلامٌ جميل، وفيه تنبيه للمعترضين إلى أنّ النبىّ كبقية الناس له قلبٌ رؤوف و عطوف و يرقّ لموت ولده و يحترق ألماً، و أن عينه تدمع، و لكنّه يضع كل عواطفه و مشاعره الانسانية فى إطار دينه و معتقده؛ فهو يبكى و يئن و لكنه لا يقول ما يُغضب الربّ.

إذاً، الانبياء ليسوا كائنات ملكوتيّة تفوق البشر، بل هم أُناسٌ أتقياء، وَرِعون، صالحون، شجعان، مدبّرون، يتصفون برجاحة العقل و يتميّزون بالاهلية للارتباط بربّهم، و هم موضع ثقته و رضاه.

«**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ**». الكهف، ١١٠.

و فضلاً عما أسلفنا القول فيه من الصفات والخصائص، يعتقد الشيعة أيضاً أنَّ الانبياء منزّهون عن القبائح و الرذائل الجسمية و الروحية، نذكر مثلاً أنّه ما مِن نبیّ فيه عاهة جسدية ولادية، و أنّ الباری تعالی لایبعث نبیاً أعمیً أو أعرجاً. و لا یصطفی لمقام النبوّة رجلاً مصاباً بمرض مزمن أو مرض یثیر النفور، أو فیه رذیلة خُلقیة کالاضطراب النفسی أو الحسد أو البخل أو ما شابه ذلک. و لکن ما سبب هذا؟!

سببه واضح، فهل ترتضی أنت لنفسک أن تبعث إلی الناس مندوباً عنک فیه صفة جسمیة أو نفسیة تثیر الاشمئزاز و النفور؟! النبیّ مبعوث اللّه، انتدبه لکی یُبلّغ کلامه إلی الناس و یدعوهم إلی الدین الحق، و یکون بیده زمام قیادة المؤمنین. و من الطبیعی أنَّ مَنْ فیه عاهة لا یستطیع النهوض بمثل هذه المسؤولیة الکبری. کما ینبغی أن یکون النبیّ مولوداً من أبوین طاهرین، بل و من سلالةٍ طاهرة و صالحة، و أن لایکون فی أجداده من الاباء و الامهات مشرکٌ أو عابدُ صنم أو عاهراً. و الصفة الاخری التی یجب أن یتصف بها النبیّ حسب ما نعتقده نحن الشیعة، هی أنّ الانبیاء معصومون من الذنب و الخطأ و السهو. و هذه خاصیّة یتفرّد بها المذهب الشیعی و لا توافقه فیها الفرق و المذاهب الاخری بالکامل.

هل الانبیاء معصومون؟!

هل رأیت حتی الان عن قرب عقرباً کبیراً أسوداً أو رُتیلاء کذلک؟! و هل خطر فی بالک أن تمسکه بیدک؟! أو تلمس مباشرة و عن وعی سلک کهرباء ذیضغط عالٍ؟! کلّا طبعاً، فأنت أسمی من ارتکاب مثل هذه الاخطاء. نعم قد یرتکب طفل صغیر مثل هذا الخطأ، و لکن لایمکن أن یصدر منک أنت، بل إنّ مثل هذا العمل لا یمکن أن یخطر علی بالک أبداً. فأنت معصوم من مثل هذا الخطأ.

العصمة هی أن تترک فعل خطأ عن وعی و معرفة و اختیار، و لا تحاول فعله أبداً. و لکن عندما یدخل مفهوم العصمة إلی دائرة الدین ومعارفه، یکون له انطباع آخر. فأنت لا ترتکب خطأً و لا توقع نفسک فی بعض المعاصی والاثام انطلاقاً مما لدیک من وعی دینی. نذکر علی سبیل المثال أن أی مسلمٍ لایخطر علی باله أن یزنی بأمّه. فمعتقداته و فطرته الانسانیّة قد حجبته و أبعدته عن هذا الذنب، أی أنه معصومٌ من هذا الذنب. و لو أن هذا المسلم ربأ بنفسه عن الوقوع فی دَنس آثام أخری فلم یتدنّس ثوبه

بها، فإنَّ اللّه يأخذ بيده، و تتكون لديه بعون اللّه عصمة تحول دون وقوعه فى معاصٍ أخرى، و يكون مثله فى ذلک كمثل من يواظب على نظام غذائى منتظم، و يمارس الرياضة المفيدة. فمن الطبيعى أن يكون سالم البدن، و تتكون لديه مقاومة ضد الامراض. و مثل هذه الحالة تجعل المؤمن صلباً و مقاوماً حتّى فى الظروف المليئة بالاثام والمعاصى، و لديه مقدرة على كبح جماح نفسه و عدم السماح لها بالطغيان عليه.

و يتّضح من خلال ما سبق قوله أنّ للعصمة درجات؛ بعض هذه الدرجات كلّنا نتحلّى بها. و هذا يعنى أننا معصومون من طائفة من الذنوب. و كلّما ارتقى مستوى الايمان و الثقة باللّه و بوعده، يجد المؤمن نفسه على يقين أقوى بأحكام اللّه و تعاليمه. فهو يعتبر مخالفة أوامر اللّه كلمس سلک الكهرباء أو شرب كأس السُم، و لا يعود عليه إلاّ بالفناء. و هذا يعنى أنّه معصومٌ من كل ذنب حتى و ان كان كذبة أو نظرة ذات ريبة؛ لانّه على درجة من الوعى والبصيرة بحيث لا يستهين بذنب، على اعتبار أن الذنب مهما صَغُر فهو تمرّد على أوامر اللّه، و هو تعالى عظيمٌ فى عينيه بحيث لا يستطيع مخالفة أوامره.

و نعتقد أنّ الانبياء معصومون، و لكن معصومون من أى شىء؟! و إلى أى حدٍّ؟! هناک ثلاثة مديات يمكن أن توضع نصب العين لعصمة الانبياء:

المدى الاول: العصمة فى إبلاغ الرسالة؛ فالنبىّ لايكذب على اللّه، و لايتلاعب بما ينزل عليه من الوحى، و لايبدّل شيئاً من كلام اللّه وفقاً لمشتهياته و رغباته. و لاينسى شيئاً من الرسالة. و هذا النوع من العصمة على درجة وثيقة بأصل النبوّة؛ و ذلک لان النبىّ إذا كان معرّضاً للخطأ والنسيان فى شؤون الرسالة، لايمكن الوثوق بأقواله طبعاً. بل لايتناسب مع حكمة اللّه أن يبعث نبياً كذاباً أو كثير النسيان. و هذا المدى من العصمة تتفق عليه جميع الفرق الاسلامية.

المدى الثانى، العصمة من الذنب. فهل الانبياء يقعون فى الذنب والمعصية؟! الذنوب، منها الصغائر و منها الكبائر. و الانبياء عاشوا شطراً من حياتهم قبل البعثة و عاشوا شطراً آخر بعدها. و فى ضوء هذا التقسيم قال جماعة: إنّ الانبياء معصومون من الكبائر و لكنّهم غيرمعصومين من الصغائر. أو أنّهم ربّما كانوا قد ارتكبوا ذنوباً قبل البعثة، و لكنّهم بعد البعثة عُصِموا من ارتكاب الذنوب.

أما بالنسبة إلى الشيعة فإنّهم يذهبون إلى القول بانّ الانبياء لايرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، لا قبل البعثة و لا بعدها. و إنّهم على أعلى درجات الايمان و التقوى و الورع بحيث أنّهم لا يدنّسون أنفسهم بالذنوب و لا مرّة واحدة، و إلّا فهم غير جديرين بتلقّى الرسالة الالهيّة و إبلاغها إلى الناس و قيادة المسلمين.

و كيف يجعل اللّه بينه و بين الخلق وسيطاً يعصيه و يرتكب الذنوب والاثام؟! إذاً فالدليل الاول على عصمة الانبياء: هو إنّ اقتراف الذنوب والاثام حتى و إن صغرت و إن كان ذلک قبل البعثة، فهو يتعارض مع مقام النبوّة.

و الامر الثانى: هو هل هناک أمّةٌ تصغى لكلام نبىٍّ يرتكب الاثام و المعاصى. إنْ كان أبناء الامّة يرون نبيّهم يرتكب الذنوب فهم لايصغون إليه و لا يثقون به أبداً. و لابد أنّهم سيقولون: إن كان صادقاً، و إن كان هناک ربٌّ و دينٌ و شريعة، فلماذا لايلتزم بها هو؟ و حتى لو كان الناس لايرون تلک المعاصى و الذنوب بأعينهم فإنّ موعظة مثل هذا النبىّ لاتأخذ بلباب القلوب. ألايقول عزّ من قائل:

«**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَ أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**». البقرة، ۴۴.

يذمّ اللّه من يأمرون الاخرين بفعل الخير و هم لا يفعلون الخير. فكيف يمكن أن يكون أنبياؤه مِن هؤلاء الذين يذمّهم اللّه تعالى؟ و لابد من القول صراحةً، إنّ المذنب فاسقٌ؛ لانّه تعدّى حدود اللّه. و القرآن يأمرنا بعدم قبول خبر الفاسق من غير تفحّصٍ و تدقيق.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**». الحجرات، ۶.

فاللّه تعالى لايُرسل رسولاً لايُقبل اِخباره و لايُعتمد على كلامه!

الامر الثالث: ان النبىّ رمز، و أسوة، و مثال، و تجسيدٌ للدين و الشريعة. و قوله، و فعله، و حتّى سكوته حجّة ودليل لدى أتباعه. و هذا ما ندركه نحن أيضاً. فلو أننا تناولنا أمام طبيب متخصص و حريص، طعاماً و لم ينهنا عنه، فسوف تتكون لدينا قناعة بأنّ ذلک الطعام لا ضرر فيه؛ لانّه لو كان مضرّاً لنهانا الطبيب عنه و حذّرنا منه. إذاً فكلام و فعل و صمت النبىّ، موضع اهتمامٍ من الناس. و إذا كان النبىّ

يعصى ربّه و يرتكب الذنوب، فماذا يفعل أتباعه؟! ايتّعبون ما يقوله حين يقول لهم: هذا حرامٌ، و لايجوز، و قبيح؟! أم يقتدون بفعله الذى يقول لهم فيه: إفعلوا، و لا بأس، ولا ضير؟!

الامر الرابع: النبوّة ميثاق مع اللّه استناداً إلى نصّ الآية الشريفة: «**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُم ميثَاقًا غَلِيظاً**». الاحزاب، ٧.

و من المعروف أنّ عهد اللّه لا يناله الظالمون حيث قال تعالى: «**لاَيَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**». البقرة، ١٢٤.

و كلّ من يتجاهل حدود اللّه ويتعدّاها فهو عاصٍ و ظالم. إذاً فالعاصى و المذنب لا ينال عهد اللّه و ميثاقه.

الامر الخامس: إذا كان النبىّ يُذنب و يقترف الخطايا و الاثام، فلابدّ أنّه يحتاج إلى هادٍ و مرشدٍ. و إن كان الامر كذلک، هل ينبغى أن يكون ذلک المرشد معصوما أم لا؟! او ءن كان المرشد معصوماً فهو أولى بالنبوّة من الشخص الاوّل. و إذا كان هو الاخر يذنب و يعصى ربّه، فهو أيضاً بحاجةٍ إلى مرشد آخر. و هنا نقع فى التسلسل الباطل.

و فضلاً عن هذه الادلّة الخمسة، إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجده يصف الانبياء بجميل الخصال و السجايا. يقول فى إحدى آياته: «**وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفينَ الاَخْيَارِ**». ص، ٤٧.

و يصفهم فى آية بأنّهم عباد مخلصون.

«**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**». يوسف، ٢٤.

و قد كان الانبياء أفضل أهل زمانهم.

«**إِنَّ اللّه اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ و آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**». آلعمران، ٣٣.

و الانبياء مرضيّون عند ربّهم.

«**وَ كَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً**». مريم، ٥٥.

هذه الاوصاف و الخصائص لا تتوافق مع المعصية والذنب و من المُحال أن يصفَ اللّه أنبياءه بهذه الصفات العالية فى حين أنّهم يرتكبون الذنوب و يعصون ربّهم و يخالفون أمره.

و لکن هناک فی القرآن الکریم آیات کثیرة أخری، یدلّ المعنی الظاهری للبعض منها علی معصیة الانبیاء. و من أهم الهواجس التی تواجه علم الکلام الشیعی، هو ایجاد توضیح و توجیه لهذه الطائفة من الآیات ؛ فآدم عصی ربّه و أکل من تلک الشجرة الممنوعة بعد أن نهاهُ اللّه عن الاقتراب منها، والنبی یوسف کاد أن یمیل إلی تلک المرأة لولا لطف اللّه به، و النبیّ یونس غادر نینوی و ظنَّ أن ربّه لن‌یقدر علیه، وموسی ضرب رجلاً من قوم فرعون ضربة فأراده قتیلاً، ثم أنه اعترف لاحقاً بانّ عمله هذا کان إضلالاً من الشیطان. و سلیمان فُتن و ابتلی ثم تاب. و موسی طلب من ربّه أن یراه، و النبیّ محمد کانت له ذنوب أیضاً، و الدلیل علی ذلک أن اللّه أخبره فی سورة الفتح بأنّا غفرنا لک ما تقدّم من ذنبک و ما تأخّر. بل إنّ کلاً من الانبیاء کان یعتریهم الیأس فی الشدائد و فی المواقف العصیبة، و کانوا یظنون أنّهم قد کُذبوا. نلاحظ الآیات التالیة:

«فَأَکَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا یخْصِفَانِ عَلَیْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّة وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَی».طه،۱۲۱.

«وَ دَخَلَ الْمَدِینَةَ عَلَی حِینِ غَفْلَة منْ أَهْلِهَا فوَجَدَ فیهَا رَجُلَیْنِ یَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِیعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فاسْتَغَاثَهُ الَّذِی مِن شِیعَتِهِ عَلَی الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ فَوَکَزَهُ مُوسَی فقَضَی عَلَیْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشیْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِینٌ». القصص، ۱۵.

«وَ لَما جَاءَ مُوسَی لِمِیقَاتِنَا وَکَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِی أَنظُرْ إِلَیْکَ قَالَ لَن تَرَانِی یا موسی». الاعراف، ۱۴۳.

«وَ ذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لن تَّقْدِرَ عَلَیْهِ فَنَادَی فی الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلهَ إِلّا أَنتَ سُبْحَانَکَ إِنِّی کُنتُ مِنَ الظَّالِمِینَ». الانبیاء، ۸۷.

«وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رأَی بُرْهَانَ رَبِّهِ کَذَلِکَ لِنَصرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ». یوسف، ۲۴.

«إِنَّا فَتَحْنَا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً * لِیَغْفِرَ لَکَ اللّه مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِکَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِرَاطاً مُسْتَقِیماً». الفتح، ۲-۱.

«حَتَّی إِذَا اسْتَیْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ کُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّیَ مَن نَشَاءُ». یوسف، ۱۱۰.

و مما يُذكر هنا إنّ الخليفة العباسى المأمون طرح كلّ هذه الاشكالات على الامام الرضا عليه‌السلام فى مجلس مناظرة، فأجاب الامام عنها كلّها و دافع عن عقيدة عصمة الانبياء. بحار الانوار، ج ١١، ص ٧٨.

فى ما يخصّ قصّة آدم ينبغى الالتفات إلى ثلاث ملاحظات و هى:

أوّلاً: ربّما لم يكن الاكل من تلك الشجرة محرّماً، و إنّما كان يؤدّى إلى طرد آدم من الجنّة، و هو ما ينبغى بالنتيجة تحمّل مشقة و متاعب الحياة فى هذه الدنيا. نظير ما جاء فى الروايات من النهى عن شرب الماء من قيام بالليل لانّه يسبب ألماً فى البطن. فهذا الحديث لا يعنى طبعاً حرمة شرب الماء من قيامٍ و أنّ هذا العمل يُبعد الانسان عن ربِّه، بل يؤدّى إلى حصول ألم فقط. و كذا بالنسبة إلى الاكل من تلك الشجرة فترك الاكل منها اولى من الاكل!

الثانى: أن الشيطان أقسم لآدم و حواء بأن الاكل من تلك الشجرة لا ضَيْر فيه، بل إذا أكلا منها سيكونان خالدين. و ما كان آدم و زوجه يظنّان أنّ أحداً يحلف باللّه كذباً. و هذا يعنى أنّ عملهما لم يكن من باب العناد و المعصية، و لكن أكلا منها ثقةً منهما بقسم الشيطان الذى كان يُحسب من الملائكة قبل أن يعصى اللّه. (لاحظ الاعراف، ٢٢).

الثالث: هذه الحادثة لم تقع على الارض و لا فى هذا العالم. فى حين أن آدم كان نبيّاً فى هذا العالم!

و اما بالنسبة إلى ما جاء بشأن النبىّ يونس، ففى الآية «فظَنَّ أن لن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ» كلمة «نَقدِر» هنا ليست بمعنى الاستطاعة و القدرة، بل معناها: «نُضيِّقُ» نظير الآية التالية.

«وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ». الفجر، ١٦.

و فكان يونس يظنّ أن اللّه لن يشدّد عليه، لا أن اللّه لا طَوْل له عليه.

اما بالنسبة إلى فتنة النبىّ سليمان و توبته، فلابد من الاشارة إلى أن الفتنة و الابتلاء تشمل كلّ العباد. و الاولياء و الانبياء يلقون فتنة و بلاءاً أشدّ من غيرهم، ثمّ إنّ التوبة و الانابة غير مرتبطة بالذنب و المعصية. و حتى غير العاصى يجب أن يذكر ربّه بين الفينة و الاخرى و يئوب إليه طلباً للمغفرة و الرحمة. وكان نبيّنا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يستغفر ربّه فى كل يوم أربعين مرّة أو سبعين.

وعند ما يصل الكلام إلى موسى نقول إنّ موسى نشأ و ترعرع فى بيت فرعون؛ ولكنّه كان موحّداً و من بنىإسرائيل. و دخل إلى المدينة ذات يوم قبيل الغروب، فرأى رجلين يتشاجران أحدهما من قوم فرعون والاخر من بنى إسرائيل، فضرب موسى الرجل الذى من قوم فرعون و قتله. و هذا العمل ليس فيه حرام طبعاً. و إنما حصل صراع بين عابد صنم وموحِّد؛ فضربه موسى فى موقف دفاعى. نعم لقد كان هذا العمل متسرّعاً و غير مناسب إزاء ما عليه من مسؤولية كبرى. و لم يكن من الصواب أن يبدأ موسى مهمّته الرسالية بقتل عدوٍ، بل ينبغى أن يبدأ الانبياء رسالتهم بالرأفة و العطف و المحبّة. لذلك نسب موسى هذا الموقف المتطرّف إلى الشيطان، واصفاً إياه بالضلال.

و لكن لماذا أراد النبىّ موسى رؤية اللّه؟! ألم يكن يعلم أن اللّه لا يُرى؟! و جواب هذا السؤال سبق أن شرحناه فى فصل التوحيد، و نعيد تكراره هنا، و هو أن هذا الطلب جاء بسبب شدّة إصرار بنىإسرائيل الذين كانوا يريدون رؤية ربّهم عياناً. فاختار موسى أربعين رجلاً من بنىإسرائيل و أخذهم إلى الجبل ليروا جلال اللّه و جبروته متجليّاً، فاهتزّ الجبل و مات أولئک الرجال من الدهشة.

أما بالنسبة إلى نبيّنا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فقد كان عبدة الاوثان فى الحجاز يقدّسون تلک الاوثان، بل يعتبرونها واسطة تقرّبهم إلى اللّه. و عندما فتح النبىّ مكّة حطّم كل الاصنام، و طهّر البيت من رجس الشرک. فاعتبر عبدة الاوثان هذا العمل من أعظم الذنوب. و هنا نزلت سورة الفتح، فى الآيات الاولى من هذه السورة يقول اللّه عزّ و جلّ بأسلوب تهكّمى: إنْ كنتم أنتم عبدة الاوثان تعتبرون تحطيم الاوثان ذنباً اقترفه النبىّ، فإننا قد غفرنا له مثل هذا الذنب فى ما مضى من حياته و فى ما سيأتى منها.

تبقى لدينا الآية الاخيرة التى تقول: إنّ الرسل يئِسوا وظنّوا أنّهم كُذِّبوا، فجاءهم نصرنا. الانبياء يئِسوا! من أىّ شىءٍ؟! هل يئسوا من اللّه؟! كلا طبعاً، و إنما بعد تلک السنوات المتمادية من الدعوة، يئسوا من هداية قومهم. أنظروا إلى تعبير النبىّ نوح عليه‌السلام: «**وَ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّکَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلا يَلِدُوا إِلّا فَاجِراً كَفَّاراً**». نوح، ٢٧-٢٦.

و ظنّوا أنّهم كُذِبوا. فهل يعنى هذا أن الانبياء شكّوا فى الوحى؟! أم شكّوا فى صحة كلام اللّه؟! كلا، الامر ليس كذلک. و كلمة «كذبوا» قُرئت هنا على نحوين: بالتشديد، و من غير تشديد. فإذا قرأناها بالتشديد

«كُذّبوا» يكون معناها أن الانبياء ظنّوا بأن الناس قد كَذّبوهم و لا يقبلون كلامَهم. و أما إذا قرأناها من غير تشديد «كُذِبوا» ففى هذه الحالة لا يعود ضمير الفاعل فى «ظَنّوا» إلى الانبياء و إنما يعود إلى الامم و إلى الناس، و يكون معنى الآية: «عند ما يئِس الانبياء من هداية الناس، و ظنّ الناس أن الانبياء قد كُذِب عليهم، جاءهم نصر اللّه».

قلنا: إن الانبياء معصومون فى إبلاغ رسالة اللّه، و كذلک منزّهون من أى ذنب أو معصية. فتبقى لدينا المرحلة الثالثة، و هى العصمة من الخطأ و السهو و النسيان. و الشيعة يعتقدون بأنّ الانبياء معصومون من مثل هذه الحالات بتسديد اللّه و رعايته. و أسطع دليلٍ على هذا الكلام هو لو كان هناک نبیٌّ يُخطئ و يسهو و ينسى لَما وثق به أحدٌ و لَما آمن برسالته أحدٌ. فمن يتوهم فى البيع و الشراء أو ينسى ما قاله بالامس، أو يقع فى أخطاء فى علاقاته العائلية، فهل تبقى ثمة ثقةٌ به بحيث يكون واسطة بين العباد و ربّهم، و يتلقّى الوحى، و يبلّغه للناس، و الاهمّ من ذلک أن تكون إليه قيادة الجماعة المؤمنة.

المعجزة

كلّ شىءٍ ثمين تكون احتمالات التزوير والغشّ فيه أكثر. فالنبوّة على نوعين: سيرة أنبياء اللّه الذين بعثهم و أيّدهم بنصره، و الاخرى سيرة الادعياء الكذّابين الذين خدعوا الناس لعدّة أيام، و كَسَبوا عن هذا الطريق أموالاً و امتيازات، و تربّعوا على كرسى الرئاسة مدّة من الزمن. فما هى العلاقة الفارقة التى يمكن من خلالها التمييز بين النبىّ و مدّعى النبوّة؟!

أولى و أهمّ العلائم، محتوى الرسالة التى جاء بها هذا و ذاک. فالنبىّ يدعو إلى اللّه، و إلى الحق، و إلى النور، و إلى الجمال و الفطرة، و إلى الاستقامة و الطهارة و الصلاح. الانبياء يتحملون الاذى و المشقّة سنوات طويلة، ثمّ فى ختام المطاف يقولون: «**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**». الشعراء، ١٢٧.

أما أدعياء النبوّة فالامر المهم بالنسبة إليهم هو مصلحتهم و الطريقة الكفيلة بتحقيق مآربهم. فإن كانت أمورهم رهناً بالخير و الصلاح و العدالة، دعوا اليها.

و لكن إذا رأوا أن الحيلة و الخداع أجدى، تمسّكوا بها. و لكن كثيراً من الناس قد لا يستطيعون فى الوهلة الاولى التمييز بين الخالص و المغشوش. و خاصة أولئک الذين ينظرون إلى ظواهر الامور. هؤلاء لا يعلمون أهذا صادقٌ أم ذاک، فيحتاجون فى ذلک إلى علامة صريحة و ملموسة، مما يُرى و يُلمس. و هذه العلائم قد لا تكون لها أية صلة بمحتوى الرسالة الالهية، بل فائدتها الوحيدة أنّ الناس يعجزون عن الاتيان بها، و الوحيد القادر عليها هو من تكون له صلة باللّه تعالى.

و بسبب ذلک جاءت معجزات الانبياء بمستوى تفكير الناس فى زمنهم. ففى زمان النبىّ موسى عليه‌السلام كان الناس مولعين بالسحر و الشعبذة (خفة حركة اليد)، فجاءهم موسى بمعجزة من سنخ ما يستهويهم. كان يضع يده فى جيبه فتخرج وضّاءة يسطع منها نور. و كان يلقى عصاه الخشبية على الارض فتتحوّل إلى أفعى تبتلع الحيّات الملوّنة لاولئک السَحَرة. و كانت عصاه تشقّ البحر. و كان معه حجرٌ يجرى منه اثنا عشر ينبوعاً دافقاً. أما فى زمان عيسى فكان اهتمام الناس منصَبّاً على الطبّ. فكان عيسى يشفى الاعمى ويحيى الموتى. و فى زمان نبيّنا كان العرب مولعون بالفصاحة و جمال البيان. فجاءهم بكتاب وجدوا أنفسهم فى حيرة منه و تعجزهم الحيل عن مقابلته أو مجاراته.

و لكن على كلّ الاحوال تبقى أولى العلائم الدالّة على صدق الانبياء ليست معجزاتهم و إنّما محتوى الرسالة و ما فيها من جوانب تربويّة، و ما تدعو إليه من الخير و الصلاح و سعادة الناس دنيويةً و أُخروية.

الخاتمية

وردت فى القرآن الكريم أسماء أكثر من عشرين نبيّاً. و قال تعالى أيضاً فى كتابه الكريم أن هناک أنبياء آخرون لم أورد قصصهم. و فى ضوء الرؤية العقلية لا يوجد أى مانع من استمرار النبوّات، و أن يكون هناک سبعة أو عشرة أنبياء عالميون بدلاً من الانبياء أولى العزم الخمسة. و لكن عندما بُعث النبىّ و جاء

بالقرآن الکریم من عند اللّه، صرّح القرآن بأن رسول الاسلام هو خاتم الرسل و أنّ الاسلام هو آخر الادیان: «**ما کَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِکُمْ وَ لکِن رَسُولَ اللّه وَ خَاتَمَ النَّبِیِّینَ**». الاحزاب، ۴۰.

و کلّ الفرق الاسلامیة تروی هذا الحدیث عن رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله : «**عَلیٌ منّی بمنزلة هارونَ من موسی الّا أنَّه لا نبیَّ بعدی**». (بحار الانوار، ج۳۲، ص۳۱؛ الصحیح للبخاری، ج۲، ص۱۸۵).

و لکن لماذا یجب أن یکون الاسلام آخر الشرائع، و نبیّه یکون خاتم الانبیاء؟! قالوا فی جواب ذلک: لانّ الاسلام أکمل الادیان، و لا نقص و لا خلل فیه، لکی یبعث اللّه نبیّاً آخر لاِزالة ذلک الخلل و لسدّ ذلک النقص. و لکن یتبادر إلی الذهن دلیل أوضح علی خاتمیة الدین الاسلامی.

لماذا کان اللّه یبعث الانبیاء واحداً تلو الاخر؟! لانّ الناس کانوا یکذّبونهم و یخرجونهم من بلادهم، و یقتلونهم، و یحرّفون کتبهم السماویة. فکان الدین الالهی یفقد قیمته تدریجیاً و یصبح ألعوبة بأیدی الزعماء الدینیین و یخضع لاهوائهم و نزواتهم. و لکن لکی تکتمل الحجّة و لا یغلق طریق الهدایة أمام البشر کان اللّه یبعث نبیّاً آخر. و لکن کما قلنا سابقاً یختلف الدین الاسلامی عن بقیة الادیان بفارقین رئیسیین:

الاوّل: کتابه السماوی و هو القرآن لم یُبدّل و لم‌یُحرّف؛ فمازال اللّه یکلّم المسلمین، وما فتیء الوحی مجلجلاً فی کلّ مکان.

الثانی: مع أنّ نبیّ الاسلام قد توفی فی الثامن والعشرین من صفر فی السنة الحادیة عشر للهجرة، غیر أن علاقة السماء بالارض لم تنقطع بوفاته، و إنّما تبدّلت فقط من حالة النبوّة والوحی، إلی حالة الامامة و التأیید و التسدید و الالهام. إذاً فبوجود القرآن و الامام المعصوم، اللذین ینبغی أن یبقیا إلی یوم القیامة، لیست هناک أیة حاجة لنبیٍّ جدید و لا شریعةٍ جدیدة. فهذا الکتاب الذی یمثّل فی الواقع دستور الحیاة، حُفظِ بلطف اللّه وبفضل وعی المسلمین من التحریف. کما أنّ الواسطة بین الخلق والخالق بقیت ماثلة فی ثوب الامامة.

سؤالٌ آخر

هل فقدت الاديان السماوية الاخرى و خاصّة شريعة موسى و دين المسيح اعتبارها بظهور الاسلام؟! و ما هى طبيعة العلاقة بين الاسلام و تلك الاديان السابقة؟!

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّه الاِسْلاَمُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ». آلعمران، ١٩.

الدين الاسلامى هو دين نوح وإبراهيم و موسى و عيسى عليهمالسلام . و لذلک نلاحظ عدم وجود خلاف كثيرٍ فى النظام الاخلاقى الذى جاءت به هذه الاديان. لاحِظوا مواعظ المسيح فى الانجيل و أحاديث نبىّ الاسلام، و انظروا أحكام التوراة و أحكام القرآن، تجدونها ذات جوهر واحد. فالصلاة نفسها، والصوم هو الصوم، و كذلک أحكام الزواج، و الحرمات و الطهارات و النجاسات، و غيرها. فالدين واحد: الخضوع لأوامر اللّه. و أوامر اللّه منبثقة من حكمته. و لكن بما أن الناس فى عصر النبىّ موسى عليهالسلام ، و فى زمان المسيح عليهالسلام ، و فى زمان النبىّ محمد صلىاللهعليهوآله قد اختلفت أحوالهم لذلک فقد تبدّل أسلوب البيان، و نمط التعبير، و صورة الاحكام. و لكن القضية المهمّة هى قضية التبديل و التحريف. فقد كانت شريعة موسى شجرة مونقة ذات ثمر جنى، و لكن أُصيبت على مرّ السنين بآفةٍ نخرتها من الداخل و شوّهتْ صورتها الظاهرية. فدين موسى حقٌّ، و لكن ما بقى منه فى أيدى الاحبار ليس فيه شىءٌ من مقوّمات النجاة و الفلاح، بل يؤدّى بمن يتمسّک به إلى الضلال.

المسيح كلمة اللّه، و كلامه كلام اللّه، و لكن ما نسجه القساوسة وا لبابوات و وضعوه بين أيدى الناس لا يمتّ إلى دين المسيح بصلة. و على هذا الاساس فإنّ الذى يسقط من الاعتبار ليس دين موسى و المسيح، و إنّما اليهودية والمسيحية السائدتان فى عالم اليوم لا يمكن الوثوق بهما. و لكن لو ظهر حجّة اللّه، و جاء الامام المعصوم، و جاء بالتوراة والانجيل، عند ذاک تنبعث الحياة فى دين المسيح و فى شريعة موسى، و يمكن عندها العثور على حكم اللّه فيهما.

الاسراء و المعراج

«سُبْحَانَ الَّذِی أَسْرَی بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الاَقْصَی الَّذِی بَارَکْنَا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ البَصِیرُ». اسراء، ۱.

الاسراء و المعراج من أعظم معجزات نبیّ الاسلام، هذا مِن جهة، و من جهة أخری تتجلی فیه الکثیر من تعالیم دیننا.

کان النبیّ فی المسجد الحرام أو کان نائماً فی دار بنت عمّه أم هانیء، أخت الامام علی علیه‌السلام . و فی تلک الاثناء جاءه ملک الوحی داعیاً إیّاه إلی النهوض لمشاهدة عالم آخر غیر هذا العالم. و عرج به ابتداءً إلی المدینة مُبیّناً له أن هذه مدینتک، و موضع صلاتک و مرقدک. ثم عرج به من بعد ذلک إلی بیت المقدس تذکار أنبیاء بنی‌إسرائیل. ثم أسری به إلی السموات. و لیس المراد طبعاً هذه السماء التی فیها کوکب المرّیخ و الزهرة و المشتری، و هذه المجرّة و ذلک السحاب، و إنّما إلی عالَم أبعد و أعلی. إلی عالم یتکلّم فیه الانسان مع الملائکة، و یجالس أهل الجنّة.

فی هذه المرحلة شاهد النبیّ حقائق کثیرة، حتی بلغ منزلة لم یستطع حتی جبرائیل أن یواکبه فیها قائلاً لو أنّنی تقدّمتُ خطوة لاحترق جناحی! و لکن النبیّ مضی قُدُماً إلی أن وقف بین یدی اللّه و کلّمه، و رأی ما رأی. و لم‌تُخطیء العین ما رأت و لم‌یکذّبه الفؤاد.

استنتاجٌ

انّ اللّه خالق حكيم و وهّاب. و هذا يعنى أنه يهدى مخلوقاته نحو الكمال و العُلى، و لايتركها تتخبط فى غياهب الضلال والحيرة. و بحر جوده لا يهدأ و لا يسكن فى مقابل حاجات المخلوقين. فبعَثَ الرسل و الانبياء تترى لهداية الناس. و كان لخمسة منهم شرائع و أديان. و لكن هذه الاديان طالتْها على مرّ الزمن يدُ التحريف، و سوء الفهم، و الاستغلال. فبُدِّلتْ وشَطَّتْ عن المسار الاوّل الذى أُريد لها.

فى هذا المضمار، يتميّز الاسلام عن سائر الاديان بميزتين، الاولى: إنّ كتابه السماوى و هو القرآن حُفِظ من طوارق الحدثين و بقى مصوناً من التحريف. و الثانية: إنّ العلاقة بين الخلق و الخالق لم تنقطع – استناداً إلى ما يذهب إليه المذهب الشيعى – بعد وفاة النبىّ، و إنّما بقيت ممتدة عن طريق الائمة المعصومين. و الانبياء و الائمة لايعتريهم نقصٌ و لا عاهةٌ بدنية و لا اضطراب سلوكى، و لا رذيلة أخلاقية، و لا خطل فى فِعل. و الشيعة يسيرون على خُطا ما سار عليه أئمتهم فى تنزيه الانبياء و الاعتقاد بعصمتهم من الذنب و الخطأ و النسيان سواء قبل بعثتهم أم بَعدها. و قد سُقنا أدلة عقليّة وقرآنيّة لتعضيد هذه العقيدة، و أزحنا الغبار عن معنى بعض الآيات التى يوحى ظاهرها بأن الانبياء يقترفون الذنوب و يُخطئون.

لقد جاء كلّ نبىّ بمعجزةٍ ليُصدّقه الناس. و استناداً إلى صريح القرآن الكريم أن نبىّ الاسلام خاتم الانبياء؛ إذ بوجود الائمة المعصومين وارتباطهم باللّه، و فى ظل بقاء القرآن محفوظاً من التحريف، و لا حاجة لبعثة نبىٍّ آخر و لا لشريعةٍ جديدة.

الفصل الرابع

«اَلاِمامَة»

استشرافٌ

هل نصّ القرآن على فردٍ بعينه كخليفة لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ؟!

و ما هى الخصائص التى يجب أن يتّصف بها الامام و الولىّ و الخليفة و الوصىّ؟

و من هو وصىّ النبىّ و خليفته؟

و هل عيَّن القرآن الكريم إماماً للامّة الاسلاميّة؟!

و كيف كان أصحاب الرسول، و ما هى صفاتهم؟

و ما كان تأثيرهم فى صياغة تاريخ الاسلام؟!

و ما هى خصائص و صفات الامام الغائب؟

و إذا كان هو خافياً عن الابصار، فكيف يضطلع بدوره فى القيادة و الهداية؟

تمهيدٌ

كان الشيخ واقفاً عند قاعدة الجبل، و رأسه إلى عنان السماء و عيناه متسمّرتان فى الافق. و كان يناجى حبيبه الرؤوف بهذه الكلمات: ربّى أنت خلقتَنى و ربيّتَنى، كنتُ جائعاً فأطعمتَنى، و كنتُ عطشاناً فسقيتَنى، و كنتُ عُرياناً فكسوتَنى، و كنتُ ضالاً فهديتَنى، و كنتُ غافلاً فنبَّهتَنى، و كنتُ مُنْشَدّاً إلى الارض فأوصلتَنى بالسماء، و اصطفيتَنى، فما عسى إبراهيم أن يقول و كلُّ ما لديه منک. فأنا كُلّى فقر و حاجة، و أنت كمالٌ و غنىً. إلهى عبدک جاوز سنّ الشباب، و ها قد دنا أجلُه، و ليس لديه ولدٌ يعبدُک و يعلِّمَ الناسَ منهج حبّک. إلهى لا تَذرنى فرداً و ارزقنى ولداً يرثنى... .

كان الشابّ يقف مدهوشاً. كان يحترق و لكن لا فى النار، بل فى النور! يتناهى إليه وميضٌ و بريقٌ، و أصوات من كلّ مكان: أنا ربُّک يا موسى. كلَّم موسى ربّه و سمع كلام ربّه. فبُعث ليدعو فرعونَ مصر الذى كان متربّعاً على عرش أعظم قوّة فى ذلک العصر، إلى عبادة اللّه الواحد الاحد. و لكن يا ربّاه موسى وحده، يريد معيناً و ناصراً و خليفة. اللهمّ اجعل أخى هارون وزيراً و عضيداً لى و اشدُد به أزرى.

كان زكريا واقفاً بين يدى ربّه، فى بيت المقدس. يا ربّ إنَّ بنيإسرائيل زاغوا عن سواء السبيل، و استفحل فيهم الانحراف. و نجم الهداية طمستْه غيومُ الضَلال. إلهى فاجعل لى خليفةً، ولداً يكون هو امتداداً لى.

ثمّ كان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ، آخر نبىٍّ، و شريعته آخر شريعةٍ و آخر رسالة. و لكن هل رفعَ يديه بالدعاء؟! و هل عيَّن وصياً و خليفةً لنفسه من بعده؟! هل عيَّن كما فعل موسى أحداً خليفةً له نظير هارون.[1]

---

[1] نقل سعد بن‌ابيوقّاص، و أبوسعيد الخدرى، و أمّ‌سلمة، و جابر بن عبداللّه الانصارى، عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال لعلى عليه‌السلام : «أنت مِنى بمنزلة هارونَ من موسى». مسند أحمد، الحديث ١٥١٧؛ سنن الترمذى، الحديث ٣٨٨٥و٣٨٨٦؛ صحيح البخارى، الحديث ٣٢٢٤؛ صحيح مسلم، الحديث ٦١٧٠؛ صحيح ابن حيان، الحديث ٦٨١٢.

ما الامامة؟ و مَن الامام؟!

نريد هنا التنقيب فى جذور أهم الاختلافات و أعمقها بين صفوف الأُمّة الاسلامية. و هو انّه على عاتق مَن تقع قيادة الامّة الاسلامية من بعد النبى؟! و هل كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قد اختار خليفة لنفسه؟ أم لبّى دعوة ربّه من غير أن يعيّن للامّة من بعده خليفة، و ترک مهمّة اختيار القائد من بعده، للمسلمين أنفسهم؟! و هل التزم القرآن موقف الصمت إزاء خلافة النبىّ؟!

و قبل الدخول فى بحث هذه المسائل نود طرح سؤال ذى مدى أعمق و هو:

لو فرضنا أن القرآن قد عيّن للمسلمين خليفةً أو ولياً و إماماً، أو كان النبىّ قد نصب لهذا المقام احداً، هل يجب على المسلمين الطاعة، و اتخاذه إماماً، أم يمكنهم تقديم شخص آخر و اتّباعه؟!

نحن مُسلِمون، ومُسلِّمون لامر اللّه تعالى. و حين نرجع إلى القرآن نجده يدعو المسلمين إلى طاعة اللّه و الرسول:

«**وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّه وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَن يَعْصِ اللّه وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً**». الاحزاب، ٣۶.

«**فَلا وَ رَبِّکَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوکَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**». الانبياء، ۶۵.

يُستفاد من هذه الآية أنّ روح الايمان هى الثقة و الاعتماد و اتباع الرسول، بل المؤمن من يستقبل أمر اللّه برضا خاطر و ليس متحرّجاً.

و إذا تجاوزنا هذه الطائفة من الآيات نجد فى سورة البقرة آية اخرى تبيّن أن اللّه هو الذى يختار للناس إمامهم. و هذا الامام هو النبى العظيم إبراهيم عليه‌السلام . و سأل إبراهيم ربّه: أتجعل من ذريّتى ائمةً؟! و جاءه الجواب من ربِّه: عهدى لا ينال الظالمين!

«**وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**». البقرة، ١٢۴.

فاختيار الامام و القائد بيد اللّه. و الامامة عهدٌ إلهى. و نيل هذا المقام لم يُتَح لاحدٍ حتى مثل إبراهيم إلّا بعدَ ابتلاءات و اختبارات شتّى. و انّها ليست متروكة إلى الناس، و هى غير متروكة حتى للانبياء، بل اللّه هو الذى يعيّن خلفاء لرسله. فالنبىّ موسى سأل ربّه أن يجعل أخاه هارون وزيراً و خليفة له فاستجاب له ربُّه:

«وَ اجْعَل لى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخِى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَ أَشْرِكْهُ فى أَمْرِى * كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى». طه، ۳۶-۲۹.

و القرآن يدعو المؤمنين ليسألوا ربّهم أن يجعل لهم وليّاً:

«وَ اجْعَل لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَ اجْعَل لَنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً». النساء، ۷۵.

بل إنّ سنّة اللّه قضتْ أن يعيّن اللّه أفراداً كخليفة، او امام، او ولىّ، أو أحياناً مَلِكاً على المؤمنين. و لا شكّ فى أن سنّة اللّه لا تغيير لها و لا تبديل. و أبرز علائم الايمان فى كلّ عهد و زمان اتّباع ذلك الامام أو الولىّ أو الخليفة الالهى.

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الاَرْضِ». ص، ۲۶.

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّه قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً». البقرة، ۲۴۷.

هل عيّن القرآن أحداً خليفةً لرسولنا و سيّدنا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ؟!

نعم، عيَّن القرآن خليفةً لرسول اللّه و إماماً و قائداً من بعده على الامّة، بأسلوبين:

الاول: بَيّنَ صفات و خصائص الامام و القائد الالهى. و نحن نستطيع معرفة خليفة النبىّ من خلال استقراء هذه الصفات و الخصائص.

الثانى: عن طريق العلائم و الدلالات. فالقرآن بيّن للمسلمين العلائم و المؤشّرات الدالّة على هذا الخليفة. و العلامة البارزة إذا أخذناها بناءً على التسليم، نستطيع العثور على جواب سؤالنا بكلّ سهولة.

نسلك السبيل الاوّل و نلاحظ ما هى صفات الامام و الخليفة؟! و كيف يكون منهجه و سلوكه؟!

«وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلاةِ وَ إِيتَاء الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ». الانبياء، ۷۳.

هذه الآية الشريفة تكشف عن صفتين من صفات الامام: أنّه يهدى إلى اللّه، و أمره. فلابدّ إذاً أن يكون قد هُدى نفسُه إلى الحق والصواب فيستطيع التمييز بين الحق و الباطل و الخطأ و الصواب، لكى يكون لديه القدرة على هداية الاخرين. والامام على ارتباطة باللّه، و هو تعالى يلهمِ الامام، و يُريه الحقّ و الخير و الصلاح.

و هل يمكن أن يكون أحدٌ على ارتباط مباشر باللّه غير الانبياء؟! نعم، أوحى اللّه تعالى إلى أمّ موسى أن تضع ولدها فى صفطٍ و تلقيه فى النيل.

«وَ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فى الْيَمِّ وَ لا تَخَافى وَ لا تَحْزَنِى». القصص،٧.

إذاً، فالامام على ارتباط باللّه، و هو ما يُطلق عليه بالمصطلح الاسلامى بالمحدَّث.

«وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ». السجدة، ٢٤.

فالامام هو الصبور. أى من يتحلّى بالصبر و الثبات فى امتثال احكام اللّه من جهةٍ، و فى مقابل وساوس الشيطان و تسويل النفس من جهةٍ أخرى. و كذلک فى مواجهة الشدائد و المصاعب و المصائب و النعم و الرخاء، و أن يكون ذا يقين بآيات اللّه تعالى.

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاکَ خَلِيفَةً فى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّکَ عَن سَبِيلِ اللّه». ص، ٢۶.

فالخليفة الالهى يحكم بالحقّ، و ليس هو من يعجز عن الحكم و يستعين بالآخرين. وهو طبعاً لا يحكم بما تمليه عليه أهواؤه.

«وَ إِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِنَ الاَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلَى أُوْلِىالاَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْلاَ فَضْلُ اللّه عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلّا قَلِيلاً». النساء، ٨٣.

هذه الآية تخاطب الامّة الاسلاميّة قائلة: المنافق هو من إذا سمع خبراً عن حربٍ أو صلحٍ أو عن أمن و غيره، يُسارع إلى إذاعته بين الناس. و لكن يا أيها المسلمون لو رجعتم فى أموركم إلى رسول اللّه و الى

«أولی الامر» یمکن عند ذاک العثور علی تدبیر وحلٍّ. فإذاً الخلیفة، و القائد و الحاکم الالهی لدیه علمٌ یستطیع به حلّ العقد و معالجة المعضلات.

«**وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّه قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَا أَنّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْيُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّه اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللّه يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَ اللّه وَاسِعٌ عَلِيمٌ**». البقرة ۲۴۷.

اللّه تعالی اختار حاکماً، و لکن بنیإسرائیل کعادتهم یرفضون متذّرعین بذریعةٍ واهیة و هی أنّ هذا الشخص لیس غنیاً و لا هو من سلالات الملوک. فردَّ علیهم نبیُّهم بانَّ طالوت قد اختاره اللّه، و اضافة إلی ذلک انّه یتّسمُ بغزارة العلم و قوّة الجسم.

هذه صفات من یختاره اللّه لامامة الناس غیر أنّ هذه الخصائص لمتقدّم لنا بعدُ جواباً شافیاً لما طرحناه من تساؤل و هو: هل یضع القرآن بین أیدینا معاییر أدقّ لخصائص الشخص الذی ینبغی أن یکون خلیفة للرسول؟!

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّه وَ أَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَ أُوْلِى الاَمْرِ مِنكُمْ**». النساء ۵۹.

أطیعوا اللّه و الرسول و أولی الامر، خلفاء الرسول هم أولوا الامر، و إطاعتهم واجبة. و لکن من هم أولو الامر؟! مَن الامر بیده فإطاعته واجبة. فهل یمکن أن یوجب اللّه تعالی إطاعة من یخطیء أو یعصی و یذنب؟! و هل تجب إطاعة من بیده الامر مهما قال و مهما فعل؛ و انْ ظلم او کذب؟! هل یأمرنا اللّه بإطاعة الظالمین و أن نخضع للکذب و الضلال؟! کلّا! بل اللّه ینهی عن إطاعة الغافلین عن ذکره، و تابعین عن أهواءهم.

«**وَ لاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**». الکهف، ۲۸.

و انّه ینهانا عن اطاعة کلّ مسرفٍ مفسِد.

«**وَ لاتُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ**». الشعراء، ۱۵۲-۱۵۱.

بل یحذّرنا من إطاعة أیّ آثمٍ أو کَفور.

«**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاتُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً**». الانسان، ۲۴.

إذاً، أولو الامر مصلِحون، غير مفسدين، يتّبعون الحقّ و لا يتّبعون أهواءهم، عن ذكر اللّه لا يغفلون، و لا يقترفون المآثم؛ لانّ الامر بإطاعة الآثِم لا ينسجم مع القرآن و لا مع العقل، بل لا يتناسب مع أصل الشريعة و الدين.

إنَّ هذه الصفة؛ أعنى الطهارة والعصمة من الذنب، محورٌ؛ محور لوجوب الاطاعة، و محور للولاية. و هذه هى الصفة الاساسية للقائد الالهى، و كلّ الصفات و الخصائص الاخرى التى أشرنا إليها منبثقة منها. فمن ينزّه نفسه – بفضل ربّه – من الذنوب والمعاصى، يحكم بالحقّ، و لايتّبع الهوى، و لديه يقين بآيات اللّه، و ربّه يهديه إلى سواء السبيل. يؤكد القرآن بصراحة على أنّ الظالم غير جديرٍ بالامامة. إذاً فالامام ينبغى أن لا يكون ظالماً.

«**وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**». البقرة، ١٢۴.

الامامة عهد اللّه و لا ينالها الظالمون، و القرآن يعتبر كلَّ ذنبٍ ظلماً.

«**وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّه وَ مَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّه فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**». الطلاق، ١.

و حتى من يظلم زوجته أو يضرّها يسمّيه اللّه ظالماً.

«**وَ لاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**». البقرة، ٢٣١.

لا ينبغى أن يكون الامام ظالماً، و هو ما يعنى بالضرورة أنّه يجب أن لا يكون مذنباً؛ لانّ الذنب ظلمٌ للآخرين أو للنفس أو للّه. و لكن كيف يتسنى لنا أن نعلم بأنّ هذا الشخص لم يرتكب ذنباً؟! فنحن لا نعلم بأفعال الآخرين. و لا نستطيع معرفة مثل هؤلاء.

لكن اللّه قادر على معرفتهم و تعريفهم لنا. فهل عرّف لنا القرآن أشخاصاً بصفتهم انّهم معصومين من الذنوب؟! نعم إنّه تعالى عَرّف و قدّم لنا هذه الجماعة الطاهرة و المعصومة من الذنوب. و يمكن العثور على هذه الجماعة فى سورتى الاحزاب، و الانسان.

آية التطهير

«**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّه لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**». الاحزاب، ۳۳.

جاءت فی هذه الآیة الشریفة أکثر من خمسة تأکیدات، علی أنّ اللّه أراد إزالة الرجس عن أهل بیت النبیّ و تطهیرهم. و إرادة اللّه لا تُخطیء مطلقاً. و إذا أراد اللّه شیئاً لابدّ و أن یکون.

«**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**». یس، ۸۲.

مع أنّ «ال» فی کلمة «الرجس» للجنس، فتُفید العموم، بمعنی أنّ اللّه یرید أن یُذهب عن اهل البیت، کلّ رِجس. و الآیة ذات دلالة تامّة علی عصمة و طهارة أهل البیت من کلّ رجس و سوء.

و لکن من هم أهل البیت؟! نُقل فی تفسیر هذه الآیة الشریفة حدیثٌ عُرف باسم «حدیث الکساء» الذی نقلته السیّدة فاطمة الزهراء علیهاالسلام ، و أمّسلمة، و عائشة، و نقله أیضاً أبو الدرداء، و جابر بن عبد اللّه الانصاری، و أنس بن مالک، و سعد بن أبیوقّاص، و أبوسعید الخدری، و وائلة بنالاسقع، و زید بنأرقم، و عمر بن أبیسلمة، و ثوبان عتیق النبیّ، و غیرهم.[1]

و علی العموم فقد نقل المفسرون هذا الحدیث عند تفسیرهم للایة الثالثة و الثلاثین من سورة الاحزاب، و نقله علماء الحدیث و السیرة فی فضائل و مناقب علی علیهالسلام أو مناقب فاطمة الزهراء علیهاالسلام . و نستمع هنا إلی أمّسلمة و هی تروی هذا الحدیث.

إنّ النبیّ صلی اللّه علیه وآله کان فی بیتی، فاستدعا علیاً و فاطمة و الحسن و الحسین، وجللهم بعباء خیبریّة، ثمّ قال: «**اللهمّ هؤلاء أهل بیتی فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیراً**». فنزلت هذه الآیة: «**إِنَّمَا يُرِيدُ اللّه لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**». فقلتُ: یا رسول اللّه! أنا من أهل بیتک؟! فقال: «لا، و لکنّک علی خیرٍ».

- الکافی، ج۱، ص۲۸۶؛ مسند أحمد، ج۶، ص۲۹۲و۲۹۶و ۳۰۴؛ وج۳، ص۲۸۵و۲۵۹؛ صحیح مسلم، ج۲، ص۲۹۲؛ تفسیر ابنکثیر، ج۳، ص۴۸۴؛ صحیح الترمذی، ج۵، ص۳۰؛ الاستیعاب، ج۲، ص۴۷۳؛ الصواعق المحرقة،ص۸۵؛ تفسیر فخر الرازی، ج۲، ص۷۰۰؛ تفسیر الطبری، ج۱۴، ص۱۰۹؛ الدرّ المنثور، ج۵، ص۱۹۸؛ مصابیح السنّة، ج۲،ص۲۷۸؛ أسد الغابة، ج۲، ص۱۲؛ تفسیر الکشّاف، ج۱، ص۱۹۳. [1]

و جاء فی خبر آخر أنّ أمّسلمة قالت: فرفعتُ طرف العباء و أدخلتُ رأسی و قلتُ: و أنا معکم؟! فقال النبیّ: «قومی و تنحّی عن أهل بیتی»، ثمّ قال لی ثلاث مرّات: «إنّک علی خیرٍ».

و بعد هذه الحادثة کان رسول اللّه علی مدی عدّة أشهر متی ما ذهب إلی المسجد لصلاة الصبح، یقف عند باب علی و فاطمة علیهماالسلام و یقول: «**الصلاة! الصلاة! یا أهل البیت! إنّما یُرید اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهرکم تطهیراً**».

نقل أحمد بن حنبل عن أنس بن مالک أنّ سول اللّه کان یفعل ذلک کلّ یومٍ لمدّة ستة أشهر و نقل الترمذی عن أبیالحمراء أن ذلک کان لمدّة سبعة أشهر. بل جاء فی تفسیر الدرّ المنثور عن ابنمردویه عن أبیسعید الخدری أنّ النبیّ کان یفعل ذلک کلّما طلع الفجر لمدّة ثمانیة أشهر.[1]

ألا تدلّ هذه الآیة علی عصمة افل البیت؟! بلی، هذه الآیة تدلّ علی طهارة أهل البیت من الرجس بفضل اللّه تعالی. و الذنب و المعصیة من أوضح مصادیق الرجس.[2]

«**وَإِن يُرِدْکَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ**». یونس، ۱۰۷.

و قد أراد جلّت قدرتُه أن یطهّر أهل البیت من الرجس. إذاً لیس هناک من شیءٍ یستطیع منع هذه الارادة. و بالاضافة إلی ذلک کان النبیّ یقول بعد نزول هذه الآیة: «**أهل بیتی مطهَّرون من الرجس**».[3]

و فی ضوء ما یفید به حدیث الکساء الذی یتّفق علی صحّته علماء التفسیر و الحدیث و السیرة، إضافة إلی تأکید هذا المعنی علی مدی سبعة أو ثمانیة أشهر، یفهم أنَّ أهل بیته هم علی بن أبیطالب و فاطمة الزهراء و الامام الحسن و الامام الحسین علیهمالسلام .

---

[1] – مسند أحمد، ج۳، ص۲۸۵؛ صحیح الترمذی، ج۶، ص۳۲ و تفسیر الدرّ المنثور، ج۵، ص۶۱۳.

[2] – جاءت کلمة الرجس فی القرآن للشرک (الحج، ۳۰) و للشراب (المائدة، ۹۰) و للنفاق (التوبة، ۱۲۵) وللحوم المحرّمة (الانعام، ۱۴۵) و فی ضوء المعانی التی تستعمل فیها کلمة الرجس فی القرآن، و استناداً إلی ما تفیده معاجم اللغة، یتضح بشکل جلیّ أنّها ذات معنیً عامّ.

[3] – نقل الترمذی، و الطبرانی، و ابنمردودیة، و أبو نعیم، و البیهقی حدیثاً عن أبنعباس فی ذیل آیة التطهیر، یقول النبیّ: فیه: فأنا و أهل بیتی مطهَّرون من الذنوب». الدرّ المنثور، ج۶ ص ۶۰۵.

و لكن هل يمكن إثبات هذا بآيات أخرى من القرآن الكريم؟! كان من المقرّر منذ البداية أن يكون التعويل فى هذا الكتاب على الينبوع الدافق للقرآن الكريم. فهل عيّن القرآن من هم أهل بيت النبىّ؟!

و الجواب، انّه نعم، يمكن إثبات هذا المعنى بالقرآن الكريم. إذ يمكن من خلال آيات قرآنيّة أخرى أن نبرهن بكلّ سهولة أنّ علياً و فاطمة الزهراء و أبناءهما عليهم‌السلام هم أهل بيت النبىّ. فالسيدة فاطمة عليهاالسلام كانت بنت النبىّ، وبنت الرجل من أهله طبعاً مثلما اعتبر البارى تعالى بنات لوط من أهله حيث قال: «**فَأَنجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ**». الاعراف، ٨٣.

و لكن هل يُحسب أبناء البنت مِن أهل البيت و الذريّة؟! نعم، فمن المعروف أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال فى الحسن و الحسين عليهماالسلام : «**هذان إبناى اللهمّ إنّک تعلم أنّى أحبّهما و أحبُّ من أحبّهما**». سنن الترمذى، الحديث ٣٩٣٧ و صحيح ابن حيان، الحديث ٦٨٥٣.

و فضلاً عن ذلک، فى القرآن شاهدان يدلاّن على هذا المعنى، و هو انّ الامام الحسن و الامام الحسين من أهل بيت النبىّ. الشاهد الاول آية المباهلة التى سنتحدّث عنها بالتفصيل. فالمسلمون كلّهم متّفقون على أن النبىّ فى قضية المباهلة، أخذ معه ابنته فاطمة، وعلى بن‌أبى طالب، و الحسن و الحسين عليهم‌السلام ، لمباهلة النصارى. و كان هذا العمل بأمر اللّه تعالى فانّه أراد من النبىّ دعوة أبنائه إلى المباهلة؛ فأخذ الحسن والحسين. إذاً فهما إبنا رسول اللّه و من أهل بيته.[1]

و الشاهد الثانى هو الآية الشريفة التالية:

«**وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَ يَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَ مِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِکَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصالِحِينَ**». الانعام، ٨٥-٨٤.

- جاء فى تفسير فتح القدير ج١، ص٣٤٧ فى تفسير آية المباهلة: «و فيه دليل على أن أبناء البنات يُسمّون أبناءاً لكونه صلى‌الله‌عليه‌وآله أراد بالابناء الحسنَين». و نقل أحمد فى مسنده الحديث ٩١٦٦ قال النبىّ فى الحسن والحسين «آل محمد». [1]

فی هذه الآیة اعتبر اللّه عزّ و جلّ النبیّ عیسی من آل إبراهیم و إسحاق، فی حین انّ عیسی یتصل بإسحاق و إبراهیم من جهة أمّه.

لکن و قد قال البعض إن النبیّ لیس أباً لایّ من الرجال المسلمین، استناداً إلی نصّ هذه الآیة:

«**ما کَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِکُمْ**». الاحزاب، ۴۰.

و هذا یعنی لایمکن أن یکون النبیّ أباً للحسن و الحسین!!

فلنلاحظ ابتداءً شأن نزول هذه الآیة. أولی زوجات النبیّ و هی السیدة خدیجة علیهاالسلام کان لها غلام اسمه زید بن حارثة، وهبتْه للنبیّ. و قد ترعرع زید فی بیت النبیّ. ثم إنّ النبیّ أعتقه لاحقاً. و لکنه رغم ذلک لم یعد إلی أبیه و انما بقی عند النبیّ. و قد کانت ظاهرة التبنّی شائعة بین العرب قبل الاسلام. و کان من السهولة إیجاد علاقة الابوّة و البنوّة بین شخصین. ولما رأوا زیداً رجّح النبیّ علی أبیه سمّوه «زید بن محمد». و لما بلغ زید أشدّه زوّجه النبیّ، ابنةَ عمّته، زینبَ بنت جحش. و مضت مدّة علی هذا الزواج ولکن زید و زینب لمینسجما رغم دعوة النبیّ إیاهما إلی التفاهم و الاستقرار. فانفصمت عری العلاقة بینهما و طلّق زیدٌ زینب. و بعد انتهاء عِدّة زینب تزوّجها النبیّ. فأخذ المغرضون یثیرون الشکوک و الاقاویل بأنّ محمداً قد تزوج زوجة ابنه!

فبیّن القرآن الکریم فی الآیة السابعة والثلاثین والآیة الثامنة والثلاثین من سورة الاحزاب قصّة زید و زینب. و نفی بشدّة فی الایتین الرابعة والخامسة من هذه السورة، فکرة التبنّی، و أنّ کلّ احدٍ ابنٌ للأب و الامّ اللذین وُلد منهما فقط و أنّ قضیة الابوّة والامومة لیست من الامور الاعتباریّة و التعاقدیة، و هذه الآیة تتحدث عن هذه القضیة ایضاً. إذاً، النبیّ لیس أباً لایّ من رجالکم و خاصة زید.

و بعد أن تکشّف لنا شأن نزول الآیة، یتّضح أنها لیست بشأن الحسن والحسین علیهماالسلام . و بالاضافة إلی ذلک فهما کانا صغیرین وقت نزول الآیة و لا تُطلق علیهما کلمة «رَجل». بینما تقول هذه الآیة إن النبیّ لیس أباً لایّ من رجالکم!

أمیر المؤمنین، علی بن أبیطالب علیهماالسلام یُحسب من أهل بیت النبیّ أیضاً. و دلیلنا علی ذلک من القرآن آیة المباهلة.

جاء وَفدٌ من نصارى نجران إلى النبىّ للتباحث معه و مناقشته. و كان موضوع النقاش حول النبىّ عيسى، إذ كان النصارى يؤكدون أنّه ابن اللّه لانّه وُلد من غير أب! فنزلت هذه الآية:

«**فَمَنْ حَآجَّکَ فيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَ أَبْنَاءکُمْ وَ نِسَاءنَا وَ نِسَاءکُمْ وَ أَنفُسَنَا و أَنفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَةُ اللّه عَلَى الْكَاذِبِينَ**». آل‌عمران، ۶۱.

نقل عدد كثير من الصحابة منهم جابر بن عبد اللّه الانصارى، وبراء بن عازب، و ابن عباس، و سعد بن أبى‌وقّاص و غيرهم أنّه لما أصبح الصباح أخذ النبىّ بيد الحسن والحسين و على و فاطمة عليهم‌السلام ، لمباهلة النصارى، و كانت المباهلة أن يدعو كل فريق بنزول العذاب من اللّه على الكاذب. و لما وجد النصارى أنفسهم أمام هذا الموقف الصعب رفضوا المباهلة و أقرّوا بدفع الجزية.[1]

فنحن نسأل من المراد من «أنفسنا» فى هذه الآية؟! و من الذى اعتُبر نفس النبىّ؟!

الحسن و الحسين ابنا رسول اللّه، و فاطمة ابنته. فلا يبقى إلّا على بن أبيطالب و هو الذى وصفتْه الآية بنفس النبىّ. و هذا المعنى صرّح به جابر بن عبد اللّه حيث قال: «أنفسنا و أنفسكم، رسول اللّه و على بن أبى‌طالب».

أثار البعض إشكالاً آخر و هو إنّ كل شخص هو نفسه و ليس غيره! فكيف يكون على نفس النبىّ؟! فهل حلّ علىٌّ و النبىّ فى بعضهما؟! و الجواب نستقيه من القرآن، و نقول: فما معنى قوله تعالى: «وَ **لاتَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**». الحجرات، ۱۱. أى لا تلمزوا و لا تعيبوا إخوانكم و المقربين منكم.[2]

- قصّة المباهلة نقلتْها الكتب المعتبرة فى السيرة و التفسير، و منها: بحار الانوار، ج۲۳، ص ۱۳؛ تفاسير مجمع البيان، ج۱، ص۴۵۱؛ ابن‌كثير، ج۱، ص۳۶۹؛ البغوى: ج۱، ص۳۱۰؛ البيضاوى، ج۲، ص۴۷؛ الدرّ المنثور، ج۲، ص۳۹؛ روح البيان، ج۱، ص۱۴۹؛ الرازى، ج۲، ص۶۹۹ و سيرة ابن‌إسحاق، ج۲، ص۲۵۲؛ المستدرک على الصحيحين، ج۲، ص۵۹۳؛ تاريخ الخلفاء، ص۶۵؛ الصواعق المحرقة، ص۹۳. [1]
- قال البغوى فى تفسيره: العرب تُخبر عن ابن‌العمّ أنّه نفس ابن عمّه. كما قال تعالى: «وَ لاتَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ» أى لاتعيبوا إخوانكم. معالم التنزيل، ج۱، ص۳۱۰. [2]

و اضف الی ذلک کلّه انّه حینما نزلت الآیات الاولی من سورة البراءة أعطاها النبیّ أوّلاً لأبی‌بکر لیتلوها علی مشرکی مکّة و یَصدح لهم بحکم اللّه فیهم، و لکنه أرسل علیاً بعد حینٍ لیأخذها من أبی‌بکر، و یتلوها هو علی المشرکین. و قد بیّن النبیّ السرَّ الکامن وراء هذا التبدّل فی الموقف بقوله: «**جبرائیل جاءنی و قال: لایؤدّی عنک إلّا أنت أو رجلٌ منک**».[1]

قلنا إنّ اللّه عزّ و جلّ ذکر فی موضعین من کتابه الکریم فئةً و وصفها بالعصمة. الموضع الاوّل هو آیة التطهیر فی سورة الاحزاب و قد تناولناها بالبحث. و الموضع الثانی: آیة النذر او الاطعام فی سورة الانسان.

آیة الاطعام

«**یُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ یَخَافُونَ یَوْماً کَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً * وَ یُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً * إِنَّمَا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللّه لا نُرِیدُ مِنکُمْ جَزَاءً وَ لا شُکُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً * فَوَقَاهُمُ اللّه شَرَّ ذَلِکَ الْیَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً**». الانسان، ۱۱–۷.

و من الواضح طبعاً انّ هذه الآیات تتحدث عن واقعة، إنّ جماعة نذرتْ ثمّ وفتْ بنذرها و قدّمتْ طعامها لمسکینٍ و یتیم و أسیر. و شأن نزول هذه الآیة مشهورٌ فی کتب الحدیث و التفسیر و السیرة.

کان الحسن والحسین مریضَین فجاء النبیّ و عددٌ من أصحابه لعیادتهما. فاقترح النبیّ علی علی أن ینذر لشفائهما. فنذر علیٌ و فاطمة و خادمتهما فضّة أنْ یصوموا ثلاثة أیام لشفاء الحسن و الحسین. و اقترض علیٌّ ثلاثة صاعات شعیر. و طحنوا منه فی الیوم الاول صاعاً و خبزوا خمسة أرغفة. و عند وقت الافطار طرَق مسکینٌ الباب فأعطاه أمیرالمؤمنین سهمه من الخبز، و کذلک فعلت الزهراء، و کذلک الحسن و الحسین و فضّة. و فی الیوم التالی حین الافطار جاء یتیمٌ و طرَق الباب، ففعلوا بطعامهم مثلما

---

[1] - مسند أحمد، ج۱، ص۱۵۱ و ج۳، ص۲۸۳ و ج۴، ص۱۶۴؛ تفسیر ابن‌کثیر،ج۲، ص۵۴۳؛ کنز العمال، ج۱، ص۲۴۶ و ج۶، ص۱۵۳؛ مستدرک الحاکم، ج۲، ص۵۱؛ خصائص النسائی، ص۴.

فعلوا بالامس. و فی الیوم الثالث، جاء أسیرٌ فقدّموا له طعامهم أیضاً. فنزل جبرائیل و أنزل معه آیات سورة الانسان و قال للنبیّ: «**خُذها یا محمد** صلی‌الله‌علیه‌وآله **هَنّأکَ اللّه فی أهل بیتک**».[1]

نعود إلی آیات سورة الانسان؛ «**فَوَقَاهُمُ اللّه شَرَّ ذَلِکَ الْیَوْمِ**». و معنی هذا أنّ اللّه حفظ هذه الجماعة من شرّ یوم القیامة. و من الطبیعی أنّ شرّ یوم القیامة یأتی نتیجة للذنوب و المعاصی. و هنا یؤکد القرآن استبعاد الشرّ عنهم فی ذلک الیوم. و هذا یدلّ علی أنّهم لم‌یرتکبوا إثماً و لا معصیة بحیث وقاهم اللّه شرّ یوم القیامة. مثلما یدلّ انعدام الحرارة علی انعدام وجود النار. و کذلک عدم وجود الشرّ و الاذی فی یوم القیامة یدلّ علی عدم ارتکاب الذنب فی الدنیا.

و علی هذا الاساس فإنَّ هذه الآیات من سورتی الاحزاب و الانسان، تعیّن لنا المعصومین. اذاً فهؤلاء هم الائمة و أولوالامر، هؤلاء من ذریة إبراهیم و صاروا أئمةً و یهدون بأمر اللّه، و هو تعالی یلهمهم الاحسان و فعل الخیر.

قلنا إنّ وصی رسول اللّه یمکن استبیانه من القرآن علی نحوین: أحدهما عن طریق الصفات و الخصائص التی سبق ذکرها. و الآخر عن طریق علامة خاصّة ذکرها لنا القرآن. و یأتی الدور هنا لشرح و تفصیل هذه العلامة.

---

[1] وردت هذه القصّة فی الکتب التالیة: مجمع البیان، ج۵، ص۴۰۴؛ بحار الانوار، ج۲۳، ص۳۱؛ تفاسیر روح البیان، ج۶، ص۵۴۶؛ الفخر الرازی، ج۸، ص۳۹۲؛ أبی‌السعود ج۹، ص۷۲؛ البیضاوی، ج۴، ص۴۲۸؛ و ینابیع المودّة، ج۱، ص۹۳و۹۴. و قد نقل القرطبی فی تفسیره لسورة الانسان هذه القصّة و لکنّه أثار إشکالاً و هو کیف یمکن أن نصدّق بأن علیاً أجبر طفلیه اللذین کانا فی الخامسة و السادسة علی الصوم ثلاثة أیام و التصدّق بطعامهما و الافطار بالماء، إلی أن أصفرَّ وجهاهما من شدّة الجوع ؟! و جواب هذا الاشکال واضحٌ و هو أن علیاً و فاطمة علیهماالسلام و فضّة هم الذین نذروا الصوم، و أما الحسن و الحسین علیهماالسلام فقد صاما باختیارهما، و هما اللذان تصدّقا عند الافطار بطعامیهما و لیس ثمّة ما یوجب أن یمنعهما أبوهما من الصوم أو من الصدقة. و هذا العمل بصریح القرآن جائز، بل ممدوحٌ أیضاً: «**وَ یُؤْثِرُونَ عَلَی أَنفُسِهِمْ وَ لَوْ کَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**». الحشر،۹. فمع أنّ الانصار کانوا فی عوزٍ شدید غیر أنّهم آثروا الاخرین –المحتاجین من المهاجرین– علی أنفسهم.- [1]

آية الولاية

انّ اللّه لم‌یترک الامة الاسلامیّة من غیر قائد و إمام. و هو تعالی قد أمر المسلم بالوصیة قبل الموت (البقرة، ۱۸۰) و أن یدوّنوا معاملاتهم و یُشهدوا علیها شاهدین عدلین (المائدة،۱۰۶) و أمر تعالی بتعیین ولیٍّ و قَیِّم علی المجنون و الصغیر. و اشترط زواج الفتاة بإذن ولیّها. فهل إدارة و قیادة الامة الاسلامیّة، أقلّ أهمیّة من تزویج فتاة أو من حیاة صغیر؟! کلا، طبعاً. و لابدّ أنّه تعالی عیّن ولیّاً للمسلمین.

«**إِنَّمَا وَلِیُّکُمُ اللّه وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُواْ الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاَةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَ هُمْ رَاکِعُونَ**». المائدة،۵۵.

و فی هذه الآیة أمران مهمّان و جدیران بالبحث.

الاوّل ما معنی الولیّ، و هل الولیّ بمعنی المحبّ و الناصر، أم القَیِّم و صاحب الامر؟! و فی بعض آیات القرآن الکریم جاءت کلمة الولیّ بمعنی المحبّ و الصدیق کقوله تعالی:

«**اِدْفَعْ بِالتی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَدَاوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ**». فصّلت، ۳۴.

کذا فی هذه الآیة جاءت «الاولیاء» بمعنی الاحبّاء بقرینة التالیة لها.

«**یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءکُمْ وَ إِخْوَانَکُمْ أَوْلِیَاءَ إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْکُفْرَ عَلَی الایِمَانِ**». التوبة، ۲۳.

و لکن جاءت کلمة الولیّ او المولی فی مواضع أخری بمعنی القَیِّم والمُشرف، و لا یمکن أن تکون بمعنی الصدیق و المحبّ کقوله :

«**هُنَالِکَ تَبْلُو کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّواْ إِلَی اللّه مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُم ما کَانُواْ یَفْتَرُونَ**».یونس،۳۰.

و من الواضح أنّ هذه الآیة تتحدث عمن افتروا علی اللّه الکذب، و اتخذوا معبوداً غیره. و مع ذلک یقول تعالی: إنّهم یوم القیامة یُرَدّون إلی مولاهم الحقّ. و هنا کلمة مولی لا یمکن أن تکون بمعنی الصدیق أو النصیر أو المحبّ، لانّه تعالی لا یکون حبیباً أو نصیراً لِاَمثال هؤلاء الناس. فالمولی إذاً بمعنی السیّد و من بیده الامر. و هکذا لو تأملنا هذه الآیة الشریفة:

«**وَ مَا لَهُمْ أَلّا یُعَذِّبَهُمُ اللّه وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا کَانُواْ أَوْلِیَاءهُ إِنْ أَوْلِیَآؤُهُ إِلّا الْمُتَّقُونَ**». الانفال، ۳۴.

و من الواضح طبعاً أنّ كلمة ولىّ هنا لا تعنى الصديق؛ لانّ الكلام لا يدور هنا حول محبّة المسجد الحرام، و إنّما كان المشركون يدّعون الولاية و السيطرة على المسجد!

و يتبيّن فى ضوء استعمال كلمة الولىّ فى القرآن، أنّ كلما وردتْ هذه الكلمة بشأن اللّه و رسوله، فهى بمعنى القَيِّم و السيّد.

«**إنَّ وَلِيِّیَ اللّه الَّذِی نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**». الاعراف، ۱۹۶.

«**اللّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**». البقرة، ۲۵۷.

و من الواضح طبعاً أن الهداية من الظلمات إلى النور من لوازم السيادة و القيمومة و ليس من نتائج المحبّة والنُصرة.

«**اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ وَ لاتَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ**». الاعراف، ۳.

و على هذا فالولىّ هو من يُتَّبع، و هذا المعنى ينسجم مع القيمومة. و الولىّ هو من بيده النفع و الضرّ بدليل قوله تعالى: «**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضِ قُلِ اللّه قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لاِءَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرّاً**». الرعد، ۱۶.

و الولىّ و المولى، من يُوثَق به و يُعتصم به.

«**وَاعْتَصِمُوا بِاللّه هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ**». الحجّ، ۷۸.

و الولىّ و الوالى هو من يكون تغيير أحوال الناس بيده.

«**وَإِذَا أَرَادَ اللّه بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن والٍ**». الرعد، ۱۱.

يُستفاد من هذه الآيات كلّها أنّ الولاية – خاصّة إذا كانت بين اللّه والخلق – تأتى بمعنى السيادة و القيمومة و الامر، و ليست بمعنى المحبّة و النصرة، خاصّة آية الولاية؛ إذ لا يمكن أن تؤخذ فيها كلمة الولىّ بمعنى المحبّ و الناصر؛ لانّ معنى الآية على هذا يكون كالاتى: «انّما ناصركم و محبكم هو اللّه و رسوله و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم راكعون». فهل المؤمنون الذين يصلّون و لكن ليس لديهم ما ينفقون ليسوا أحباء و لا ناصرين؟ أم المؤمنون الذين أقاموا الصلاة و أنفقوا، و لكنّهم

لم ينفقوا حين الركوع، هؤلاء ليسوا أحبّاء و لا ناصرين؟! و من المؤكَّد أنّ هذه الآية لا يمكن أن تُفهم على هذا النحو.

من هم «الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة و هم راكعون»؟!

انتهى القسم الاول من البحث فى ما يخصّ معنى الولىّ. و فى ضوء ذلک يكون من بيدهم التصرّف بالمؤمنين، ثلاثةٌ: اللّه، و الرسول، و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم راكعون. فمن هو هذا الولىّ الثالث؟!

نقل جمهور المفسّرين و أهل الحديث أن سائلاً دخل المسجد، و سأل أن يعطوه شيئاً و لكن لم يلتفت له أحدٌ، و كاد أن يغادر المسجد يائساً و كان أميرالمؤمنين يصلّى فأشار إليه بيده و أعطاه خاتمه إثناء الركوع، ثمّ نزلت هذه الآية.[1]

- الكافى، ج۱، ص۲۸۸؛ تفاسير مجمع البيان، ج۲، ص۲۰۹؛ فخر الرازى، ج۲، ص۲۹۳؛ الكشّاف، ج۳، ص۶۱۸؛ ابن‌كثير،ج۲، ص۷۲؛ البغوى، ج۲، ص۴۷؛ المستدرک، ج۲، ص۲۸؛ كنزالعمال، ج۶، ص۳۹۱؛ مناقب ابن‌المغازلى، ص۳۱۲؛ الرياض النضرةج۲، ص۲۲۷؛ صحيح النسائى، مجمع الزوائد، شرح المواقف الجرجانى، الصواعق المحرقة، ينابيع المودة، الذخائرالعقبى، المعجم الاوسط، أحكام القرآن، فضائل الصحابة، المتفق والمفترق، الفصول المهمة، تاريخ ابن‌عساكر، فتح القدير، شواهد التنزيل، أسباب النزول، الجمع بين الصحاح الستة، تاريخ دمشق، زاد المسير، جامع الاصول، كفاية الطالب، فرائد السمطين، البحر المحيط، شرح المقاصد، تفاسير البيضاوى، أبى‌السعود، الثعلبى، الطبرى، القرطبى، النسفى، الآلوسى، الدرّ المنثور و... نقلوا هذه الرواية من البيهقى، السدى، الاعمش، المجاهد، الحسن البصرى، الاعمش، عتبة بن ابى‌الحكم، مقاتل، الضحاک، سعيد بن جبير، العطاء، عباية بن الربعى، عن محمد بن‌حنيفة، ابن‌عباس، أبيرافع، المقداد، أبى‌ذر، جابر بن عبداللّه الانصارى، عمار بن‌ياسر، أنس بن‌مالک، عبداللّه بن سلام، و مولانا على بن أبى‌طالب. و نظم حسان بن ثابت هذه الواقعة شعراً. قال التفتازانى والقوشجى و هما من علماء الكلام عند أهل الجماعة فى شرح التجريد أنّ هذه الواقعة موضع اجماع و اتفاق. [1]

فمعنى هذه الآية واضح تماماً، و هو أنَّ أولياء المؤمنين ثلاثة: اللّه، والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وعلى بن أبيطالب عليهما‌السلام . ولكن البعض يغمض عينيه عن هذه الحقيقة الواضحة و يقول: الركوع فى هذه الاية بمعنى الخشوع! و معنى الآية هو أنّ أولياءكم ثلاثة: اللّه و الرسول و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤدّون الصلاة بخشوعٍ!

أين و فى أى موضع استعمل القرآن كلمة «ركوع» بمعنى الخضوع و الخشوع؟! وردتْ الركوع و مشتقاته فى القرآن ثلاث عشرة مرّة كما فى كقوله تعالى: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**». الحجّ، ٧٧.

ففى أى واحدة من هذه الآيات يأتى الركوع بمعنى الخضوع؟! يمكننا ايضاً الرجوع إلى كتب اللغة.

«ركَعَ: كلّ شىء ينكبّ لوجهه فتمسُّ الارض أو لاتمسُّ بعدُ أن يطأطىء رأسهُ فهو راكعٌ». كتاب العين، ج١، ص٢٠٠.

«ركع يركع: طأطأ رأسه... و أمّا الركوعُ فهو أن يخفض المُصلّىُ رأسهُ بعد القومة... الراكع المنحنى». لسان العرب، ج١، ص١٣٣.

و بِغَضّ النظر عن هذا إذا أخذنا كلمة الركوع – وفقاً لما تمليه الاذواق – بمعنى الخشوع، فسيكون معنى هذه الآية ما يلى: «وليُّكم أنتم أيها المؤمنون هو اللّه و رسوله و الذين آمنوا و صلّوا و أدّوا الزكاة بخشوعٍ».

فمن هو المراد بالولىّ الثالث هنا؟! يقولون: المؤمنون، فكلّ المؤمنين يصلّون و يزكّون. إذاً يكون معنى هذه الآية على النحو التالى: «انّما وليُّكم أنتم المؤمنون هو اللّه و رسوله و المؤمنون».

و هذه الآية لا يبقى لها أى معنىً و لا مفهوم، بل و لا تخلو من لغوٍ و كلام زائد. فبدلاً من قول: "إنّما وليُّكم اللّه و رسوله و المؤمنون» جاء باوصافٍ ثلاثةٍ، فلماذا لم تكتف الآية بكلمة "المؤمنون" فقط بدلاً من سَردِ كلّ هذه الاوصاف؟!

و إذا كان المقصود من القسم الثالث علياً عليه‌السلام ، يتبادر إلى الاذهان سؤال آخر وهو: انّه لماذا عبّر عنه القرآن بصيغة الجمع؟! و لماذا قال: «الذين يقيمون الصلاة...» و لم‌يقل: «الذى يقيم الصلاة»؟!

و الجواب هو: انّا نعلم أنّ اللّه واحد احد، و لكنّه عبّر عن نفسه بصيغة الجمع، و قال: نزّلنا، نحن نقصّ، إنّا أعطيناک، نهلک، نجّيناهم و... بل عبّر فی بعض المواضع عن انسانٍ واحد بصيغة الجمع حسبما جاء فی آية المباهلة. فالمراد من «نساءَنا» فی هذه الآية فاطمة الزهراء عليهاالسلام فقط، و لكن عبّر عنها بصيغة الجمع. و هذه قضية عادية قد تأتی من باب التعظيم أو لغايةٍ أخرى.

و قد يخطر على بال البعض أنّ الانتباه إلى السائل و إعطائه صدقةً يتنافى مع حضور القلب فی الصلاة! فكيف أن الامام على عليه‌السلام الذی كان فی أثناء الصلاة لا يلتفت إلى شیءٍ آخر حتى اخرجوا السهم من رجله حين الصلاة و لم‌يلتفت، فكيف يلتفت إلى سائل و يُقدّم له صدقة و هو يصلّی؟!

و جواب هذا السؤال واضح أيضاً. فالصلاة يجب أن تكون عن حضور القلب و الانشداد إلى اللّه، و من الطبيعی أن الانفاق و إعانة المحتاج من أوامر اللّه أيضاً. و على هذا فإنَّ الانتباه إلى ذلک الفقير و إعطائه صدقةً، امتثالٌ لامر إلهی آخر و هو: «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ**». البقرة، ۲۵۴.

و لقد قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله : «**السائل رسول ربٍّ العالمين ليبتلی به فمن أعطاهُ فقد أعطى اللّه ومن ردَّهُ فقد ردَّ اللّه تعالى**». بحار الانوار، ج۹۳، ص۲۵.

استخلاف أبی‌بكر!

هل فی القرآن ما يشير إلى أبی‌بكر أو يدلّ على استخلافه؟

كان اسم أبی‌بكر عتيقاً أو عبدالكعبة. و سمّاه النبیُّ عبدَاللّه. و كان أبوه ای أبوقحافة فقيراً. و كان أبوبكر إلى متوسط سنوات عمره يعبد الاصنام، و لم يظهر أية شجاعة فی حروب النبیّ. و بعد وفاة النبیّ تربّع على كرسیّ الخلافة نتيجة لاِصرار وتشبّث عمر. و حكم سنتين و بضعة أشهر كخليفةٍ لرسول اللّه. و يمكن تلخيص ما قيل فی تأييد خلافته. بثلاثة استدلالات:

الاول؛ الآيات الواردة فی سورة الليل:

«**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلّا الاْءَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الاْءَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَ مَا لاِءَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى**». الليل، ۱۹-۱۴.

يقولون انّ المقصود بالاتقى فى هذه الآية أبوبكر. إذاً فهو الاتقى و الاورع. و من جانب آخر قال اللّه تعالى: «**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّه أَتْقَاكُمْ**». الحجرات، ١٣.

إذاً فأبوبكر أكرم الناس عند اللّه، و أكرم الناس يجب أن يكون خليفة لرسول اللّه، و يصبح للاخرين إماماً. و هذا الاستدلال يقوم على ثلاث مقدّمات:

❋ انّ «الاتقى» فى هذه الآية صيغة «أفعل التفضيل»، و بمعنى الاكثر تقوىً، و ليس صفة مشبّهة بمعنى «التَقىّ».

❋ أنّ المقصود من «الاتقى» فى هذه الآية هو أبوبكر.

❋ انْ نقول بوجوب تقديم الافضل على غيره.

إذا استعرضنا آيات سورة الليل نلاحظ أنها وردتْ فيها كلمتى «أشقى» و «أتقى» على وزن «أفعل» بمعنى التفضيل و الترجيح. مثل ما انَّ الاعلم بمعنى الاكثر علماً. إذاً فالاشقى يجب أن يكون بمعنى الاكثر شقاءاً و تعاسة. و الاتقى بمعنى الاكثر تقوىً و ورعاً. و لكن الكلمات على وزن أفعل قد تأتى أحياناً صفة أى إنّ الاشقى بمعنى التعس و الشقى، و الاتقى بمعنى الوَرِع و التَقى. و هناك أمثلة كثيرة على هذا فى القرآن، منها قوله تعالى: «**وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**». الروم، ٢٧.

أهون هنا بمعنى هَيِّن أى سهل بدلاً من أسهل. و كذلک فى قوله: «**اللّه أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**». الانعام، ١٢۴.

«أعلم» هنا صفة و ليست صيغة تفضيل فهى بمعنى العالم لا الاَعلم!

و هنا نعود إلى سورة الليل و نلاحظ أن كلمة «أشقى» فيها بمعنى الشقىّ، و تقع فى مقابلها كلمة «اتقى» فهى ايضاً بمعنى التَقىّ. إذاً فحتى لو كانت هذه الآية نازلةً فى شأن أبىبكر، فهو ليس الاكثر تقوى لكى تكون له أفضلية و تقدّم على الجميع، و إنّما هو تَقى على فرض ذلک.

و لكن بشأن مَن نزلتْ هذه الآيات؟! ليس فى ظاهر الآيات إشارة إلى احد بعينه، و إنما هنّ ذات معنى عامّ يشمل كلّ شقىٍّ و تقىٍّ. فكلّ من يكذّب النبىَّ و يُعرض عنه فهو شَقى و كلّ من يؤتى أمواله صدقةً

ویزکّی نفسه فهو تَقیٌ. و الکثیر من مفسّری الشیعة و بعض مفسّری السنّة أخذوا بهذا المعنی العام للآیات.

و إذا تجاوزنا هذا المعنی العامّ و الشامل، فإنّ الکثیر من المفسّرین یذهبون إلی أنّها نزلت فی أبی‌الدحداح. و القصّة هی أن أحد أهالی المدینة کانت له نخلة فی داره. وکان إلی جواره رجل من الانصار. و کان أبناء الانصاری یتناولون بین الفینة و الاخری ما یتساقط فی دارهم من تمر نخلة جارهم و یأکلونه. فجاء الانصاری إلی صاحب النخلة و طلب منه أن یحلل له ذلک. ولکن صاحب النخلة أبی و قال إنّ تمر نخلتی حرامٌ علی أبنائک. فجاء الانصاری إلی النبیّ و قصَّ علیه القصّة. فأرسل النبیّ إلی صاحب النخلة و قال له: هَب لی هذه النخلة فی مقابل نخلة لک فی الجنّة. و لکن الرجل رفض أیضاً، و قام من عند النبیّ. فلقیه أبوالدحداح و عرض علیه أن یبیعه النخلة بدارٍ. فوافق الرجل و قبض الدار من أبی‌الدحداح فی مقابل النخلة. و وهب أبوالدحداح تلک النخلة للنبیّ، فضمن له النبیّ بدلاً منها نخلة فی الجنّة. ثم وهب النبیّ تلک النخلة للانصاری لیأکل منها أولاده. فنزلتْ آیات سورة اللیل. فکان الاشقی هو صاحب تلک النخلة الذی رفض استبدالها بنخلة فی الجنّة. و هذا یعنی تکذیب وعد النبیّ و عدم الثقة بکلامه. و الاتقی هو ابوالدحداح الضامن له النبیّ الجنّة فهو الذی تجنّب النار بانفاق ماله.[1]

و استناداً إلی هذا التفسیر أیضاً انّ کلمة «الاتقی» تکون بمعنی التَقیّ ولیس الاکثر تقوی. و المراد مِن الاتقی هو أبوالدحداح و لیس بأبی‌بکر!

و الرأی الثالث لدی مفسّری الشیعة هو أن هذه الآیة ذات معنی واسع و یشمل کل مؤمن تَقی. و لکن المصداق الاوضح لها هو مولای المتّقین أمیر المؤمنین. فهو من تصدّق بطعامه ثلاثة أیام متوالیة و بقی جائعاً و ما کان یرتضی لنفسه أن یخیّب أمل فقیر بل یُقدّم له خاتمه صدقةً. ثمّ أنّ بذل المال سهلٌ بالمقارنة مع بذل النفس، و هو قد بذل نفسه للّه و لرسوله مرّات و مرّات. بحار الانوار، ج۲۴، ص۳۹۸.

---

[1] - تفاسیر مجمع البیان، ج۵، ص۵۰۱؛ ابن‌کثیر، ج۴، ص۵۲؛ البغوی، ج۴، ص۴۹۵ و الدرّ المنثور، ج۶، ص۳۵۸.

بعض مفسّری اهل السنّة الذین اعتبروا المراد بالاتقی فی هذه الآیة أبابکر، قالوا: إن أبابکر اشتری عدّة عبید مسلمین و اعتق رقابهم، و قد نزلت هذه الآیة بحقّه. و لکنّ الآیات التی ذهبنا علی الاستدلال بها حتی الان مثل آیة المباهلة، و الولایة، و الاطعام، و التطهیر، أخذنا بالتفسیر الذی یقول به کلٌّ من الشیعة و السُنّة. بل فی أکثر الموارد استندنا إلی ظاهر القرآن قبل أن یصل الدور إلی التفسیر و شأن النزول. بینما آیات سورة اللیل یفید ظاهرها معنیً شاملاً و عامّاً. و عندما یصل الدور إلی التفسیر نری أکثر مفسّری أهل السنّة یعتقدون بأنها نزلت فی أبیالدحداح. بل حتی أن بعض علمائهم ینکر نزول هذه الآیات بشأن أبی بکر. (مجمع الزوائد، ج۹، ص۵۰).

ثمّ علی فرض قبول المقدّمتین المذکورتین، و هو أنّ «الاتقی» بمعنی الاکثر تقوی، و أنّ المراد من الاتقی هو أبوبکر، إذاً فهو أکرم الناس عند اللّه، فهل یجب أن یتقدم الاکرم والافضل علی الاخرین، و یکون هو الامام؟! الشیعة یعتبرون العقل حجّة. و العقل یقضی بتقدیم الافضل. و لکن أهل الجماعة – الاشاعرة – لا یعتقدون بهذا، و یقولون لیس من الواجب أن یُقدّم اللّه الافضل، بل ربّما یقدّم اللّه جاهلاً علی عالمٍ! و لا یحقّ لنا الاعتراض علی حکم اللّه؛ لانّ العقل لا یستطیع الحکم فی هذا المجال! فقد سبق أن بیّنا فی بحث العدل أنّ العقل فی المدرسة الفکریّة للعامة، لا یستطیع إدراک الحسن و القبح، أو التمییز بین الخیر والشرّ. فکلّ ما یفعله اللّه خیرٌ و حسن سواء قدَّم الافضل، أم جعل غیر ذیالفضل مقدَّماً. إذاً بالاستناد إلی رأی أهل الجماعة فإنّ الامامة والقیادة لا تکون بالضرورة للاکرم و للافضل. و لا یمکن القول علی حسب رأیهم بأنّ الافضل هو الذی ینبغی أن تکون له الامامة.

الثانی؛ مقام صحبة الغار!

یتّفق السنّة و الشیعة علی إنّ هناک آیة فی القرآن فیها إشارة إلی أبیبکر و هی قوله تعالی:

«إِلّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّه إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ کَفَرُواْ ثَانِیَ اثْنَیْنِ إِذْ هُمَا فی الْغَارِ إِذْ یَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّه مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّه سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْتَرَوْهَا وَ جَعَلَ کَلِمَةَ الَّذِینَ کَفَرُواْ السُّفْلَی وَ کَلِمَةُ اللّه هِیَ الْعُلْیَا وَ اللّه عَزِیزٌ حَکِیمٌ». التوبة، ۴۰.

بيّن هذه الآية عدّة أمور حول أبی‌بكر؛ النبی و أبوبكر التَجَآ إلی غار ثور فكان أبوبكر بصحبة النبیّ و كان حزيناً فقال له النبیّ: لا تحزن. ثمّ أنزل اللّه السكينة «عليه» و «أيده» بجنودٍ لا تُرى. إلی من يعود هذان الضميران الغائبان. «عليه و أيّده»؟! بما أنّ الجملتين معطوفتين علی بعضهما، لابدّ و أن يعود الضميران الی واحد. فمن هو؟! مَن الذی أنزل اللّه سكينته عليه، و أيّدهُ بجنود مستورين؟!

كان رؤوس الشرک فی قريش قد وضعوا مخططاً لقتل النبیّ. فخرج النبیّ من مكّة ليلاً و نام علی بن أبيطالب فی فراشه، و غطّی وجهه لكی يظنّ الاعداء أن النبیّ نائمٌ فی فراشه. و غادر النبیُّ المكة. و فی الطريق لقی أبابكر. فاصطحبه معه. و اختبآ كلاهما فی غار. و جاء المشركون علی أثرهما مقتفين آثار الاقدام حتی وصلوا الی الغار. كان الموقف فی غاية الخطورة. و شعر أبوبكر بالاضطراب عند سماع صوت المشركين. فأخذ النبیّ يسلّيه و يقول له أنّ اللّه معنا. فأرسل اللّه جنوده؛ حمامة و عناكب. سارعت العناكب الی نسج خيوط علی باب الغار، و بنتْ الحمامة عُشّاً و باضت فيه. و هنا تعجّب المشركون و أخذتْهم الدهشة. فآثار الاَقدام تصل إلی باب الغار لكن أحداً لم يدخل الغار، و لو كان أحدٌ قد دخل الغار لتمزّق نسيج العنكبوت و لانهار عشّ الحمامة. فلابد إذاً أن يكون محمد قد عاد من حيث أتی، أو ربّما يكون قد غاص فی باطن الارض، أو ما أدراک لعلّه صعد إلی السماء!!

إذاً فمن الواضح أن اللّه قد نصر نبيّه. و علی هذا فإنَّ الضمير فی «أيّده بجنودٍ» يعود إلی النبیّ. و إذا علمنا أنّ هذه الجملة معطوفة علی الجملة السابقة لها، و من الواضح أن الضمير فی الجملة السابقة يعود علی النبیّ أيضاً؛ أی أنّ اللّه أنزل السكينة علی النبیّ و نصره بجنوده.

و قد يقول قائل أن النبیّ لم يكن بحاجة إلی نزول السكينة عليه. فهو لم يكن فی حالة من الاضطراب و القلق، و انما الذی كان فی قلق و حزن هو أبوبكر، و إنَّ السكينة قد نزلت عليه. و نقول أن النبیّ إنسانٌ كبقية الناس قد يشعر بالخوف والقلق، مثلما كان الحال فی معركة حنين و بيعة الشجرة، حيث كان النبیّ والمؤمنون فی قلق، وأنزل اللّه الامن و السكينة عليهم.

«**ثُمَّ أَنَزلَ اللّه سَكِينَتَهُ عَلَی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِينَ**». التوبة، ۲۶.

إذاً نزول السكينة و النصرة بجنود اللّه فی الغار فضيلة للنبیّ صلی‌الله‌عليه‌وآله لا لأبی‌بكر.

نعود إلى صلب الموضوع، فأبوبكر كان أحد أثنين، فهل هذه فضيلة له؟! و كان مرافقاً و مصاحباً للنبىّ، فهل فى هذه الصحبة فضيلة له؟! كان أنس بن مالک خادماً للنبىّ عدّة سنين، و لو كانت الصحبة توجب فضيلة لكان أنس أفضل من أبى‌بكر! و عدا عن ذلک فقد وردتْ كلمة صاحب فى القرآن بشأن أى مصاحب. و من ذلک أن االنبىّ يوسف كان معه فى السجن فتيان غير موحِّدَيْن. و مع ذلک كان يخاطبهما يوسف بكلمة يا صاحبى السجن! (يوسف، ٣٩) فهل لهذين فضيلة لمصاحبتهما نبيّاً؟! و نلاحظ فى موضع آخر انّ مؤمناً ينصح كافراً، و كان المؤمن صاحب الكافر! (الكهف، ٣٧)

و على هذا فالصحبة لا توجب فضيلةً و لا مقاماً. و آية الغار لا تدلّ عن فضيلة لأبى‌بكر، بل تنطوى على مذمّة له؛ لانّ اللّه تعالى متى ما أنزل السكينة و الامن جعل للمؤمنين نصيباً منها و أشركَهم فيها مع النبىّ. فلماذا لم يكن أبوبكر شريكاً للنبىّ فى السكينة التى تشير إليها آية الغار؟! و لماذا الضمائر فى هذه الآية مفردة، و تعود إلى النبىّ و لم‌ترد بصيغة المثنّى؟! و لماذا لم‌يكن لأبى‌بكر –كما لبقية المؤمنين– نصيبٌ فى السكينة التى نزلتْ على النبىّ؟!

لنَدَع هذا الافتراض جانباً؛ فهذه الآية لا صلة لها بالامامة و الخلافة. فإن كان النبىّ قد اصطحب معه أبابكر فى سفره هذا، فهو قد أصطحب علياً عليه‌السلام فى سفره إلى الطائف. فمرافقة النبىّ ليست دليلاً على الخلافة.

الثالث؛ الاجماع و الاتّفاق

الدليل الثالث الذى يُستدل به على استخلاف أبى‌بكر، إجماع المسلمين واتفاقهم على ذلک! يقولون: أنّ المسلمين اتفقوا على خلافة أبى‌بكر! و الطريق الذى يسلكه عموم المسلمين لا يقبل الخطأ. إذاً فخلافة أبى‌بكر ليست خطأً.

هذا الاستدلال فيه ادعاءان رئيسيّان: الاول، اتفاق المسلمين على خلافة أبى‌بكر. و الثانى، إنّ إجماع المسلمين، أو أصحاب النبىّ البارزين يُعدّ بحد ذاته حجّة و دليلاً.

و هنا يتبادر إلى الاذهان سؤال و هو هل كان المسلمون كلّهم رضوا بخلافة أبى‌بكر؟! و هل أجرى بعد وفاة النبىّ استفتاء عامّ و أجمع فيه كلّ المسلمين على خلافة أبى‌بكر؟!

أخذ الاسلام فی أواخر حیاة النبیّ، یمتدّ تدریجیاً إلی خارج تخوم شبه جزیرة العرب، ای ما یُسمّی الیوم بالسعودیة، و الیمن و بلدان الخلیج. و لکن استخلاف أبیبکر جاء حصیلة للاجتماع المعروف باسم «السقیفة». فهل کان المسلمین فی نجد أو الیمن أو مکّة لهم تأثیرٌ فی هذا الاجتماع[1]

و هل اشترک کلّ مسلمی المدینة فی هذا الاقتراح؟!کان جماعة منهم منشغلین بتکفین و دفن النبیّ. و هؤلاء کانوا غیر مهتمّین لامر الرئاسة و المناصب، و إنّما کانوا یبکون حزناً علی وفاة النبیّ. و لعلّ بعض المسلمین کانوا فی دورهم أو فی مزارعهم. و اجتمعت جماعة قلیلة فی سقیفة بنیساعدة.

قد یقول قائل أن أهل الحلّ و العقد و هُم کبار القوم و ذووالرأی فیهم قد حضروا فی هذا الاجتماع. و هذا یعنی أن استخلاف أبیبکر ما جاء نتیجة لاتفاق المسلمین کلّهم، و إنّما تقرر فی اجتماع طائفة معیّنة ترکتْ مراسیم دفن نبیّهم واجتمعوا هناک للتباحث حول قضیّة السلطة و الرئاسة.

و هنا یحق لنا أن نتساءل: ألم یکن علیاً من أهل الحلّ والعقد؟! و ألمیکن المقداد، و سلمان، و أبوذر من کبار الصحابة؟! فهل حضروا اجتماع السقیفة؟!

و هل کلّ من کانوا فی السقیفة وافقوا علی خلافة أبیبکر؟ کلا طبعاً. فبعض الانصار قالوا: «منّا أمیرٌ و منکم أمیرٌ». (بحار الانوار، ج۲۸، ص۳۲۳) و لکن أبابکر استدلّ فی مقابل هذا الکلام بقول رسول اللّه صلیاللهعلیهوآله : «**الائمة من بعدی من قریش**».[2] و حینما قیل لعلی بأنّ أبیبکر احتجّ علی غیره – لاجل الحصول علی الخلافة– بأنّه من شجرة رسول اللّه، قال: «**احتجوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة**». نهج البلاغة، الحکمة ۶۷.

و قال جماعة آخرون: لا نبایع إلاّ علیّاً. تاریخ الطبری، ج۲، ص۴۴۳.

- بعدما تولّی أبوبکر الخلافة کتب إلی أبیه الذی یعیش فی الطائف رسالةً جاء فیها أن الناس قد تراضوا بی فأنا الیوم خلیفة رسول اللّه، و لو قدمت إلی المدینة لکان أحسن بک. فلمّا قرأ أبوقحافة الکتاب قال للرسول: ما منعهم من علی؟ فقال: هو حدث السنّ، و قد أکثر القتل فی قریش و غیرها، و أبوبکر أسنُّ منه. فقال أبوقحافة: إن کان الامر فی ذلک بالسنّ فأنا أحق من أبیبکر! ثمّ أنّه کتب إلی أبیبکر کتاباً حذّره فیه من قبول الخلافة. بحارالانوار، ج۲۸، ص۳۲۳. [1]

و قد يقال لنا هنا إنّ باقى المسلمين أقروا خلافة أبى‌بكر تدريجياً و رضوا بها! و لكن هل بايع علىٌّ عليه‌السلام أبابكر عن رضىً و قناعة؟! أم أُكرهَ على البيعة إكراهاً؟! و إذا كان المسلمون قد ارتضوا كلّهم ببيعة أبى‌بكر، فلماذا جاء عمر معه جماعة إلى دار على و فاطمة عليهماالسلام ، و ارتكبوا جنايات، و أخذوه قهراً إلى المسجد لمبايعة أبى‌بكر؟!

و هل رضى سعد بن‌عبادة بمبايعة أبى‌بكر، أم خرج هارباً من المدينة، و فى الطريق قتلتْه الجن بسهمٍ صوّبته إلى فؤاده!! و إذا كانت بيعة أبى‌بكر موضع قبول جميع المسلمين، فلماذا امتنع بلال عن الاذان لأبى‌بكر، و امتنع مالک بن‌نُويرة عن دفع الزكاة له؟! و اذا كان أبوبكر إماماً مرضيّاً عند جميع المسلمين فلماذا هجرتْه الزهراء عليهاالسلام و لم‌تكلّمه ايّاه و عُمرَ الى آخر حياتها، و ظلّت غاضبة عليهما؟! صحيح البخارى، ج۵، ص۱۷۷.

الحقيقة هى أنّ خلافة أبى‌بكر لم تكن حصيلة اتفاق عامّ، و إنما كانت حسب قول أقرب أنصاره، عُمر: «كانت بيعة أبى‌بكر فلتةً وقى اللّه المسلمين شرَّها و مَن عادَ لمثلها فاقتلوه».[1]

المقدّمة الثانية للاستدلال السابق هى أن الامّة لا تجتمع على خطأ. و هذا الكلام يستند إلى آية من القرآن الكريم، و إلى حديث نبوى.

«**وَ مَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً**». النساء، ۱۱۵.

يقول أهل الجماعة أنّ المسلمين إذا اتّفقوا على شىء، يجب أن لا يختلف عليهم أحدٌ، بل عليه أن يلتزم بما اتفقوا عليه!

و نقول فى ردّ هذا الكلام: لو خالف المسلمون فى قضيّةٍ حكمَ اللّه و رسوله، أينبغى اتّباع المسلمين أم اتّباع حكم اللّه؟! فى معركة أُحُد لم‌يصمد عموم المسلمين و فَرّوا من ساحة المعركة، و بقى النبىّ و معه ثلاثة عشر نفراً. (المغازى للواقدى، ج۱، ص۲۴۰) و لو كنتم أنتم فى ذلک الموقف، ماذا كنتم تفعلون؟!

[1] - صحيح البخارى، ج۱۰، ص۴۴؛ مسند أحمد، ج۱، ص۵۵۰؛ سيرة ابن‌هشام، ج۴، ص۲۳۸.

هل كنتم تقولون أنّ عموم المؤمنين قد فرّوا، فيجب الفرار معهم؟! و فی معرکة حنین أیضاً بوغت المسلمون و فرّوا و ترکوا الرسول و معه عشرة، و العباس عمّ النبیّ ینادیهم: «یا أهل بیعة الشجرة یا أصحاب سورة البقرة! إلی أین تفرّون؟! اذکروا العهد الذی عاهدتم علیه رسول اللّه». (بحار الانوار، ج۲۱، ص۱۵۴)، فعاد المسلمون تدریجیاً. فهل ینبغی فی مثل هذا الموقف اتباع الطریق الذی سار علیه عموم المسلمین؟! لاحظوا ما ورد فی سورة الجمعة: «**وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللّه خَيْرٌ مِنَ اللَهوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللّه خَيْرُ الرازِقِينَ**». الجمعة، ۱۱.

نقل کلّ من فسّر هذه الآیة انّ النبیّ یخطب یوم الجمعة فمرّت علیه قافلة تحمل الطعام، و سُمع صوت الطبول. فهرع إلیها المسلمون و ترکوا رسول اللّه قائماً یخطب و معه اثنا عشر رجلاً. فنزلت آیات سورة الجمعة فی تقریع عموم المسلمین. فقال رسول اللّه للمسلمین: «**و الذی نفسی بیده لو تتابعتم حتی لم یبق منکم أحدٌ لسال بکم هذا الوادی ناراً**». تفاسیر البیضاوی، ج۵، ص۲۳۷ و ابن‌کثیر، ج۴، ص۳۶۸.

فلو کنتم أنتم فی المسجد تستمعون إلی خطبة النبیّ، ماذا کنتم تفعلون؟! أکنتم تقومون کما قامت الاکثریّة و تنشغلون بالبیع و الشراء و اللغو؟ و هل ینبغی اتباع المسلمین حیثما ذهبوا؟! حتی و ان خالفوا النبیّ و القرآن؟! و إذا کان النبیّ قد أوصی –بأمر ربّه– لاحدٍ بالخلافة من بعده، هل یجوز للمسلمین ترک کلام النبیّ و وصیّته، و انتهاج طریق آخر غیره؟!

إذاً فالمؤمنون –فی ضوء ما تملیه صفة الایمان – یجب أن یختاروا علی الدوام ما اختاره اللّه ورسوله. و إذا خالفت جماعة – حتی و إن کانت أکثریة – أمرَ اللّه و رسوله، لا تصحّ متابعتهم.

«**قُلْ أَطِيعُواْ اللّه وَ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّه لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**». آل‌عمران، ۳۲.

و أما ما نُقل عن النبیّ أنّه قال: «أصحابی کالنجوم بأیّهم اقتدیتم هدیتم». (شرح ابن‌ابی‌الحدید لنهج‌البلاغة، ج۲۰، ص۱۱)، فمع ضعف اسانید الحدیث عند الکلّ نقول انّ أصحاب النبیّ لم یکونوا کلّهم عدول. و انّما کانت هناک علی الدوام بینهم جماعة من المنافقین و ضعفاء الایمان. إذاً فاتباع کلّ واحد منهم لا یوجب الهدایة. فمعاویة أیضاً رأی النبیّ و سمع کلامه، وکان –بناءً علی ما یقوله أهل الجماعة – فی عداد أصحابه. و لکن هل اتباع معاویة یؤدی إلی الهدایة؟! أصحاب النبیّ فی حیاته و بعد وفاته

كانت لديهم خلافات فى ما بينهم، حتى بعضهم كانوا يلعنون بعضاً، و شروا السيوف فى بعضهم و أراقوا دماء بعضهم! فهل يُصدّق أن النبىّ قال: بأيّهم أهديتهم اقتديتم؟! و هل يُجوّز أحدٌ اتباع مثل هذه الجماعة؟!

الائمة الآخرون

كان هناک على الدوام أُناس اصطفاهم اللّه و كلّمهم و جَعلهم كهداةٍ للناس. سواء كانوا إنبياء:

«**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْکَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الاَسْبَاطِ وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً**». النساء، ١٦٢.

أو أحداً كمريم عليهاالسلام ؛ فهى و ان لم تكن نبيّة، و لكنّها كانت مؤهّلة للارتباط بالحق.

«**وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّه اصْطَفَاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفَاکِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**». آلعمران، ۴۲.

و هل الوحى الذى كان ينزل على رسول اللّه انقطع بعد وفاته؟

و أليس هناک فى الامّة من يكون حجّة للّه على الخلق؟!

يعتقد الشيعة أنّ الارض لا تخلو من حجة و هادٍ، و لابد أن يكون فيها هادياً. و العلاقة بين الخلق و الخالق لم و لن تنقطع أبداً منذ هبوط آدم و الى يوم تقوم الساعة. فأما أن يكون بين الناس نبىّ أو وصىّ نبىّ. و الوصى طبعاً لا يوصى إليه مثلما يوصى إلى الانبياء، و لكنّه على ارتباط باللّه بنحوٍ ما؛ ترعاه روح قدسيّة و تسدّده الملائكة بأمر اللّه. و أهل الجماعة ليس لديهم مثل هذا الاعتقاد. و إنّما يقولون أن الوحى و كلّ علاقة بين الارض و السماء قد انقطعت بوفاة النبىّ.

و لكن لو عدنا إلى القرآن بما يمثّله من ركيزة راسخة، و عرضنا عليه هذا السؤال: هل هناک بعد النبىّ من أحدٍ له ارتباط باللّه لكى لا تخلو الارض من حجّة؟

لنجد الجواب فى سورة القدر فى قوله تعالى:

«**إِنَّا أَنزلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَ مَا أَدْرَاکَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**».

ليلة القدر يعظّمها كلّ المسلمين، و يُحيونها إلى الفجر بالعبادة. و يؤمنون أنّ مقدّرات كلّ إنسانٍ تُكتب فى هذه الليلة، من عمرٍ، و أجل، و سلامة و مرض، و ثروة و فقرٍ، و سفر و حضر، و كلّ شیء.

و ليلة القدر إحدى ليالى شهر رمضان، و يُحتمل أنّها فى العشرة الثالثة منه. و يحتمل الشيعة أنّها الليلة الثالثة و العشرون على الاغلب بينما يذهب نظر أهل الجماعة إلى الليلة السابعة و العشرين على الاكثر.

و يعتقد المسلمون عموماً انّ هذه الليلة لاتختص بزمان النبىّ، بل تمتدّ حتى بعد وفاته. و هذه كرامةٌ مِنَ اللّه لهذه الاُمّة إلى يوم القيامة.[1] و كذا نُقل عن أنس بن مالک أنّ النبىّ صلىاللهعليهوآله قال: «**انّ اللّه تعالى وهبَ لاُمتى ليلة القدر لميعطها مَن كان قبلهم**». تفسير روح المعانى، ج ٣٠، ص١٨٨.

و روى ابنكثير أنّ أباذر سأل رسول اللّه صلىاللهعليهوآله : هل ليلة القدر رُفعت مع الانبياء أو هى باقية إلى يوم القيامة؟! فقال النبى: «باقيةٌ إلى يوم القيامة»، و هذا ما يمكن أن يفهم أيضاً من سورة القدر لانّ فيها كلمة «تَنزَّلُ» و هى فعل مضارع دالّ على الدوام و الاستمرار. و هنا نطرح بعض الاسئلة حول ليلة القدر:

الاوّل: جاء فى هذه السورة أن الملائكة و الروح تنزّل فيها من كلّ أمر. فما معنى «من كل أمر»؟!

جواب هذا السؤال يمكن العثور عليه فى الروايات المنقولة عن الفريقين؛ الشيعة و السنّة. فالملائكة تنزّل مقدّرات الناس فى ذلک العام. و فى سورة الدخان آيات دالّة على هذا المعنى أيضاً.

الثاني: على من تنزّل الروح و الملائكة؟ و على من يعرضون مقدّرات ذلک العام؟!

كتب عموم المفسّرين مِن أهل السنّة أنّ الملائكة والروح تنزّل على جميع المؤمنين و ينزلون عليهم الرحمة و السلامة. و لكن هذا التفسير لا ينسجم مع القرآن. لنلاحظ هاتين الايتين:

«**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**». الدخان ٤-٣.

---

[1] - صرّح المفسّرون عند تفسيرهم لسورة القدر على امتدادها و استمرارها بعد النبىّ؛ كتب البغوى فى تفسيره: رأى عامة الصحابة و العلماء أنّها باقيّة إلى يوم القيامة. و قيل لابيهريرة زعموا أنّ ليلة القدر قد رُفعت. فقال: كذب من قال ذلک. ج۴، ص٥٢٩. و راجع فى هذا المجال أيضاً: تفاسير مجمع البيان، ج٥، ص٥١٧؛ زاد المسير، ج٩، ص١٨٢؛ القرطبى، ج ٢٠، ص١٣٥؛ ابنكثير، ج ۴، ص٥٣٣؛ الدرّ المنثور، ج٨، ص ٥٧٠.

وبناءً على ما تفيد به الآيتان أنّ الملائكة ينزّلون مقدّرات كلّ فرد فی تلک السنة إلی الارض. و لکن هل حقّاً تنزل مقدّرات السنّة علی المؤمنین؟ و هل أحد من المؤمنین ادّعی ذلک؟!

«**يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ**». النحل، ۲.

هذه الآیة تدلّ صراحة علی أن الملائکة و الروح لا ینزلون علی الناس العادیین، و إنّما علی من یصطفی اللّه ممن یبلّغون دینه و یکونون هُداة لعباده. فلیس کلّ عبدٍ –و إن کان مؤمناً– خلیقاً بأن تنزل علیه الملائکة و الروح.

«**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ**». غافر، ۱۵.

الملائکة لا ینزلون علی الناس العادیین و إنّما ینزلون علی من یرتضیهم اللّه و یصطفیهم؛ ینزلون علی نوح، و موسی، و عیسی، و نبیّنا محمد علیهمالسلام . و هنا نضع هاتین المقدّمتین إلی جانب بعضهما:

❊ لیلة القدر غیر مختصة بزمن النبیّ و انما باقیة إلی یوم القیامة.

❊ فی لیلة القدر تنزّل الملائکة و الروح علی من یصطفیهم اللّه، و مَن لهم ارتباط خاصّ حیث انّهم یخطون کالانبیاء بتسدید من اللّه.

❊ إذاً لابد و أن یکون للّه حجة فی الارض دوماً، و هم حلقة الوصل بین المخلوق و الخالق، و هم امتداد لرسالة الانبیاء، ولکن علی شکل أئمة و هداة للمسلمین، لکی تنزل علیه الملائکة.

نستعرض هذا الدلیل مرّة أخری:

لیلة القدر باقیة إلی یوم القیامة کما یفهم المضارع «تنزّل» الوارد فی سورة القدر، و کما تصرّح بذلک الاحادیث النبویة.

و استناداً إلی ما تفید به سورة القدر، و الآیتان من سورة الدخان، تنزّل الملائکة و الروح إلی الارض و معهم مقدّرات ذلک العام.

و استناداً إلی الآیة الثانیة من سورة النحل، و الآیة الخامسة عشر من سورة غافر، تنزّل الملائکة والروح علی الائمة و الهُداة.

فإذاً لابد و أن یکون هناک بعد النبیّ، بل مادامت لیلة القدر، قائدٌ إلهی علی الارض.

و لكن هل فى الاخبار و الروايات ما يدلّ على هذا المعنى؟

أفردت كتب الحديث الشيعية فصلاً لمثل هذه الاحاديث التى تشير إلى أن الارض لا تبقى من غير حجّة. و لكن ماذا حول كتب أهل الجماعة؟! هل فيها مثل هذه الاخبار؟ لاحظ هذين الخبرين المنقولين عن النبىّ صلى‌الله‌عليه‌وآله :

«**من مات و ليس له إمامٌ مات ميتةَ الجاهلية**». صحيح ابن‌حبّان، الحديث ۵۵۸۳.

«**من مات بغير إمامٍ مات ميتةَ الجاهلية**». صحيح مسلم، الحديث،۱۶۵۵۷ و مسند أبى‌داود، ص۲۵۹.

و يمكن أيضاً ملاحظة وجود الرواية التالية فى كتب أهل الجماعة فضلاً عن كتب الشيعة:

«**من مات و لم يعرِف إمام زمانه ماتَ ميتةَ الجاهليّة**». أصول الكافى، ج۱، ص۳۷۶ و المقاصد للتفتازانى، ج۲، ص۲۷۵.

و من الواضح أن هذه الروايات تدلّ على وجود إمام لكى نبايعه. قال أميرالمؤمنين: «**اللهمّ بلى لا تخلو الارض من قائمٍ للّه بحجّة امّا ظاهراً مشهوراً و أما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج اللّه و بيّناته...أولئک خلفاء اللّه فى أرضه و الدعاة إلى دينه**». نهج البلاغة، الحكمة۴۷.

و هنا يحقّ أن نتوجّه بهذا السؤال لاهل الجماعة: من هو هذا الامام الذى تؤدّى عدم معرفته و عدم مبايعته إلى الخروج من الاسلام.

و جوابهم عن هذا السؤال يثير العجب! يقولون: المراد طاعة الامراء و الحُكّام و بيعتهم. فيجب البيعة و الإطاعة لكلّ أمير مسلم. و هو الامام. هنا نتوجّه إليهم بسؤال آخر عن معنى الآية الشريفة:

«**وَ لاتَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُم مِن دُونِ اللّه مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**». هود، ۱۱۳.

الا تعتبر مبايعة الظالم و اتّباعه ركوناً إليه؟!

«**وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**». طه، ۱۱۱.

أليس بيعة الظالم و تأييده مشاركةً له فى ظلمه؟!

«**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِکَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ**». الشورى، ۴۲.

فهل يجب الانصياع والخضوع لمن وعدهم اللّه بأليم عذابه؟!

لنستمع إلى كلام رسول اللّه فى هذا الباب. نقل أحمد بن حنبل عن الخبّاب بن الارت انّه قال: إنّا لقعود على باب رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ننتظر أن يخرج لصلاة الظهر إذ خرج علينا فقال: اسمعوا. قلنا: سمعنا. ثم قال: اسمعوا. فقلنا: سمعنا. فقال: «**أنّه سيكون عليكم أمراء فلاتُعينوهم على ظلمهم و لاتُصدّقوهم بكذبهم فإنّ مَن أعانهم على ظلمهم و صدّقهم بكذبهم فلن يردَ عليّ الحوض**».[1]

أليست مبايعة الحاكم تأييداً له؟! أليس اطاعته إعانةً له؟ ألم ينهنا اللّه عن التعاون على الاثم؟! (المائدة، ٢).

أليس الظلم إثماً؟! فكيف تقولون أنّ كلّ من أمسک بزمام الحكم فإطاعته واجبة و بيعته لازمة حتى و إن كان مثل يزيد و معاوية؟!

كلا، إنّ الامامة عهد إلهى لا ينال الظالم. و الامامة حبل موصِل باللّه، و معرفة مثل هذا الامام من مقومات الايمان، و مبايعته تسليم للّه.

و فى ضوء مفاد آيات سورة القدر، و استناداً إلى الاحاديث النبويّة الواردة فى معرفة الامام و مبايعته، يصبح من المؤكَّد لدينا أنّه لابد من وجود «إمام» بين المسلمين بعد النبىّ، بل إلى قيام الساعة. و الان ينبغى أن نرى من هُم هؤلاء الائمة؟!

قد ورد حديثٌ نقله جميع كتب الحديث المعتبرة لدى الشيعة و السُنّة، و لعلّه يمكن إدعاء التواتر فى نقله، و هو أنّ النبىّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «**الائمة من بعدى أثنى‌عشر كلّهم من قريش**».[2]

و قد لاحظنا أنّ أبابكر عند احتجاجه على الانصار فى سقيفة بنى ساعدة، استدل عليهم بهذا الحديث بانّ أهل المدينة لا تكون لهم الامامة؛ لانّ الامامة لا تكون الّا فى قريش.

و جاء فى بعض هذه الروايات أنّ هؤلاء الائمة من بنى هاشم بدلاً من أن يكونوا من قريش: «**كلّهم من بنى‌هاشم**». و جاء فى رواية أخرى أنّ النبىّ قال متمماً هذا الكلام: «**باقون إلى قيام الساعة**».

---

[1] - إرشاد القلوب، ج١، ص٧٠؛ النسائى، ج٧، ص١٨٠؛ مسند أحمد، الحديث٢٦٨١١.

[2] - بحار الانوار، ج٣٦، ص٢٣٥؛ مسند أحمد، ج٥، ص١٠٦و٣٩٨؛ صحيح مسلم، ج٢، ص١١٩؛ البخارى، ج٩، ص١٠١؛ الترمذى، ج۴، ص١٠۶؛ كنز العمال، ج۶،ص١۶٠؛ سنن أبى‌داود، ج۴،ص١٠۶؛ فتح‌البارى، ج١٣، ص١٨٠.

و مما تجدر الاشارة إليه هنا أنّه جاء فى نصّ التوراة أنّ اللّه عزّ و جلّ وعدَ إبراهيم عليه‌السلام أنْ يجعل من نسل إسماعيل أثنى عشر رئيساً.

«و أما إسماعيل فسمعتُ لک، و ها أنا أُباركه و أُنمّيه و أكثّره جدّاً، و يلد أثنى عشر رئيساً». التوراة، سفر التكوين، الجزء١٧، الفقرة ٢٠.

و هنا نسأل أهل الجماعة: من هم هؤلاء الائمة الاثنى عشر فيما يُروى عن النبیّ؟!

اعترف بعض علمائهم بأنّ هذا الحديث عندهم قطعى و صحيح، و لكنّه غير ذى معنى!!.[1]

يقول أهل الجماعة أنه كان بعد النبیّ أربعة أو خمسة خلفاء راشدون، و هم أبوبكر، و عمر، و عثمان، و علیّ عليه‌السلام . و لكنّهم يختلفون حول الحسن عليه‌السلام . و لكن ماذا بعد هؤلاء الاربعة أو الخمسة؟! هل يمكننا أن نعتبر معاوية أو أبنه يزيد –مع كلّ ما اقترفاه من الظلم و الذنب– إمامين و قائدين؟! و هل خلفاء بنی‌أمية أئمة هدىً أم بنی‌العباس؟!

الخلفاء من سلالة بنی‌أمية كانوا أكثر من هذا العدد. و كذا الخلفاء من سلالة بنی‌العباس. و انّ الخلفاء الراشدين أقل من هذا العدد. هذا الواقع دفع بعض أهل الجماعة إلى الاختيار. فبعد خلافة الامام الحسن، لم يقبلوا خلافة معاوية و يزيد و مَن تلاهما إلى أن وصلا إلى عمر بن عبدالعزيز؛ فاعتبروه الخليفة السادس. و رفضوا مَن جاء بعده إلى بنى العباس، و هكذا. و لكن ما المعيار فى هذا الاختيار؟!

ثمّ إن لم يكن معاوية و يزيد إمامين، فمعنى ذلک أنّه لم يكن للمسلمين إمامٌ بعد الامام على عليه‌السلام أو الامام الحسن عليه‌السلام ، إلى عهد عمر بن عبدالعزيز. و لكننا أثبتنا أنه لابد للمسلمين من إمامٍ فى كلّ عصر يبايعونه و يتّبعونه.

و اَضف الى ذلک انّه يجب أنْ تستمر إمامة هؤلاء الائمة الاثنى عشر إلى يوم القيامة، فهل تعرفون أحد من خلفاء بنی‌أمية و بنی‌العباس الغارقين فى الخلاعة والمجون قاد الامّة الاسلامية إلى يوم القيامة؟!

---

[1] - عارضة‌الاحوذى فى شرح‌الترمذى،ج٩،ص٩ وفتح‌البارى، ج١٣، ص١٨٠.

و أیّ مذهب أو فریق یدعو إلی إتّباع أثنی عشر إماماً معصوماً بعد النبیّ، و کلّهم ذوو سیرة نیّرة معطاء؟!

فهل یمکن العثور علی نظیر کمال علی بن أبیطالب، و صبر الحسن المجتبی، و شجاعة الحسین الشهید، و عبادة زین‌العابدین، و علم محمد الباقر، و فقه جعفر الصادق، و کرم موسی الکاظم، و عقل علی بن موسی الرضا، و علم محمد الجواد، و کرامة علی الهادی، و حلم الحسن العسکری، و إمامة الحجّة بن الحسن علیهم‌السلام ؟!

أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله

من التساؤلات التی تُثار بشأن عقیدة الشیعة فی الامامة هو أنّ الصورة التی یرسمها الشیعة للاوضاع بعد وفاة النبیّ، توحی و کأنّ جمیع الصحابة قد تجاهلوا ذلک الامر الالهی و نقضوا البیعة، و خرجوا عن الحدود التی وضعها لهم النبیّ. بل أن الشیعة ینقلون حدیثاً بأنّ الناس کلّهم ارتدّوا بعد النبیّ إلّا نفر قلیل. فهل یتماشی هذا المعتقد مع معطیات العقل؟! و هل یُعقل أن من عاشروا الرسول و أخذوا منه المبادیء و نهلوا منه القیّم و عاشوا معه فی السفر و الحضر و الحرب و الصلح، و السَرّاء، و الضرّاء، قد ترکوا الدین و ارتدّوا عن الاسلام بمجرّد أن رحل عنهم؟!

الجواب انّه نعم، أنّ هذا المعتقَد معقولٌ، و حصلت نظائر له فی التاریخ. و من ذلک أن النبیّ موسی علیه‌السلام أنقذ بنی‌إسرائیل من ظلم فرعون و قومه و خلال المدّة التی کان یقودهم فیها موسی رأوا الکرامات و المعجزات علی یدیه، إذ انتصروا علی الفراعنة من غیر سلاح، و عبروا من بین أمواج البحر الهادرة. ثمّ بعد ذلک ذهب موسی إلی جبل الطور ثلاثین لیلة لمناجاة ربّه لینزل علیه التوراة و لکن اُضیفت عشرة أیام إلی المدّة المقررة سابقاً فتمّ المیقات اربعین لیلة. و لکن بنی إسرائیل لم یتحملوا غیاب موسی عنهم أربعین لیلة، فاعرضوا عن خلیفته هارون واتخذوا عجلاً جسداً له خُوار ربّاً لهم!!

قد يقول قائل أن هذه الانحرافات قد بدرت من بنیإسرائیل، أما الامّة الاسلامیة فحاشاها من ذلک. و لکن مما یلفت الانتباه أنّ النبیّ شبّه الامّة الاسلامیة ببنیإسرائیل و قال: «**لتتبعنّ سُنن من کان قبلکم شبراً بشبرٍ و ذراعاً بذراعٍ**». بحار الانوار، ج۲۸، ص۳۰ و مسند احمد، ج۲، ص۵۱۱.

نضع هذا الحدیث النبوی جانباً بکلّ احترام و نعود إلی القرآن الکریم، و نلاحظ أنّ القرآن نفسه احتمل وقوع مثل هذا الانحراف فی المسلمین حین قال: «**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن ماتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَی أَعْقَابِکُمْ وَ مَن یَنقَلِبْ عَلَی عَقِبَیْهِ فَلَن یَضُرَّ اللّه شَیْئاً**». آلعمران، ۱۴۴.

إذاً لا یُستبعد أن یعهد جماعة بعد وفاة النبیّ إلی إبعاد قیادة الامّة عن مسارها الاصلی استجلاباً لمصالحهم الفئویة و القبلیة. و أما بقیة المسلمین فیلزمون الصمت بالتهدید أو بالاغراء أو باللاأُبالیة. الم یَقُل رسول اللّه صلیاللهعلیهوآله : «**الا لاعرفنّکم ترتدون بعدی کفاراً یضرب بعضکم رقاب بعض الا إنّی قد شهدتُ و غبتم**». بحار الانوار، ج۲۳، ص۱۶۵ و صحیح البخاری، ج۷، ص۱۸۲.

و لاحظوا ما خاطب به أصحابه حین قال لهم: «**أنّکم محشورون إلی اللّه تعالی یوم القیامة حُفاة عُراة و أنّه سیُجاء برجالٍ من أمتی فیؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: یا ربّ أصحابی! فیقال: إنّک لا تدری ما أحدثوا بعدک، إنّهم لا یزالون مرتدین علی أعقابهم منذ فارقتهم**». بحار الانوار، ج۱، ص۱۴۵ و صحیح مسلم، ج۴، ص۵۸.

و الخبران الانف ذکرهما کلاهما منقولان عن کتب أهل الجماعة، و یقول فیهما النبیّ إنّ بعض أصحابه یرتدون من بعده. و قد نقل عن الامام الباقر علیهالسلام انّه قال: «**ارتدّ الناس بعد النبیّ الّا ثلاث نفر: المقداد بن الاسود و أبوذر الغفاری و سلمان الفارسی ثمّ أنّ الناس عرفوا و لحقوا بعد**». بحار الانوار، ج۳۴، ص۲۷۴.

لاحظوا هذا الخبر فی ضوء خلفیّة تاریخیة. فبعدما تربّع أبوبکر علی منبر النبیّ نتیجة لاصرار عمر، امتنع علی علیهالسلام و جماعة من المسلمین عن مبایعته. و أخذ علی و معه السیدة فاطمة الزهراء، و ولدیه الحسن و الحسین علیهمالسلام ، یدور ثلاث لیالی متتابعة علی دور المهاجرین و الانصار فی

المدينة و يذكّرهم بواقعة غدير خم، و مبايعتهم له كخليفة لرسول اللّه .[1] داعياً إيّاهم إلى الوقوف بوجه الانحراف، و أن يتأهّبوا للقتال فى الغد. و بعد تلک الليالى الثلاثة أعلن من أهالى المدينة الذى كانت لديهم مقدرة على القتال، ثلاثة فقط استعدادهم للثبات على البيعة لعلىّ عليه‌السلام. (بحار الانوار، ج۲۹، ص۴۶۷). فمع أنّهم كانوا يصلّون و يصومون و يجاهدون و يزكّون، غير أنّهم ارتدّوا عن الخط و المسار الذى رسمه النبىّ و القرآن لمستقبل الاسلام و المسلمين. و من الطبيعى أن قبول هذه الامور مما يستثقله أهل الجماعة غاية الاستقثال؛ و ذلک لانّهم يتصوّرون أنّ كلّ من رأى النبىّ و سمع كلامه فهو صحابىٌ و الصحابى عادلٌ و صالح فى كل الاحوال!!

هل الامر حقّاً كذلک؟! و هل رؤية النبىّ أو سماع صوته يُوجبان العدالة؟! و هل أحدٌ أقرب إلى المرء من زوجه أو ولده، فى حين نلاحظ فى القرآن أن ابن أحد الانبياء ينكر وجود اللّه و يصطف مع الكافرين، و كذلک زوجة نبى اُعتبرت مثالاً للكفر. (التحريم، ۱۰) و قد ذمّ القرآن بعض أزواج النبىّ، إلى حد أنّه يقول لهنّ فى بداية لقد انحرفت قلوبكنّ و عليكنّ بالتوبة. (التحريم، ۴)، ألا نقرأ فى القرآن:

«**وَمِمَنْ حَوْلَكُم مِنَ الاَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**». التوبة، ۱۰۱.

و هذه الآية تتحدث أيضاً عن أصحاب النبىّ:

«**وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُکَ فى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَ إِن لَمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**». النساء، ۱۴۵.

---

[1] عندما كان النبىّ عاد من الحج فى السنة الاخيرة من حياته، جمع المسلمين عند غدير خم، و خطب فيهم، و أخذ بيد على و قال: مَن كنتُ مولاه فهذا على مولاه». تناول العلامة الامينى فى المجلد الاوّل من كتابه «الغدير» هذه الواقعة التاريخية. و كان من الادلّة والشواهد التاريخية التى سردها فيه أن هذه الحادثة شهدها سبعون ألف نفر، و نقلها مائة و عشرة صحابة على الاقل. و نقلها أيضاً أربعة و ثمانون من التابعين، و ذكر أسماء ثلاثمائة و ستين من علماء الحديث الذين نقلوا هذا الخبر فى كتبهم، و أورد أسماء ستاً و عشرين كاتباً ألّفوا حول الغدير كتاباً. و قد نقل الالوسى عن الذهبى أن خبر «**من كنتُ مولاه فعلى مولاه**» متواترٌ، و من المؤكَّد أنّ النبىّ قال ذلک. روح المعانى، ج۲، ص۳۵۰.-

كان النبیّ فی فراش المرض، و هو قلق حول النبتة التی سقاها بدماء قلبه، و ضحّی فی سبیل استقامتها بأعزّ الناس علیه. یروم تسلیم الامّة إلی فردٍ أمین. ینظر حوله، ثم یقول: «**آتونی کتفاً و قلماً لکی أکتب لکم شیئاً لا تضلّون بعده أبداً**». و لکن عمر قال بحدّة: اترکوا الرجل فإنّه یهجر و قد غلبه الوجع، حسبنا کتاب اللّه!! و اختلف الحاضرون بین قائل یقول أعطوه ما یرید لیکتب وصیّته، و آخر یهمس أنّه محموم... فأغمض النبیّ عینیه و قال: «**قوموا عنی فلا ینبغی عندی التنازع**».[1]

هل مَن یتّهم الرسول بالهجر عادلٌ و أمین؟! و هل من أحاطوا بالنبیّ و منعوه من کتابة وصیّته عادلون و یجوز اتّباعهم؟! أ ما سمعوا:

«**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى * وَ مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**». النجم، ۴-۲.

الامام الغائب

التساؤل الاخر الذی یُثار حول معتقدات الشیعة، یدور حول غیبة الامام الثانیعشر. فالشیعة یؤمنون أن الابن الوحید للامام الحسن العسکری، آخر أوصیاء النبیّ قد غاب عن الانظار، و أنَّ اللّه قد ادّخره لوقت یری فیه الصلاح لظهوره لهدایة الناس و قیادة البشر.

و لعل هناک تساؤلات تُثار من جوانب مختلفة حول هذه العقیدة: فهل من الممکن مثلاً أن یعیش إنسان عادی عدّة قرون؟! و هل یمکن أن یطول عمر الانسان إلی هذا الحدّ؟

الامام و القائد یجب أن یعیش بین الناس لیکون قادراً علی حلّ المشاکل و تلبیة الحاجات، ألا تتنافی غیبته کلّ هذه المدّة مع وظائف الامام و واجباته؟! فما فائدة القائد إذا کان غائباً؟!

و حتی لو أجیب عن هذه التساؤلات. فهل ثمّة دلیلٌ فی القرآن علی وجود مثل هذا الامام؟!

---

[1] - بحار الانوار، ج ۳۰، ص۵۲۹؛ صحیح البخاری،الحدیث ۷۲۰۱؛ صحیح مسلم، الحدیث۴۱۸۷و۴۱۸۸؛ مسند أحمد، الحدیث ۲۲۳۴و۲۹۹۲.

هناک إمام وُلِد قبل عدّة قرون، ثم غاب عن الانظار، و من المقرَّر أنْ يظهر للناس فی وقت غير معلوم؛ بِيَد مَنْ حياة الانسان و موته؟! افترضنا فی هذا الکتاب أنّ قُرّاءه مسلمون، و يؤمنون بالقرآن وحياً من عند اللّه. و هذا يعنی أنّهم يؤمنون أن الموت والحياة بيد اللّه.

«**الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَکُمْ أَيُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**». الملک، ٢.

فاللّه يستطيع أن يميت فرداً فی سنّ الشباب، أو يعطيه عمراً عادياً، و يستطيع أيضاً إطالة عمره عدّة قرون. فحين يذکر تعالی نوحاً فی کتابه الکريم يبيّن أنه عکف علی دعوة قومه إلی التوحيد تسعمائة و خمسين سنة. و هذا يعنی أنه عاش علی الاقل عشرة قرون! (العنکبوت، ١۴).

فما فائدة الامام الغائب؟! و نحن نسألکم ابتداءً: ما هی وظيفة الامام فی نظرکم؟! و هل لرؤية جسميه تأثيرٌ فی أداء وظيفته؟! و هنا نعود إلی الآية الشريفة: «**وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**». الانبياء، ٧٣.

فالوظيفة الرئيسية للامام الهداية إلی الحقّ. و يمکن أن تکون هذه الوظيفة علی نحوين: أن يکون النبیّ أو الامام حاضراً بين الناس و يتحدث إليهم و يکلّمهم و يخطب فيهم. و هذا نوع مِن الهداية. و قد يهدی اللّه قلب أحدٍ بشکل مباشر أحياناً و من غير کلام و خطبة.

«**وَ مَن يُؤْمِن بِاللّه يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللّه بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ**». الانبياء، ٧٣.

فإن کان اللّه قادراً علی أن يأخذ بقلب الانسان بشکلٍ مباشر، و يهديه إذاً فهو يستطيع منح هذه القدرة للانسان أيضاً. مثلما أنّه تعالی قادرٌ علی تسخير الريح، ثم وهب تلک القدرة لسليمان. (ص، ٣۶)، و کذلک اللّه قادرٌ علی توجيه القلوب إلی جهةٍ ما؛ فمن الممکن انْ يفُوّض القلوب إلی الامام الغائب ليقوم بأهمّ وظيفة يُفترض أن يقوم بها الامام و هی هداية الناس إلی اللّه، سواء من خلال تسخير الوسائل و الادوات الظاهرية، أم بواسطة القوّة الباطنية.

و مِن حقّکم طبعاً أن تتساءلوا: و ماذا عن الوظائف الاخری للامام؟! فالقائد الربّانی يجب أن يعالج المشاکل اليومية لبنیالانسان، فيقيم دين اللّه، و يجيب عن الاسئلة الفکريّة و العقائديّة و الاجتماعيّة للناس. و هذا کلّه لا يتناسب مع الغيبة و الخفاء عن الانظار.

نُجيب عن هذا السؤال مع سؤال آخر و هو: لماذا جعل اللّه فترات زمنية تمتد عدّة قرون بين الانبياء، و خاصة أصحاب الشرائع منهم؟! فقد كانت الفترة بين المسيح ونبيّنا محمد صلی‌الله‌علیه‌وآله أكثر من ستمائة سنة؟!

يأتی نبی، و ينزل وحی، و يكلّم اللّه الناسَ عن طريق هذا المرسل، و يبيّن لهم طريق الهداية و طريق الضلال، و يَعِظهم، و يضرب لهم الامثال، و يسرد لهم القصص، و يعلّمهم الكتاب و الحكمة. و هذا يكفی لمن يريد الهداية! فقد أتم اللّه الحجّة!

«**قُلْ فَلِلّه الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**». الانعام، ۱۴۹.

و يجب أن تمرّ أزمنة و تأتی أجيال تلو الاجيال؛ و ذلک لانّه ما لَم يَهْلَهَل الوحی و الشريعة السابقة، و تنمسخ كليّاً على أثر التغيير و التحريف اللفظی و المعنوی، يبدو من العبث و اللغو بعْث نبیٍ جديد.

و لقد بعث اللّه النبیّ الاسلام، و جعل من بعده أحد عشر إماماً كان زمام الزعامة الظاهرية و الباطنية للمجتمع الاسلامی بأيديهم لمدّة تربو على مائتی و أربعين سنة، كانوا خلالها يرشدون المؤمنين، و عاشوا ظروفاً و تقلّبات شتّى، فتارة كان الحكم بأيديهم، و تارة آخری كانوا فی السجون. و مرّة كانوا ينهضون بمهمة التعليم، بينما كانوا ينهضون مرّة أخری بالقضاء، و مرّة ثالثة كانوا يقاتلون فی ميدان الحرب. و قد سُجّلت كلماتهم و ضُبطت سواء فيما يتعلق بسلوكهم مع زوجاتهم، أو مع أعدائهم، أو مع مواليهم، و المؤمنين، و مع الكافرين، و غير ذلک. و يمكن الرجوع إلى كتب الحديث و السيرة الكثيرة المعتبرة للاطلاع على كلمات أهل البيت و سيرتهم. اذاً فرَغم النقص الحاصل من جرّاء غيبة الامام، غير أن الاهتداء إلى الحق ليس متعذّراً. يقول الامام الصادق عليه‌السلام : «**لم تَخلُ الارض منذ خلق اللّه آدم من حجّة للّه فيها ظاهرٌ مشهور او غائب مستور و لا تخلو إلى أن تقوم الساعة مِن حجّة للّه فيها**».

فسُئل: كيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟! فقال: «**مثلما تنتفعون بالشمس إذا سترها السحاب**». بحار الانوار، ج۵۲، ص۹۲.

ونُقل هذا التشبية عن إمام الزمان عليه‌السلام نفسه أيضاً. ونقل جابر بن عبداللّه الانصاری مثل هذا الكلام عن رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله . وسرد العلاّمة المجلسی فی بحار الانوار ثمانية أوجه لهذا

التشبيه. و يمكن القول بإيجاز: ان الشمس المستورة وراء السحاب تصل إلينا كلّ فوائدها و بركاتها؛ حرارتها و طاقتها و إن كانت لا تُرى. و أنّ استتارها وراء السحاب ليس بإرادتها و لا لنقصٍ فيها، بل إنّ الظروف المناخية هى التى فرضتْ عليها مثل هذه المحدودية. و هكذا الحال بالنسبة إلى اختفاء الامام فالنقص هنا ليس فيه و إنما يعود إلى ظروف الحياة و ملابساتها. و نحن لو نظرنا إلى ظروف حياة الائمة الاخرين نجد أنّ الامام الجواد عليه‌السلام عاش خمساً وعشرين سنة، والامام الهادى عليه‌السلام أثنتين و أربعين سنة، و الامام العسكرى عليه‌السلام ثمانٍ و عشرين سنة، ثمّ استشهدوا. فقد أضاء اللّه طريق البشرية بأحد عشر مصباح هداية و لكنها سرعان ما كُسرتْ! و سيظهر آخر إمامٍ عندما تكون لدى الناس قدرة على تحمّل الحقّ و الانقياد له!

و لكن هل ثمة دليلٌ من القرآن على وجود مثل هذا الامام الغائب؟! و قد بيّنا فى الفصل السابق أن الارض لا تخلو -كما تفيد آيات القرآن و الاحاديث النبويّة- من حُجّة و إمامٍ. و لكن هل يمكن أن نعثر فى القرآن على حجةٍ غائبة و خافية عن الانظار؟

و الجواب إيجابى طبعاً. فمثلما كان هناک نبىّ ظاهر كموسى عليه‌السلام ، كان هناک أيضاً نبىّ غائب و مستور كالخضر. و عندما نرجع إلى الآية الستين إلى الآية الثمانين من سورة الكهف نلاحظ أن موسى كان من الانبياء أولى‌العزم و كان صاحب شريعة، و لعله ظنّ أنْ لا أحد فى الناس أفضل و أعلم منه. فأمره اللّه أن يذهب إلى عبدٍ من عباده و يتعلّم عنده. فأرسل موسى إلى الخضر الذى كان على ارتباط باللّه، و لكنه لم يكن مبعوثاً برسالة الى الناس. فوجد موسى الخضر و سافر برفقته. و أدرک حينذاک أنّه قد يكون هناک من هو أعلم و أفضل منه فى بعض الجوانب. إذاً هناک فى القرآن مثالٌ للحجة الغائبة و هو الخضر.

الغلو، ترفضه الشيعة الامامية

هل المسيح إنسان بعثه اللّه بالنبوّة، أم هو إله هبط فى جسم بشرى؟! هذا نقاش احتدم بين اتباع المسيح. و كان من ذلک أن اجتمع عدد من القساوسة و مِن الفئتين؛ أى ممن يؤيدون إلوهيّة المسيح، و

مَن يرفضونها، اجتمعوا عند قسطنطين قيصر الروم الذی اعتنق المسيحية حديثاً، و جاءت كلّ فئة بما لديها من أدلّة، من أجل تعيين الفئة الغالبة منهما. و لكن مؤيدی إلوهية المسيح كانوا أكثر عدداً، و كان عامّة الناس يؤيدونهم فی ما يذهبون إليه. لانَّ إلوهية المسيح تجعلهم فی موقف أعظم أمام اليهود، لانّه فی مثل هذه الحالة يكون اليهود أتباع نبی اللّه، بينما المسيحيون أتباع اللّه نفسه!! و كانت هذه الفكرة و هی أنّ المسيح إله هبط فی جسم بشری مشابهة لمعتقدات الروم القديمة و خاصة قسطنطين. كان الروم قبل اعتناق المسيحية يعبدون الاصنام؛ الاصنام التی كان فيها الاب و الابن و الزوجة بعضهم بعضاًا. فماذا كانت النتيجة؟!

كانت النتيجة أن أقرّت فی عام ۳۲۵ للميلاد فی مدينة نيقيّه و بدعم قسطنطين لائحةٌ اعتقادية تنصّ على ما يلی: «عيسى المسيح ابنُ اللّه، مولود من الاب، و هو المولود الوحيد من ذات الاب. ربٌّ من الربّ، نورٌ من النور، إلهٌ حقيقی من إلهٍ حقيقی، مولودٌ لا مخلوق، من ذات واحدة من الاب». تاريخ الكنيسة القديم فی روما و ايران، ص۲۴۴.

و منذ ذلک التاريخ فصاعداً صار عموم المسيحيين يعتبرون المسيح ابن اللّه. ثم أضافوا لاحقاً روح القدس. لكی تكون لهم آلهة ثلاث على غرار ما كان لدى الهندوس و عبدة الاوثان الروميين. و الان نقول: ألا يمكن أن يحصل لنا مثل هذا الانحراف نحن المسلمين؟! فقد حذّر رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله من هذه الظاهرة بقوله: «**لتتبعنّ سُنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ و ذراعاً بذراعٍ**». بحار الانوار، ج۲۸، ص۳۰ و مسند احمد، ج۲، ص۵۱۱.

والذين كانوا قبلنا هم اليهود و النصارى. و قد اقتفت مجموعة من المسلمين منذ البداية خُطا اليهود، و عمدوا إلى إيذاء النبی و أهل بيته؛ فأنكروا ولاية و إمامة أوصياء النبیّ و تجاهلوا منزلة أولياء اللّه.

و لكن أيّة فئةٍ يمكن أن تقتفی آراء النصارى؟! فإذا أردنا معرفة ذلک فما علينا إلّا أن نصغی لكلام النبیّ و هو يقول لعلی عليه‌السلام : «**انَّ فيکَ شَبَهَاً مَن عيسى بنَ مَريَمَ، اَحَبَّتْهُ النصارى حَتى اَنْزَلُوهُ بمَنْزِلَةٍ لَيسَ بِها وَ اَبْغَضَتْهُ اليَهُودُ حَتى بَهِتُوا اُمَّهُ**». بحار الانوار، ج۳۵، ص۳۱۸.

الغلو هو الخروج عن حدّ الاعتدال، و الابتعاد عن طريق الحق، سواء كان ذلک بالزيادة والتطرّف أو بالاستهانة و الانتقاص. و لکن تُسمی الزيادة و التطرّف غلّواً، و فی مقابله المقصِّر، و هو من لديه قصور فی النظرة الاعتقادية و قد تحدّث القرآن صراحة عن الغلو فی آيتين:

«**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَتَغْلُواْ فی دِينِكُمْ وَ لاتَقُولُواْ عَلَى اللّه إِلّا الْحَقَّ**». النساء، ١٧١.

«**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فی دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَ أَضَلُّواْ كَثِيراً**». المائدة، ٧٧.

کلتا الآيتين جعلت الغلو فی مقابل الحق. و فی الاولی يدعو القرآن الغلاة إلی إيمانٍ جديد و حقيقی، لانّ الايمان المخالط بالغلو لايتماشی مع عبادة اللّه. و بيّنت الثانية أنّ الغلو يؤدی إلی ضلال الفرد و إضلال الاخرين. و لکن الکلام فی کلی الايتين موجّه إلی أهل الکتاب. و لکن مع أن کلمة «أهل الکتاب» لا تشمل المسلمين، غير أن اتباع القرآن لابد و أن يصيبهم ما أصاب أتباع الکتب السماوية السابقة. فهناک فريق منهم يسير علی منهج التفريط بينما يذهب آخرون مذهب الافراط. و فی ضوء نظرة النصاری التی تتسم بالشرک، إلی نبيّهم، فقد وصف القرآن النبیَّ محمد صلیاللهعليهوآله بأنّما هو رسول اللّه، بشير و نذير، و أنّه بشرٌ يوحی إليه و انّه غير مسيطرٍ علی أحد، و أنّه لا يقول شيئاً و لا يمکنه الاتيان بمعجزة من عند نفسه. و يحذّر القرآن المسلمين أن لا يکونوا کطائفة من اليهود اعتبروا العزير ابن اللّه، و لا کالنصاری اعتبروا المسيح ابن اللّه، مبيّناً لهم أنّه تعالی «لم يلد و لم يولد و لا يکن له کفواً أحد». و يؤکد علی عدم جعل شیء آخر بدلاً من اللّه فی العبادة و الدعاء و الاستعانة و المحبّة.

و يذکر القرآن إلی جانب مَن غلوا فی الانبياء، جماعة ممن غلوا فی علماء دينهم؛ و ذلک أنّهم کانوا يطيعونهم فی کلّ ما يأمرونهم به، فيحللون لانفسهم ما يحلّلونه لهم و يستحرمون ما يحرّمونه عليهم، و بذلک فقد جعلوهم بمنزلة اللّه.

ينبّه النبیّ إلی أنّ شفاعته لا تنال الغلاة (بحار الانوار، ج٢٥، ص٢٦٩)، ويدعوهم إلی أنْ: «لا تَرْفَعُونی فَوقَ حَقّی فَاِنَّ اللّه تَعالی اِتَخَذَنی عَبداً قَبلَ اَن يَتَخِذَنی نَبيّاً». بحار الانوار، ج٢٥، ص٢٦٥.

و قال أمير المؤمنين علیه‌السلام : «یَهلُکُ فیّ اثنان؛ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ یُقْرِظُنی بِما لَیسَ لی وَ مُبْغِضٌ یَحْمِلَهُ شَنآنی عَلی أنْ یُبْهِتَنی». بحار الانوار، ج۲۵، ص۲۸۵.

و هناک أحادیث کثیرة تفید أنّ جماعة من هؤلاء الغلاة کانوا یقولون لامیرالمؤمنین: السلام علیک یا ربّنا! و أنّه دعاهم إلی التوبة فلم یستجیبوا له، فأمَرَ فحُفرت حفرتان متجاورتان، و وضع تلک الجماعة فی أحداهما و أضرم فی الاخری ناراً، لکی یئد فکرة الغلو فی مهدها، ثم دعا علی أولئک الغلاة وتبرّأ منهم، قائلاً: «**اللهمّ أنّی بریء من الغُلاة کبراءة عیسی بن مریم من النصاری اللهمّ أخذِلْهم أبداً و لاتنصر منهم أحداً**». بحار الانوار، ج۲۵، ص۲۸۴.

بل إنّه اعتبر الغلو وأحداً من رکائز الشرک الاربعة بقوله: «**بُنی الکفر علی أربع دعائم؛ الفسق و الغلو و الشکّ و الشبهة**». بحار الانوار، ج۲۵، ص۲۸۴.

فی زمان الامام الباقر علیه‌السلام ظهرت فرق جدیدة من الغُلاة؛ فأنکر البعض منهم موت الائمة السابقین و قالوا بخلودهم. و ذهب البعض منهم إلی أنّ للائمة مرتبة أسمی من العبودیة، بل هم شرکاء اللّه او قالوا انّ الائمة یخَلقون و یَرزقون أو انّهم آلهة! و منذ ذلک العهد فصاعداً غدت أسماء الکثیر من الرواة فی کتب الحدیث والرجال تقترن بوصف «کذّاب غالٍ». لَعَنَ الامام الصادق علیه‌السلام مثل هؤلاء الغُلاة والمفوّضة[1] بقوله: «**لعن اللّه الغلاة و المفوّضة فإنّهم صغّروا عصیان اللّه و کفروا و أشرکوا وضلّوا فراراً من إقامة الحدود و أداء الفرائض**». بحار الانوار، ج۴۴، ص۲۷۱.

و صرّح ایضاً بأنّ الاستماع إلی کلام الغلاة یُخرج المرء من الایمان.

«**أدنی ما یخرج الرجل من الایمان أن یجلس إلی غالٍ فیستمع إلی حدیثه و یصدّقه علی قوله**». بحار الانوار، ج۵، ص۸.

و قال علیه‌السلام أیضاً: «**إحذروا علی شبابکم الغلاةَ لا یفسدونهم فانَّ الغُلاةَ شرّ خَلق اللّه... الینا یرجع الغالی فلانقبله و بنا یلحق المقصّر فنقبله**». بحار الانوار، ج۲۵، ص۲۶۵.

- المفوّضة هم من یقولون انّ خلق و رزق الناس فُوّض الی الائمة. [1]

و بيّن الامام الصادق عليه‌السلام انّ كلام الغُلاة كان أشد وطأة على اميرالمومنين من كلام الخوارج. و قد قال ذات يوم لعلقمة: «**ما أعجب أقاويل الناس فی علی عليه‌السلام . كم بين من يقول أنّه ربّ معبود، و بين من يقول أنّه عبدٌ عاص للمعبود، و لقد كان قول من ينسبه إلی العصيان أهون عليه من قول من ينسبه إلی الربوبية**». بحار الانوار، ج۱۴، ص۲۱۹.

و قال الامام الرضا عليه‌السلام : «**اللهمّ إنّی أعوذ بک و أبرءُ اليک من الذين أدّعوا لنا ما ليس بحق اللهمّ لک الخلق و منک الرزق و إياک نعبدُ و إياک نستعين اللهمّ أنت خالقنا و خالق آبائنا الاولين و آبائنا الاخرين اللهمّ لا تليق الربوبيّة إلّا بک و لاتصلح الالهيّة إلّا لک فالعن النصاری اللذين صغّروا عظمتک و العن المضاهئين لقولهم من بريّتک اللهمّ إنّا عبيدک لا نملک لانفسنا نفعاً و لا ضرّاً و لا موتاً و لا حياةً و لا نشوراً اللهمّ من زعم انّا أربابٌ فنحن منه براءٌ و من زعم انّ إلينا الخلقُ و علينا الرزق فنحن براءٌ منه اللهمّ انّا لا ندعوهم إلی ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون و اغفر لنا ما يدّعون *و لا تدع علی الارض منهم دياراً إنّک أن تذرهم يُضلّوا عبادک و لا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً**»**. بحار الانوار، ج۲۵، ص۲۸۴؛ و الآية مستقی من سورة نوح، ۲۷-۲۶.

و فضلاً عن الاخبار والاحاديث، يلاحظ أن البراءة من الغلو والغلاة موجودة حتی فی أدعية وزيارات الائمة المعصومين. نذكر منها ما جاء فی زيارة الامام علی الهادی و الحسن العسكری عليهماالسلام :

«**الحمد للّه الذی هدانا لهذا و لم تجعلنا من المعاندين الناصبين و لا من الغلاة المفوِّضين و لا من المُرتابين المُقصِّرين**». بحار الانوار، ج۹۹، ص۱۰۳.

و اقتصَّ علماء الشيعة خُطا أئمتهم فی رفض الغلو، و من ذلک نری أنّ الشيخ الصدوق يكثر فی مواضع كثيرة من لعن الغلاة، بل وصفهم بالقول: «المدلِّسون أنفسَهم فی جملتنا». (الفقيه، ج۱، ص۲۹۱)، و الشيخ المفيد يقول بكفر الغُلاة والمفوّضة . (تصحيح الاعتقادات، ص۹۷)، وكتب حولهم السيد المرتضی: «الناصب كالغالی فی الكفر والخروج عن الايمان و لا فرق بينهما فی أنّهما كافران لا يتعلق عليهما أحكام الاسلام». رسائل سيد المرتضی، ج۴، ص۳۹.

و قال الشهيد الثانى فى هذا المجال: «و أما الغلاة فخارجون من الاسلام اسماً ومعنىً و ذكْرهم فى فرق المسلمين تجوّزٌ». روض الجنان، ص۱۵۸.

و كتب العلاّمة الحلى: «و أما الغلاة فإنّهم و أنْ أقرّوا بالشهادة إلّا أنّهم خارجون عن الاسلام». منتهى المطلب، ج۱، ص۲۶.

و اعتبر الفقهاء الشيعة فى كتبهم الفقهية الغلاة فى عداد الكفرة، و قالوا بنجاسة أبدانهم و سؤرهم، و أنّ الحيوان المذبوح بأيديهم لا يحلّ أكله، و الصلاة بإمامتهم باطلة، و لا يرثون مسلماً، و بعد الموت لا يُغسَلون و لا يُصلّى عليهم! و اهتمّ المتأخرون من فقهاء الشيعة بوضع تعريف دقيق للغلو و الغُلاة، فقال صاحب الجواهر: «الغلاة و هم الذين تجاوزوا الحدّ فى الائمة حتّى ادّعوا فيهم الربوبية». جواهر الكلام، ج۶، ص۵۰.

و كتب السيد محسن الحكيم حول الغلو و الغلاة: «الغلو تجاوز الحدّ فى صفات الانبياء و الائمة مثل اعتقادهم أنّهم خالقون أو رازقون أو لا يغفلون أو لا يشغلهم شأنٌ عن شأنٍ أو نحو ذلک من الصفات». مستمسک العروة الوثقى، ج۱، ص۳۸۶.

و كتب السيد الخوئى حول معتقدات الغُلاة ما يلى: «الغلاة طوائف و منهم من يُنسب اليه الاعتراف بالوهية سبحانه الّا أنّه يعتقد أنّ الامور الراجعة إلى التشريع و التكوين كلّها بيد أمير المؤمنين أو أحدهم فيرى أنّه المحيى و المبيت و أنّه الخالق و الرازق و أنّه الذى أيّد الانبياء السالفين سرّاً... فهذا الاعتقاد إنكار للضرورى فإنّ الامور الراجعة إلى التكوين و التشريع مختصّة بذات الواجب تعالى». كتاب الطهارة، ج۲، ص۷۳.

أولى مراحل الغلو أن يُنسب من غير علمٍ، صفةٌ أو فعلٌ إلى احدٍ. و الكلام من غير دليل كأنّما هو كذب و افتراء بنصّ القرآن الكريم.

«**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّه بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ**». الانعام، ۱۴۴.

و على هذا الاساس لا يمكن نسبة أيّة صفة أو فعل إلى النبىّ أو الامام من غير دليل معتبر. و لابد طبعاً من توخّى الدقّة اللازمة للتأكّد من صحّة و اعتبار سند و متن الروايات الواردة فى فضائل و كرامات الائمة الاطهار، خاصّة إنْ كان ذلک مما يدخل فى المعتقدات، و يكون أساساً لايمان عموم الناس.

الامام الرضا عليه‌السلام حذّر الشيعة مسبقاً من قبول روايات المدح و الفضائل ضعيفة السند بقوله: «**إن مخالفينا وضعوا اخباراً فى فضائلنا و جعلوها على أقسامٍ ثلاثة؛ أحدها الغلو و ثانيها التقصير و ثالثها التصريح بمثالب اعدائنا فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا و نسبوهم إلى القول بربوبيّتنا و إذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا و إذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا**». بحار الانوار، ج۲۶، ص۲۳۹.

أما المرحلة الثانية من الغلوّ فهى جعل الاحاديث و الكذب على النبىّ و الامام، و هو ما كان قد بدأ منذ السنوات الاخيرة من حياة النبى، حتى أنّه قال: «**قد كثرت علىّ الكذابة و ستكثر، فمن كذب علىّ متعمّداً فليتبوء مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب اللّه وسنتى**». بحار الانوار، ج۲، ص۲۲۵.

الاحاديث المروية عن النبىّ و الائمة أحاديث نورانيّة ذات قيمة، و فى الوقت ذاته فإنَّ الاحاديث الموضوعة متهافتة و مضلّة. و هذا ما يفرض على كلّ خطيب و كاتب و باحث دينى أن يكون لديه معيار لمعرفة الصحيح من المكذوب فى الاحاديث لكى لا يخسر ما تنطوى عليه الاحاديث من مضامين قيّمة من جهة، و لا ينسب إلى المعصومين أكاذيب و تفاهاتٍ من جهة أخرى. و المحّک الاول و الاهمّ فى معرفة الحديث هو القرآن الكريم. و هناک أخبار متواترة عن النبىّ والائمة فى هذا المعنى. منها قول رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله : «**كلّ ما خالف كتاب اللّه فدعوه**». الكافى، ج۱، ص۶۹.

و قوله: «**كلّ ما خالف كتاب اللّه فليس من حديثى**». بحار الانوار، ج۲، ص۲۲۷.

و قوله: «**كلّ ما خالف القرآن زخرفٌ وكذب و باطل**». بحار الانوار، ج۲، ص۲۲۷.

واستناداً إلى ما قاله الامام جعفر الصادق عليه‌السلام حتى لو رَوى عادلٌ حديثاً يخالف القرآن لا يُقبَلُ منه. بحار الانوار، ج۲، ص۲۴۴.

المعيار الثانى لمعرفة الحديث، العقل. فالاسلام و خاصة المذهب الشيعى يحترم العقل إلى حدٍّ بعيد. فالعقل أوّل مخلوقات اللّه، و أحد الحجّتين على الخلق، و به يُثاب المرء و يُعاقَب. و هو أحد السبيلين للخلاص من النار. و حتى آيات اللّه تُفهَم على أساس العقل، و لو أنْ لا ينسجم معناها الاوّلى مع العقل، لابدّ من ترک معناها البدوى و العثور على معنىً آخر لها ينسجم مع العقل.

و المرحلة الثالثة من الغلو جعلُ شريكٍ للّه. فأساس التوحيد هو أنْ لا نرى أىَّ ندٍّ و نظير للّه فى الصفات و الافعال. و أساس الشرک أنْ نجعل للّه شبيهاً أو شريكاً فى صفة أو فعل.

و المرحلة الرابعة من الغلو التفويض. فالمفوِّضة يرون أنّ اللّه عزّ و جلّ فوَّض كلّ أفعاله للائمة. و من الطبيعى أنّ مثل هذا الاله ليست له مستقلة، و لا هو ربّ هذا العالم و لا خالقه، و ليس بيده الرزق و لا المغفرة و الرحمة، و لا الشريعة طوع إرادته، و لا حساب العباد يوم الحساب بيده! و هو مجرّد إلهٍ شكلى، بينما الامر و الفعل بِيَد الامام، و ليس بِيَد اللّه الّا إمضاء إرادة الامام!

و من الواضح أنّ مثل هذا الاله كلّه نقصٌ و عجز. و الايمان بمثل هذا الاله لا يختلف كثيراً عن إنكار وجوده! رُوى فى هذا المجال أنّ زرارة سأل الامام الصادق عليه‌السلام عن رجل يقول بالتفويض، فقال له الامام: و ما التفويض؟! فقال زرارة: أنّه يقول إنّ اللّه خلق محمداً و علياً عليهماالسلام ثم فوَّض إليهما فخلقا و رزقا و أحيا و أماتا فقال الامام: «**كذب عدوّ اللّه و إذا رجعت إليه فاقرأ عليه: ﴿ أمْ جعلوا للّه شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قُل اللّه خالق كلّ شىءٍ و هو الواحد القهّار﴾**». بحار الانوار، ج۲۵، ص۳۴۳؛ و الآية هى الرعد، ۱۶.

ولاية الفقيه

يبدو أنّ كتب العقائد و أصول الدين لم تُفرد حتى الان فصلاً لموضوع ولاية الفقيه. و لكن قد يكون هناک من يريد نقل هذا الموضوع من دائرة الفقه و الاحكام الفرعية إلى دائرة العقائد و أصول الدين. و هذا ما يفرض علينا ابتداءً معرفة «ولاية الفقيه»، ثمّ نستعرض أدلّتها بإيجاز، و من بعد اجتياز هاتين

المرحلتين، سنعرض فيما إذا كانت ولاية الفقيه تدخل فى دائرة المعتقدات و أصول الدين، أم ينبغى أن تكون فى إطار الفقه والنظريات الفقهية.

الولاية بمعنى السيادة والرئاسة. و الفقه يعنى الفهم، بل الفهم الدقيق و العميق . مجمع البحرين، ج۶، ص۳۵۵ و لسان العرب، ج۱۳، ص۵۲۲.

و لكن معنا الفقه انتقل تدريجياً إلى علم الاحكام الشرعية. فانّ شريعة الاسلام ذات أحكام شرعية واسعة. بعضها تخصّ الفرد كالطهارة و العبادة، و بعضها يعالج العلاقات بين الناس كالنكاح و الطلاق و الارث، و هناک أيضاً أحكام كثيرة تنظّم الشؤون الاقتصادية كالتجارة، و الاجارة، و المضاربة، والدين، و ما شابه ذلک. كما تشكّل الاحكام القضائية جانباً مهماً من الفقه، كالحدود، و الديات، و القصاص، و الشهادات، و غيرها. وفيه أيضاً قضايا اجتماعية عامّة كالجهاد، و الامر بالمعروف و النهى عن المنكر، و غيرها. لكن لم تبحث الكتب الفقهية موضوع الحكومة على نحوٍ مستقلٍ، ولم يُدوَّن كتابٌ تحت عنوان الامارة أو الولاية، وإنما تناولوا قضية الحكومة بين طيّات الفقه. مع الشيعة أنّ الحكومة و الولاية من أهمّ مكوّنات المجتمع، بحيث رأينا أنهم يعتبرون ولاية الائمة الاطهار من أصول الدين و أساسه، فكيف أنّ الكتب الفقهية التى تتناول أدقّ المسائل العبادية و المعاملات، لم تتحدث بالتفصيل عن الحكومة؟!

يرى الشيعة أنّ الحكومة فى زمان حضور الامام المعصوم، من شؤون الامامة. و لو تسلّط أحدٌ على الحكم فى ذلک الوقت يكون غاصباً لحقّ الامام. إذاً فى زمان حضور الائمة يرتبط بحث الحكومة بولاية الائمة، و يخرج من دائرة الفقه، بما تعنيه هذه الكلمة من علم الاحكام. أما فى زمان غيبة المعصوم، فليس فى كتب الفقهاء -خاصة القدماء منهم أىّ مبحث حول الحكومة؛ و ذلک لانّ الحكومة فى البلاد الاسلامية كانت تتداولها الايدى بالحروب والقتل و سفک الدماء، أو الوراثة. و هذا يعنى أن الحُكّام غالباً ما كانوا من الظلمة و ذوى المعلومات القليلة، و كانوا يحكمون بما تمليه عليهم أهواؤهم. و لهذا السبب فقد كان من العبث أن يبحث أحدٌ موضوع كيفيّة الحكم و ما ينبغى أن تكون عليه صفات الحاكم. غاية ما كان يحصل فى تلک الادوار أن بعض السلاطين كانوا يوعزون إلى فقيه بتدوين كتاب فى الفقه، فكان الفقيه يكتبه و يقدّمه له، لكى يعمل السلطان على إدارة شؤون حكومته على أساسٍ

فقهی. و من الواضح طبعاً أنّ أصل سلطنة ذلک الفرد کانت خارج دائرة الفقه، و کان الفقیه یکتب له الاحکام الفقهیة دون النظر إلی طبیعة حکمه، و هل هو حقّ أم باطل؟! و فضلاً عن ذلک فقد کان القرار النهائی بید السلطان لتطبیق الفقه فی حکومته، و إلی أیّ حدٍّ!

تعاقبت الازمان و تبدّلت الظروف السیاسیة و الاجتماعیة و صرنا نری فی الکتب الفقهیة البحث عن مدی سیطرة و قوّة الفقیه، و مقدار منزلته و مقامه. ذهب کلّ فقهاء الشیعة إلی أنّ للفقیه مقامین: مقام الافتاء؛ فالفقیه یستنبط الاحکام علی أساس القرآن و الاحادیث و یغدو متخصصاً یرجع إلیه الناس العادیون، فیبیّن لهم ما استنبطه من النصوص الاسلامیة المعتبرة. و المقام الاخر للفقیه هو القضاء؛ أی البتّ فی الدعاوی الجزئیة و الشخصیة، مثل الاختلاف الذی یقع بین شریکین، أو بین الاخوة حول تقسیم الارث. و قد نهی الائمة المعصومون شیعتَهم عن التقاضی إلی حُکّام الجور، و أمروهم بالرجوع إلی القضاة بالحق. فمِن حق الفقیه، بل من الواجب علیه أنْ یقضی بین الناس.

لیس هناک نقاش فی هذین المقامین. و إنما النقاش فی المقام الثالث، و هو هل الفقیه حاکمٌ و ولیّ علی الامّة الاسلامیّة؟! و هل بیده الولایة علی الناس؟! و هل له حقّ قیادة المجتمع؟! هذا المقام هو ما یجری فیه البحث و النقاش تحت عنوان «ولایة الفقیه».

قبل ما یقارب مائتی سنة تحدث الفقهاء عن ولایة الفقیه. و استبعد البعض منهم إثبات مثل هذا المقام للفقیه. فقد کتب الشیخ الانصاری: «إقامة الدلیل علی وجوب طاعة الفقیه کالامام... و إثبات عموم نیابة الفقیه فی هذا النحو من الولایة علی الناس، دونه خرط القتاد». المکاسب، المحرّمة، فی الولایة علی الاستقلال.

و علی صعید آخر اعتبر المحقق النراقی ولایةَ الفقیه أمراً واضحاً. (عوائد الایام، ص۱۸۶)، و ینبغی طبعاً الالتفات إلی ملاحظة و هی أنّ للولایة درجات؛ انّ الاب أو الجد للاب ولیّ أولاده الصغار، غیر أن هذه الولایة ذات دائرة محدودة جداً. بل انّ کلّ واحد من المسلمین ولیّ الاخر. و لکنّها بهذا المعنی محدودة فی دائرة دعوة بعضهم للاخر إلی المعروف، والتناهی عن المنکر. (التوبة، ۷۱).

و فى ما يخصّ الفقيه ينشب النقاش و الخلاف حول حدود ولايته. فالفقيه ولىّ الصغير و المجنون الذى ليس له ولىّ و له أيضاً ولاية على الاموال الشرعية و خاصة الخمس. و لكن تبقى هذه الولاية محدودة أيضاً. فهو ملزم بإنفاق هذه الاموال فى الموارد التى عيّنها القرآن الكريم، أما الذين يتحدّثون عن ولاية الفقيه فمرادهم شيء آخر. ولاية الفقيه المطلقة معناها أنّ الفقيه لديه خيارٌ و ولاية للعمل على إقامة حكومة إسلاميّة. و له صلاحية شؤون الحرب و الصلح، و الاذن و المنع، و الحبس و العفو، و الضرائب و الرسوم. و لكن هل هناک دليل على مثل هذه الولاية؟!

والجواب: هناک دليلان عليها. أولّهما ما ورد فى احاديث المعصومين الاطهار حول مقام الفقيه التى نستعرض منها عدّة منها:

قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله : «**اللهمّ ارحم خلفائى**» فقيل له: يا رسول اللّه و من خلفاؤک؟! فقال: «**الذين يأتون من بعدى يرون حديثى و سنّتى فيعلّمونها (فيسلّمونها) الناس من بعدى**». بحار الانوار، ج٢، ص١۴۴. و مثلها روى فى كنزالعمال، ج١٠، ص٢٢٩.

يدل هذا الخبر على أن الفقهاء خلفاء النبى. و لكن هل هذه الخلافة فى جميع الشؤون و الجوانب؟! و هل الفقيه خليفة النبىّ فى كل ما كان له من مناصب و صلاحيات و منها الولاية والرئاسة على الامّة؟!

قال البعض: بما أنّ الفقيه ينقل الحديث و يشرح سيرة و نهج النبىّ فهو خليفته. و على هذا فإنّ خلافته للنبىّ تنحصر فى العلم و بيان السُنّة النبويّة وتعليم الناس، لا أن يكون كالنبىّ فى تولّى المناصب التنفيذية. و نتأمل أيضاً الخبرين التاليين:

«**من أمر بالمعروف و نهى عن المنكر فهو خليفة اللّه فى الارض و خليفة رسوله**». مستدرک الوسائل، ج١٢، ص١٨٠، ص٢٢٩.

«**ما استخلف العبد فى أهله من خليفة إذا هو شدّ ثياب سفره خيرٌ من أربع ركعات يصلّيهنّ فى بيته، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب و قل هو اللّه أحد و يقول: اللهمّ اتقرب اليک بهنّ فاجعلهنّ فى أهلى و مالى**». وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨١.

فهل من يأمر بالخير و ينهى عن الشر و السوء، له كلّ ما للنبىّ من صلاحيات و مقام و منصب؟! و هل هذه الركعات الاربعة خليفة مطلق للمسافر؟! أى أنْ تقوم بكلّ ما كان يقوم به ذلک المسافر؟! كلا طبعاً. فخلافة هذه الركعات الاربعة محدودة فى حدود حفظ أهل بيت الرجل و أمواله.

قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله :«**إنّ العلماء ورثة الانبياء، إنّ الانبياء لم يُورّثوا ديناراً و لا درهماً و لكن ورّثوا العلم**». الكافى، ج۱، ص۳۴.

من الواضح هنا أنّ العلم الذى يرثه عالم الدين من النبىّ ليس الحكومة و الولاية. و الشىء الاخر هو أنّ «العلماء» ليس بمعنى الفقهاء، و إنّما كلّ من استفاد من علم النبىّ؛ سواء كان فقيهاً أو مفسّراً للقرآن، أو من أهل الحديث، أو عالم أخلاق، و غير ذلک.

قال الامام موسى بن جعفر عليهماالسلام : «**المؤمنون الفقهاء حصون الاسلام كحصن سور المدينة**». الكافى، ج۱، ص۳۸.

واجب الحصن الحماية. و هذه الرواية تدلّ على أن الفقيه يجب أن يكون حامياً للدين و للمعتقدات. و هذا المقام لا يختص بالفقيه. بل على كلّ مؤمن أن يكون حامياً للاسلام. فهناک حديث للامام موسى بن جعفر بهذا المضمون بشأن عموم المؤمنين (وسائل الشيعة، ج۳، ص۲۸۳)، و حين قصد فاطمة الزهراء عليهاالسلام مسجد النبىّ للمطالبة بحقّها، خاطبت المسلمين بقولها أنّكم حصون الاسلام. فقالت: «**يا معشر البقية و اعضاء الملّة و حصون الاسلام ما هذه الغميزة فى حقّى**». بحار الانوار، ج۲۹، ص۲۴۱.

سُئِل الامام الصادق عليه‌السلام عن مدى مشروعية من يتحاكم من الشيعة الذين يقع بينهم خلاف أو نزاع فى إرث أو مالٍ، إلى القُضاة، فقال: «**مَن تحاكم اليهم فى حقٍّ أو باطل فإنّما تحاكم إلى الجبت والطاغوت و ما حكم له به فإنّما يأخذ سحتاً و إن كان حقّه ثابتاً... ينظران إلى مَن كان منكم ممن قد روى حديثنا و نظر فى حلالنا و حرامنا و عرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإنّى قد جعلتُه عليكم حاكماً فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما استخفّ بحكم اللّه و علينا ردَّ و الرادّ علينا كالرادّ على اللّه و هو على حدّ الشرک باللّه**». بحار الانوار، ج۲، ص۲۲۱.

يُعرف هذا الحديث بمقبولة عمر بن حنظلة. دار نقاش واسع حول وثاقة عمر بن حنظلة. و لكن شهرة هذا الحديث تجبر ضعفه و جعلتْه مقبولا ً عند الفقهاء، و لذلک سُمّی بالمقبولة. و يمكن طبعاً أن نضع هذا الحديث جانباً لانّه يتحدّث عن منصب القضاء. و حتی كلمة حاكم التی وردت فيه فهی بمعنی القاضی.[1]

كتب الامام الصادق عليه‌السلام كتاباً إلی الشيعة جاء فيه: «**إيّاكم إذا وقعت بينكم خصومة... أن تتحاكموا إلی أحد من هؤلاء الفُسّاق. اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنا؛ فإنّی قد جعلته عليكم قاضياً**». وسائل الشيعة، ج۲۷، ص۱۳۹.

هذا الحديث يتناول أيضاً بحث القضاء، و حتی أنّه وردت فيه كلمة القاضی بدلاً من كلمة الحاكم.

و عن رسول اللّه صلی‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال: «**الفقهاء أمناءُ الرسل ما لم يدخلوا فی الدنيا**» قيل: يا رسول اللّه و ما دخولهم فی الدنيا؟! قال: «**اتباع السلطان فإذا فعلوا ذلک فاحذروهم علی دينكم**». بحار الانوار، ج۲، ص۳۶ و كنز العمال، ج۱۰، ص۱۸۳.

اذاً فالفقهاء امناء الرسل اذا لم‌يتبعوا السلطة و السلطان!

و قال أمير المؤمنين عليه‌السلام :«**العلماء حكّامٌ علی الناس**». مستدرک الوسائل، ج۱، ص۲۳۱.

و يبدوا أن كلمة «العلماء» هنا لا تختص بالفقهاء و إنّما تشمل كلّ ذی علم و معرفة فأميرالمؤمنين لا يعطی منصباً و مقاماً للفقهاء، و إنما يخبر عن شیء واقعی، و هو انّ العالم حاكمٌ علی الناس. لانّه يأمر و ينهی فی حدود علمه.

خاطب الامام الحسين عليه‌السلام علماء عصره، مشيراً فی سياق كلامه إلی قول أمير المؤمنين فی العلماء: «**أنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسمعون ذلک بأنّ مجاری الامور و الاحكام علی أيدی العلماء باللّه، الامناء علی حلاله و حرامه**». بحار الانوار، ج۹۷، ص۸۰

---

[1] راجع وسائل الشيعة، ج۱۸، ص۵ ففيه فسّر الامام الجواد كلمة الحكام بالقضاة. ذلک فی الكافی،ج۷، ص۲۴۷و۳۸۳و۴۱۴ الحاكم جاء بمعنی القاضی.-

و قد يُستفاد من عبارة «مجارى الامور بيد العلماء» أنّ العالم هو الذى يتولّى شأن المجتمع. و حين نعود إلى أصل هذا الحديث نجد أن الامام الحسين عليه‌السلام يكثر فى كلامه من تقريع علماء الدين فى زمانه لا جعل منصب و مقام ولاية لهم! و ذلک أنّه يقول: «**فأمّا حقّ الضعفاء فضيّعتم، فلا مالاً بذلتموه، و لا نفساً خاطرتم بها للذى خلقها... فأنتم لدى الناس مُكرمون، و قد جعلوا الامور اليكم، و هذا ما يجعل مسؤوليتكم أعظم**».

آخر حديث نستعرضه هنا مروى عن الامام المهدى عجّل اللّه فرجه. فقد كتبَ إليه ثانى نوّابه محمد بن عثمان العمرى رسالة طرح فيها عدداً من الاسئلة. فأجاب الامام عنها و كتب ما يلى: «**و أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنّهم حجّتى عليكم و أنا حجّة اللّه عليهم**». بحار الانوار، ج۷۵، ص ۳۸۰.

و أساس الاستدلال هنا هو أنّ الحوادث الواقعة عبارة عامّة و تشمل كلّ مشكلة أو واقعة و منها أمر الحكومة و الولاية. و على هذا فإنّ رواة الحديث الذين هم الفقهاء حُكّام على المسلمين. و لكن يبدو أنّ هذا الاستدلال غير تامّ لانّ «الحوادث الواقعة» تتعلق بالاسئلة التى كتبها محمد بن عثمان للامام. فكتب جوابها و كانت حول الفقه و العقائد عادة. ثمّ أنه عليه‌السلام دعا الناس إلى أن يرجعوا فى المستقبل إلى رواة الحديث –بَدَلاً من تلقّى الجواب مِن الامام مباشرة– و الاستفادة مما بين أيديهم من كلمات الائمة السابقين.

اكثر الفقهاء المعاصرين الذين بحثوا مسألة ولاية الفقيه، عوّلوا بدلاً من الاحاديث والروايات، على الدليل الثانى اى ضرورة إقامة الحكومة الاسلامية. و هو كالتالى:

❊ كلّ أحكام الاسلام واجبة التنفيذ. و على كلّ مسلم أن يسعى لتنفيذ أحكام الاسلام على أوسع نطاق ممكن. بل اعتبرت إقامة أحكام الدين واجباً لما جاء فى القرآن الكريم: «و **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ**».

❊ تنفيذ أحكام الدين كاملة، أو ما يُسمّى بإقامة الدين غير ممكن من غير إقامة حكومة. فهناک الكثير من الاحكام الفقهية مرتبطة بالنظام السياسى و الاجتماعى، و من ذلک قبض الخمس و الزكاة، ثمّ صرفهما، و صلاة الجمعة، و إعلان شهر رمضان و عيد الفطر، و إعلان الجهاد، و بعض أحكام الطلاق، و

الكثير من الشؤون الاقتصادية كالاحتكار، و عدم إداء الديون، و الافلاس، و غيرها، و كلّ أحكام الحدود و القصاص و الديّات، و تقسيم الارث، و إجراء الوصايا، و إدارة الاوقاف، و الاِشراف على المساجد، و النذورات، و غير ذلک... يرتبط كلّها بالنظام الذى يحكم على الشعب.

* و على هذا الاساس تصبح إقامة الدولة واجبة من أجل إجراء و تنفيذ أحكام الاسلام.

* و الفقيه هو الذى يستطيع إقامة الحكومة الاسلامية و قيادة المجتمع على أساس احكام الفقه.

إذاً للفقيه مثل هذه الصلاحية بالعمل لاقامة الدولة الاسلامية، و يتولّى زمام الامور، و يحكم فى المسائل العامّة للمجتمع وفقاً لرأيه. ويمكنه إجراء الاحكام الاولية و الاضطرارية. و بعبارة موجزة و صريحة أن يكون هو الولىّ ذو الصلاحيات التامّة فى قيادة المجتمع.

و من الطبيعى إنّ شرح و تفصيل هذه المقدّمات لا يدخل ضمن موضوع هذا الكتاب. و لهذا نكتفى هنا ببيان عدّة ملاحظات:

الاولى: من كان يريد إجراء فكرة أو تطبيقها عملياً لابدّ و أنْ يكون لديه إتقانٌ تامّ لها، و إحاطة كاملة بها. إذاً من يريد تطبيق الاسلام فى الحياة يجب أن يكون لديه إلمام تامّ به و إحاطة كاملة بكلّ جوانبه. و لقد جاء فى القرآن الكريم:

«وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فيهِ». الشورى، ١٣.

فإنّ إقامة الدين ليس واجباً عامّاً و إنّما أمراً إلهيّاً للانبياء أوليالعزم. فقد قال أمير المؤمنين فى وصيته لكُميل بن زياد: «**يا كميل! لو لم يظهر نبىٌ و كان فى الارض مؤمنٌ تقىّ لكان فى دُعائه إلى اللّه مُخطئاً أو مُصيباً بل و اللّه مخطئاً حتى ينصبه اللّه لذلک و يؤهله له. يا كميل! الدين للّه فلا يقبل اللّه من أحدٍ القيام به الّا** رسولاً أو نبيّاً أو وصيّاً. يا كميل! **هى نبوة و رسالة و إمامة و ليس بعد ذلک الا موالين متبعين أو عامهين مبتدعين**». بحار الانوار، ج ٧۴، ص۴١٧.

الثانية: إنّ إقامة الحكومة الاسلامية يتطلّب زماناً و ظروفاً خاصة. فالامام الباقر والامام الصادق عليهماالسلام كانا قادرين على الثورة و القضاء على الحكومة الاموية التى كانت فى غاية الضعف، أو الحكومة العباسية التى كانت قد نشأت حديثاً. و لكنهما لم يفعلا ذلک! و فى زمن الغيبة كذلک. و لقد

سمّى الامام الصادق عليه‌السلام مدّة غيبة الامام «فترة» فى قوله : «**الذى يملاها عدلاً كما مُلئتْ ظُلماً و جوراً على فترةٍ من الائمة كما أنّ** رسول **اللّه** صلى‌الله‌عليه‌وآله **بُعث على فترةٍ من الرسل**». الكافى، ج ۱، ص ۳۴۱.

و الفترة تعنى السكون و الضعف و اللين، و فى الفترة يقتصر الواجب الدينى على الامور الشخصية و الأُسرويّة أو إلى حدٍ ما الاجتماعية.

الملاحظة الرابعة، قد يكون هناک أكثر من فقيه فى بلدٍ واحد ممن يستطيعون استنباط الاحكام من القرآن و السُنّة، هل لكلٍ واحد منهم الولاية على الامّة؟آ أم الولاية للاعلم منهم؟! أم الولاية لمن ينتخبه الناس لتولى أمور الناس؟! أم يجب تشكيل شورى من الفقهاء لتولى أمور الشعب؟!

هذه مجموعة من التساؤلات التى تطرح فى بحث ولاية الفقيه لكن المجال لا يسمح للاجابة عنها فى هذا الكتاب. فعلى كلٍّ فاثبات ولايةٍ مطلقة للفقيه او نفيها، غير مرتبطة بالعقائد الضرورية بل هما نظريّتان فقهيّتان لكلّ واحدٍ منهما اتباعٌ و قائلون.

استنتاجٌ

نحن نؤمن باللّه و نثق به. و على هذا فهو إذا اختار لنا إماماً نقبل إمامته و نتخذه ولياً و قائداً.

القرآن الكريم يصف لنا خصائص الامام بأنّه يحكم بالحق، و لا يتّبع أهواءه و نزواته، و هو مهدىّ و مؤَهَّلٌ لهداية الناس، و يتصف بالحلم، و اليقين باللّه، و لايظلم أبداً. و معنى ذلک أنّه لا يرتكب ذنباً؛ و ذلک لانّ الذنب ظلمٌ للّه أو للنفس أو للاخرين. و الامامة عهد اللّه، و لا ينال الظالمين.

ثمّ انّه بيّن لنا القرآن الكريم فى موضعين؛ آية التطهير فى سورة الاحزاب ، و آية الاطعام فى سورة الانسان الاطهار المعصومين و المنزَّهين من الذنوب. و هؤلاء الاطهار هم وحدهم المؤهلون لخلافة النبىّ و قيادة الامة. و من جهة أخرى بيّن لنا اللّه فى آية الولاية فى سورة المائدة، ولىّ المسلمين، و هو من يؤمن باللّه و يقيم الصلاة و يعطى الزكاة فى حال انّه راكع.

الامام الغائب كالشمس المستترة وراء السحاب، يصلنا نور هدايته، و دفء رعايته يشمل الجميع، رغم أنه لا يُرى.

الفصل الخامس

«المَعاد»

استشرافٌ

ما دليلكم على الحياة بعد الموت أو ما يُسمّى بعالم الاخرة؟!

ما هو الموت و ما طبيعته؟

ما البرزخ؟!

كيف يكون يوم القيامة؟!

كيف يجرى الحساب؟!

ما الجنة و ما النار؟!

ما معنى الشفاعة؟!

مِن خواطری...

حینما کنتُ یافعاً! کنتُ ذات یوم متوجهاً من مدینة إلی أخری. و حینما کُنا فی السیّارة تلبّدت غیوم ربیعیة فی السماء، و بدأ المطر ینزل تدریجیاً. و کانت هناک علی الطریق محطّة لتعبئة الوقود فی طور الانشاء و هناک طریق فرعی ینشعب من الطریق الرئیسی إلی محطة التعبئة. السیارة التی نحن فیها تسیر بسرعة عالیة، و انعطفت بسرعة نحو الطریق الفرعی، و فجأة فتح الباب الامامی تلقائیاً، و أدّتْ شدّة ضغط الریح من جانب واحد إلی أن تنقلب السیارة. تضافرت عدّة عوامل: السرعة العالیة، و المنعطف الحادّ، و بلل التبلیط، و انفتاح الباب... شعرتُ أنّ رأسی ارتطم مرّتین فغبتُ عن الوعی، غادرتُ هذا العالم و وجدتُ نفسی فی عالمٍ آخر. وجدتُ فیها نفسی أبعد من الکلّ؛ فوق الزمان و المکان. کنتُ أری السیارات تجیء و تذهب بسرعة. و شعرتُ انی خفیف الوزن؛ کأننی طیر، و لکن لیس فی هذه السماء الزرقاء و إنّما فی جو آخر جدید وأبدی... أشعر بألمٍ فی رأسی. فتحتُ عینیَّ و الاخرون أحدهم أصیب بجرح فی یده و الاخر بجرح فی وجهه. کانت هذه التجربة لمستُ فیها ذلک العالم بجلاء. و بقیتْ ذلک الیوم حیّة فی ذهنی علی الدوام.

المعاد؛ لایّ دلیل؟!

المعاد عودة؛ عودة الروح إلی البدن؛ عودةٌ إلی حیاة أخری. و لعلّه من الافضل أن نقول أنه انتقالٌ. فالانسان قد مَرّ بمراحل مختلفة. کان یوماً مّا نطفة، ثم تحوّل إلی جنین نما و ترعرع علی عصارة کیان أمّه، ثم جاء إلی هذه الدنیا، ثم مرّ بمراحل الطفولة و الشباب و الشیخوخة، و بلغ أجله فتوفی و ذهب إلی القبر. و نحن نری فی کلّ عامّ بأمُ أعیننا أوضح صورة و أصدق تجلٍ لهذا الانتقال و الانبعاث بعد الموت فی عالم الطبیعة؛ حین یأتی الربیع فتنبعث الحیاة فی النباتات و تخضر بعد ما کانت جذوعاً یابسة: «**یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ یُحْیِی الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ کَذَلِکَ تُخْرَجُونَ**». الروم، ۱۹.

من الفوارق الجوهرية بين الاديان السماويّة و الافكار الماديّة هى قضية المعاد. فأصحاب التوجهات الماديّة يقولون أنّ قضيّة المعاد و الاخرة و الجنّة و النار مجرّد أساطير نسجها أصحاب القوّة لترويض البائسين و الهيمنة عليهم؛ فيغرسون فى نفوسهم آمالاً عريضة بوجود عالم آخر ملىء بالهناء، لكى يتحمّلوا مرارة هذه الدنيا و آلامها و عنائها و لا يفتحوا أفواههم بالاعتراض.

أما بالنسبة إلى الجنّة التى يعدُّ بها الاسلام فهى ليست من الاساطير. فالقرآن لا يدعو الناس أبداً إلى تجرّع مظالم هذه الدنيا أملاً فى نيل جنّة الآخرة. فهناک آخرة و المعاد واقع. هذا على أساس ما ينبىء به الوحى الالهى الصادق من جهة، و على ما يدلّ عليه العقل من جهة أخرى. و إليک مجموعة من الادلة:

الاوّل: مسار الحياة البشرية! فالانسان يسير دوماً على طريق التكامل و التطوّر. و ليس فى حياته توقفٌ. و لو أننا لاحظنا ماضى الانسان لوجدناه عبارة عن مسار زاخر بالتكامل و التطوّر، و ليس فيه فناء و لا عدم.

«**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فى الاْءَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنكُم مَن يُتَوَفى وَ مِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**». الحجّ، ٥.

الثاني: لو كان الموت يعنى الفناء و نهاية الطريق، لكانت حياة الانسان خواء و عبث. و مجرّد كورٍ من الخيوط المتداخلة التى لا تُعرف لها بداية و لا نهاية. و لا هدف واضح لها و لا غاية. ولكن مِثل هذا الخَلْق لا ينسجم مع حكمة اللّه تعالى.

«**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاتُرْجَعُونَ**». المومنون، ١١٥.

الثالث: المعاد من لوازم عدل اللّه تعالى، فانّه عادل و يعطى كلّ ذى حقٍّ حقّه و لا يظلم أحداً. فهل يحصل المحسنون و الصالحون على ثوابهم و جزائهم فى هذه الدنيا، أو يلقى المجرمون العقوبةَ المتناسبة مع جريمتهم؟! كلا طبعاً، فبعض أفعال الخير و الاحسان عظيمة إلى درجة أن هذه الدنيا كلّها لا تسع

ثوابها. فهل يمکن حقاً أداء ثواب أمير المؤمنين عليه‌السلام فی هذه الدنيا؟! و هل شیء فی هذه الدنيا يوازی شهادة الامام الحسين عليه‌السلام ثواباً؟!

و علی الجانب الاخر فی هذه الدنيا جرائم و جنايات بشعة، لا تکاد الدنيا تتسع لعقوبتها. أشد العقوبات فی هذه الدنيا الاعدام. و لکنّها عقوبة قليلة إزاء ما فعله المجرم صدام و امثاله، فما هی العقوبة التی تتناسب مع جناياته؟! و مِن الطبيعی أنّ أمثال هذه الحالات من الثواب والعقاب تتطلب عالماً أرحب و اوسع.

و علی أساس مسار حياة الانسان، و مقتضی حکمة اللّه و عدله، نصلُ إلی الاصل الخامس و هو المعاد. الذی يعبّر عنه القرآن باليوم الاخر. فقد وردت هذه کلمة فی القرآن سِتة و عشرين مرّة. و فی مستهلّ سورة البقرة نلاحظ أحد الشروط الخمسة للايمان و العمل الصالح، هو الاعتقاد بالآخرة. و أنّ مَن لا يؤمن بالاخرة ضالٌّ عن سواء السبيل.

«**وَ إِنَّ الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِالاْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**». المؤمنون، ٧۴.

الموت

حين تضع قدمک فی تلک الدار، فأوّل مراحلها الموت. بالنسبة لنا فنحن نعتبر الموت و الحياة ضدّين، مثل الوجود و العدم. و لکن الامر ليس کذلک. بل الموت و الحياة من سنخ واحد.

«**الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَکُمْ أَيُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**». الملک، ٢.

الموت و الحياة کلاهما من دواعی امتحان الناس و ابتلائهم، سواء حين يُعطون الفرصة للعيش فی هذه الدنيا، أم حين يُنادی عليهم بالرحيل منها، و يُرسل إليهم ملک الموت و معه مذکّرة فيها أنّ الاجل قد انتهی و حان فصل الارواح عن الاجساد.

«**قُلْ يَتَوَفَّاکُم مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ ثُمَّ إِلَی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ**». السجدة، ١١.

لا شکّ فی أنّ الموت صعبٌ و مریر، کالولید الذی یخرج من بطن أُمّه و یضع قدمه فی هذا العالم الملیء بالبرد و الحرّ و بالمشاکل و الصعوبات. حیث کان قد اعتاد من قبل علی تلک الاجواء المظلمة و علی نبضات قلب الامّ التی تبعث فی نفسه الطمأنینة. و نحن أیضاً اعتدنا علی هذا الظرف الترابی الذی نعیش فیه، فحینما یریدون إخراجنا منه إلی عالم أوسع یصیبنا فزع و نأخذ بالصراخ و العویل! و الاذی الذی یلمّ بنا لیس نفسیاً و روحیاً فحسب، بل حتی الجسم یکابد الالم و العناء. نعلم انّ التخدیر لعدّة ساعات إلی أیّ مدی یقلّل من قدرة البدن، فما بالک لو نُزعت الروح من البدن و قُطع حبل الاتصال. شیءٌ عسیر جداً. و القرآن یصف شدّة الموت کالاتی:

«**کَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِیَ * وَ قِیلَ مَنْ رَاقٍ * وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**». القیامة، ۳۰-۲۶.

کم تکون شدّة الالم فیما إذا التفت ساقٍ علی ساق أخری! کذلک ألم الموت. و لکن رغم ذلک یبدو الموت و کأنّه حلم، کرؤیة المنام حیث قال النبیّ صلیاللهعلیهوآله : «**لَتموتُنَّ کما تنامون و لتُبعَثنّ کما تستیقظون**». بحار الانوار، ج۷، ص۴۷.

و یکون آخر لحظات حیاة الدنیا فی غایة الاهمیة، حیث ینقطع الانسان عن کلّ شیء، و یبقی هو و عمله. و لا یبقی هناک تظاهرٌ و لا خداع. فإن کان المرء یؤمن باللّه حقّاً، حینذاک یجری ذلک علی لسانه، و یخطر علی قلبه و یدعو اللّه للاخذ بیده و إنقاذه. و لکن إذا کان فی قلبه شکٌّ یعجز عند ذاک عن أیّة حیلة، و لا یتسنی له أنْ یتلفّظ بما لا یؤمن به. و لهذا یُعتبر الدعاء بالثبات علی الایمان من الادعیة المهمة فی الثقافة الاسلامیّة.

عند ما نموت یُغلَق کتاب أعمالنا. فهذه الدنیا دار عملٍ و لا حساب فیها، و أما الآخرة فدار حساب و لا عمل فیها. فقد قال علی علیهالسلام : «**فإنّ الیوم عملٌ و لا حساب و إنّ غداً حساب و لا عمل**». الکافی، ج۸، ص۵۸.

عند ما تجد کتاب أعمالک أُغلق تتمنی عند ذاک لو أنّک عملتَ أکثر و ادّخرت أکثر، و حملتَ مزیداً من الزاد. و لکن جواب هذه الامانی یأتی مخیّباً للامال!

«حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فيمَا تَرَكْتُ كَلّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». المؤمنون، ١٠٠-٩٩.

البرزخ

البرزخ هو الفاصلة بين هذه الدنيا و يوم القيامة. فبعد الموت أوّل منزل يطأه الوارد إلى عالم البرزخ هو القبر. و القبر ليس مجرّد حفرة ضيّقة و مظلمة و هامدة، بل هو كما يقول الامام زين العابدين عليه‌السلام: «**القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حُفر النار**». بحار الانوار، ج١، ص٣١۴.

منذ لحظة الموت و حتى دخول القبر تتجسد أعمال الانسان، كيف يُقبض روحه، و كيف يأتيه الموت، و بأيّة صورة يرى ملک الموت، و كيف يكون قبره. فكلّ هذه الامور مرتبطة بأعماله. و نحن فى الواقع نرسم كيفية مماتنا و طبيعة قبرنا و ما ينتهى إليه جزاؤنا بواسطة أعمالنا من جهة و اعتقاداتنا من جهة أخرى.

فى إحدى المعارک قُتِل جماعة من المسلمين و جُرح آخرون. و أصاب سعدَ بن معاذ سهمٌ بيده. و كان سعد من أقرب أصحاب النبىّ إليه. و يُعدُّ من وجوه الانصار. كانت إصابته فى وريد يده فأخذ الدم يتدفّق منه. و فى ذلک الزمان كانوا يائسين من معالجة مثل هذه الجروح، و إنّما يبقى الدم يسيل إلى أن يموت الجريح. و لكن سعد جاء إلى النبىّ و طلب منه الدعاء له حتى يندمل جرحه لكى يرى نتيجة تلک المعركة. و انتهت تلک الحرب بانتصار المسلمين. و نزف الدم مرّة أخرى، و استشهد سعد بعيداً عن ميدان القتال. اغتمّ النبىّ لوفاته و سار فى جنازته بلا حذاء و لا رداء. و قال: إنّ الملائكة هبطت السماء لتشييع سعد. و وقف على قبره و لحدَّهُ. و دُفن سعد بلحد النبىّ و بيده. و لما سوّى التربة عليه، قالتْ أمّ سعد و كانت إلى جوار القبر: يا سعد! هنيئاً لک الجنّة. التفتَ النبىُّ الى امّسعد و قال: أىُ هناءٍ، فالقبر الآن يضغط سعداً بشدّة. قالت امّسعد: و لكن يا رسول اللّه! ألميُقتل سعد فى سبيل اللّه؟! و ألمتقلْ أنّ الملائكة حضرت لتشييعه؟! و ألم تدفنه بيدک؟! فقال لها النبىّ: نعم، هذا كلّه صحيح، و لكن سعداً كان سىّء الخُلق مع أهله. و ضغط القبر يأتى نتيجة لهذا العمل. بحار الانوار، ج۶، ص٢٢٠.

حتى قيام الساعة!

يبقى الميت فى القبر إلى قيام الساعة. و هو يوم القيامة. القيامة حدثٌ جلل و خطير. يضطرب فيه العالَم كلُّه. و مثلما ظهر الكون كلّه إلى الوجود و ظهرت المجرّات و السماء و الارض يوماً مّا، فسيطوى هذا الوجود أيضاً يوماً ما. و القرآن الكريم يصوّر يوم القيامة على النحو التالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُم بِسُكَارَى وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللّه شَدِيدٌ». الحجّ، ١.

«فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَ خَسَفَ الْقَمَرُ * وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ». القيامة، ٩-٧.

«يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاء كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ». الانبياء، ١٠۴.

«الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَ مَا أَدْرَاکَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ». القارعة، ۵-١.

يوم تقوم القيامة يَنفخ مَلَکٌ فى الصور، فينطلق صوتٌ مهيب، و يبعث اللّه مَن فى القبور. و عندها يكون الحشر حيث يُجمع الناس كلّهم فى أرضٍ واسعة منبسطة.

«وَ نُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فى السَّمَاوَاتِ وَ مَن فى الأَرْضِ إِلّا مَن شَاء اللّه ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ». الزمر، ۶٨.

«وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً». الكهف، ۴٧.

كيف يكون ذلک؟! من الصعب جداً أن يُبعث كلّ الناس مرّةً واحدة؟!

«ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ». لقمان، ٢٨.

يسرد القرآن الكريم أوصافاً ليوم القيامة، نلقى فى ما يلى نظرة على ملامحٍ منها؛ فانّه يوم الجزاء.

«وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ». الصافات، ٢٠.

يومُ لا تنفعُ فيه مالٌ و لا أولاد.

«**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَ لا بَنُونَ**». الشعراء، ٨٨.

يوم الاَسى و الحَسرة.

«**وَ أَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ**». مريم، ٣٩.

يوم يظهر الغرر و الضرر و الغبن.

«**ذَلِکَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**». التغابن، ٩.

و هو يومٌ مرير صعب.

«**وَ السَّاعَةُ أَدْهَى وَ أَمَرُّ**». القمر، ۴۶.

و يوم تُكشف السرائر و البواطن.

«**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**». الطارق، ٩.

و فى الاخير:

«**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ**[1] *** وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**[2] *** وَ لا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ * وَ فَصِيلَتِهِ الّتى تُؤْوِيهِ * وَ مَن فى الاْءَرْضِ جَمِيعَاً ثُمَّ يُنجِيهِ**». المعارج، ١۴-٨.

كلّا، لا يُمكن!

يأتى الرجل من بعيد، أوداجه منتفخة تكاد تتفجر من شدّة الغيظ، عيناه حمراء تكاد تخرج من الحدقتين، الزبد طافح على جانبى فمه. و هناک جماعة يمشون خلفه. كان الرجل يخفى فى يده شيئاً. ربّاه لعلّها مُدية! كان النبىّ صلى‌الله‌عليه‌وآله جالساً بسكينة يتلو آيات اللّه على الناس. فبعضهم مسلمون نهجُهم التسليم. و آخرون لديهم رغبة عارمة فى الاستطلاع، و جماعة متفرّجون فقط. و حين اقترب

---

[1]–المهل: المعدن المذاب.

[2]– العهن: الصوف المنفوش.

الرجل انفرج عنه الكثيرون خوفاً و ابتعدوا عن النبیّ. وقف الرجل أمام النبیّ و قال: – یا محمد! أأنت تقول إنّ الموتی یُبعثون و یُحاسبون؟!

– نعم، هکذا یرید اللّه، و هذا ما سیکون.

فتح الرجل یده، و ترکّزت کلّ الانظار علی ما فی یده. کان فی یده عظم بالٍ!

– أتری هذا؟!

و علا صوت الرجل.

– إذا کنتَ لا تراه فأنا أقول لک أنه عظم بالٍ.

و فرک الرجلُ العظمَ بین یدیه، فتفتت و غدا تُراباً، و رمی الرجل التراب علی الارض.

– قل لی، کیف تنبعث الحیاة فی هذا العظم من جدیدٍ؟!

ضحک الرجل من شدّة الغضب. و کان النبیّ صامتاً. فألقی الوحیُ بظلّ ثقله علیه. رفع رأسه، و انتشر عطر الوحی الفوّاح فی کلّ مکان. فما کان جواب اللّه لهذا الرجل الجاهل؟!

«**وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ یُحْیِی الْعِظَامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ * قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ**». یس، ۷۹–۷۸.

انّ الاِحیاء بعد الموت اهون و اسهل من الخلق البدوی فاذا کان اللّه خلق الخلق من العدم لاولّ مرة فهو قادرٌ علی احیائهم بعد الموت ثانیاً! نترک هذا، و نتوجّه إلی شبهات اخری أثیرتْ حول المعاد. هناک شبهتان معروفتان حول المعاد: الاولی تُسمّی شبهة الآکل و المأکول. و الاخری تسمّی شبهة إعادة المعدوم.

خلاصة الشبهة الاولی هی انّ الانسان یموت ثم یتحول إلی تراب، ثم یتحول التراب إلی نبات تأکله نعجةٌ، ثم یأتی ذئب و یأکل النعجة، ثم ینفق الذئب فی أکل من لحمه نسر. فأین یمکن العثور علی ذاک الانسان؟! فی النعجة، أم فی الذئب، أم فی النسر؟! بل و من الممکن انْ یأکل النبت إنسانٌ آخر. فمن أین تُحسب هذه المادّة؟! أمِنَ الانسان الاول؟! أم من الانسان الثانی؟!

و الشبهة الثانیة: إنّ جسم الانسان یفنی، و ما یُفنی لا یُستعاد و لا یُستحدث.

مصدر هذه الشبهات أفكار القدماء. أما اليوم فقد تطوّرت الافكار و اتّسعت مدياتها و صار يُنظر إلى مثل هذه الشبهات على أنّها أسئلة صبيانية! فالمادة و الطاقة لا تفنى من الوجود و إنّما تتحول من شكل إلى آخر. و لا تضيّع من جسم الانسان ذرّة واحدة. و حتى الصوت الذى يُخرج من فمه و ينتشر فى الجوّ لا يفنى، بل هو باق.

«يَا بُنَىَّ إِنَّهَا إِنْ تَکُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُن فى صَخْرَةٍ أَوْ فى السَّمَاوَاتِ أَوْ فى الاْءَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّه إِنَّ اللّه لَطِيفٌ خَبِيرٌ». لقمان، ١۶.

و فضلاً عن هذا، تتبدّل جميع خلايا جسم الانسان مرّة فى كلّ خمس و عشرين سنة، بما فى ذلک خلايا الدماغ، حيث تتنحّى الخلايا القديمة لتحلَّ محلّها خلايا جديدة. كلّ هذه الخلايا تؤلّف مكوّنات جسم إنسان معيّن، و يجمعها اللّه حيثما تكون و يعيد بناء ذلک الجسم بها و يعيد إليه الروح. إذاً لا يحصل أيّ نقص فى الخلايا اللازمة لبعث الروح فى جسم الانسان من جديد، بحيث يدفعكم هذا إلى التساؤل عمّن هذه الخلية أو تلک للآكل أو المأكول! كما أن المادة فى هذا الوجود لا تفنى و إنّما هى باقية فيه على الدوام. و المعاد ليس إعادة المعدوم، و إنّما هو عملية تجميع لما تناثر هنا و هناک من ذرّات الاجسام، و إعادة الروح إليها.

و لكن أنّ البعض لا يستحق أن يُحشر على هيئة إنسان، و إنّما بلغ مرحلة من الخِسّة و الانحطاط بحيث تدنّى كثيراً عن مرحلة الانسانية، فهذا يُحشر على هيئة حيوان.

«خُشَّعَاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الاْءَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ». القمر، ٨-٧.

الشهود يحضرون المحكمة!

فى يوم القيامة يُحاسب اللّه كلّ الناس. و حتى الانبياء -كما يُبيّن القرآن- يتعرّضون للمساءلة:

«فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ». الاعراف، ۶.

يقول اللّه تعالى للعبد: كُنتَ واقفاً يوم الثلاثاء مع صديقک فى المکان الفلانى، و اغتبتَ شخصاً. و من المحتمل طبعاً أن ينکر العبد ذلک و يقول بأنّه لم يفعل ظنّاً منه بأنّ الحال هناک مثلما هى فى الدنيا، و أنّه يستطيع الافلات عن العقاب بالحيلة و التدبير و مخادعة ربّه! فيقول اللّه تعالى: أنا شاهدٌ على ذلک. و لکن العبد يصرّ على الانکار و يأبى الاعتراف. ثمّ يقوم الحجّة فى ذلک الزمان سواء کان نبيّاً أم وصىّ نبىٍّ و يشهد، و لکنّ العبد المذنب يکذِّب هذا الشاهد أيضاً. و يأتى الملائکة المکلّفون بتدوين أعمال العباد و يشهدوا عليه، و لکنّه يکذّبهم أيضاً. فتأتى قطعة الارض التى کان واقفاً عليها و تشهد أنّه فعل کذا و کذا حينما کان واقفاً فوقى. و يحضر الزمان أيضاً للشهادة. اى تعود الحياة إلى يوم الثلاثاء، الساعة العاشرة صباحاً، و يأتى على هيئة و يشهد بما يعلم. و لکن هذا المذنب يصرّ على رفض شهادة هؤلاء الشهود. و عندها يختم اللّه على فم هذا العبد المتجرىء على ربِّه، فينطق ذلک العضو المذنِب و يشهد على صاحبه و يقول: نعم أنا اغتبتُ، و تشهد اليد و تقول: نعم أنا ضربتُ. و تشهد العين و تقول: نعم أنا نظرتُ. لاحظوا الآيات التى تتحدث عن هذه الامور.

«**فَکَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن کُلِّ أُمَّة بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِکَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً**». النساء، ۴۱.

«**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**». الزلزال، ۴.

«**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا کَانُوا يَکْسِبُونَ**». يس، ۶۵.

و لکن المحکمة الالهية ذات دقّة متناهية و رکائز رصينة. فکلّ هؤلاء الشهود يحضرون فيها، و ليس هذا فحسب، بل أن اللّه عزّتْ قدرتُه يُحيى بقدرته العظيمة ذلک العمل سواء کان خيراً أو شرّاً، سواء کان کذباً أو غيبةً أو صلاةً أو إحساناً، و يسمع کلّ انسانٍ عملَه و يرى صورتَه بل و يجده متجسِّداً أمامه.

«**يَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدَاً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُکُمُ اللّه نَفْسَهُ وَ اللّه رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ**». آل‌عمران، ۳۰.

تُختم على کُتب الاعمال و يُقدّم لکل إنسان کتابَه بواحدٍ من ثلاثة احتمالات: البعض يُعطى کتابه بيمينه، و هو دلالة على النجاح و قبول الاعمال. و هؤلاء هم أصحاب اليمين. و قِسمٌ آخر يُعطى لهم کتابهم بيسارهم، و هذه دلالة على الرفض و عدم القبول و إنّ السيئات فاقت الحسنات. و هؤلاء هم أصحاب

الشمال. و هناک قسمٌ آخر من الناس يُعطون کتابهم من وراء ظهورهم. و هؤلاء يجب أن يبکوا و ينحبوا و يعولوا. ثم يُؤمر الجميع بقراءة کتبهم.

«وَ کُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ کِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ کَتَابَکَ کَفى بِنَفْسِکَ الْيَوْمَ عَلَيْکَ حَسِيباً». الاسراء، ۱۴-۱۳.

يُدعى کلّ انسانٍ إلى محاسبة نفسه بنفسه. و يفتحون کتابهم فيقول کلّ واحد: يا له من کتابٍ لم يترک صغيرة و لا کبيرة إلّا دوّنها.

«وَ وُضِعَ الْکِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْکِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لا کَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّکَ أحداً». الکهف، ۴۹.

عند ذاک يَعرف کلّ امرءٍ مصيره. و يکون للشفاعة هناک أثرها طبعاً. و هو موضوع نتناوله بالبحث على حده. ثمّ يأتى دور الصراط، إذ يتجسّد يومئذ ذات الطريق الذى سار عليه الانسان فى هذه الدنيا. فمن سار فى هذه الدنيا بخطىً واثقة يسير هناک بقدم ثابت أيضاً و لا يزلّ قدمه عن الصراط. و إن کان فى هذه الدنيا قد انزلَقْ و زلّ قدمه و لکنه بقى متمسکاً بحبل اللّه، فهناک أيضاً قد يزلّ قدمه و لکن اللّه يحفظه من السقوط فى الهاوية. و إن کان قد تخلّى فى هذه الدنيا عن کلّ ما کان عليه من الالتزام به، فهناک تزلّ قدمه عن الصراط و يسقط فى جهنم، و تلک هى جهنّم التى خلقها هو بنفسه.

الجنّة و النار

الجنة واسعة، فى غاية السعة.

«وَ سَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الاَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ». آلعمران، ۱۳۳.

فيها يجد الانسان کلّ ما يطلب و ما يشتهى و ما يلذّ.

«يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَ أَکْوَابٍ وَ فيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الاْءَنفُسُ وَ تَلَذُّ الاْءَعْيُنُ وَ أَنتُمْ فيهَا خَالِدُونَ». الزخرف، ۷۱.

اهل الجنّة يتألّفون من عدّة فئات، كما هو الحال فى هذه الدنيا حيث أن بعض الناس يلذّ لهم الطعام، فهناک تُقدم لهم أفضل أنواع الفواکه و اللحوم و الاشربة.

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلالٍ وَ عُيُونٍ * وَ فَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». المرسلات، ۴۳-۴۱.

و هناک قسم من اهل الجنّة تستهويهم الثياب الفاخرة و أنواع الزينة.

«عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابَاً طَهُورا». الانسان، ۲۱.

و قسم آخر منهم يحبّون النساء و الجمال و الحور العين، فهناک يحصلون على ما يشاؤون منها.

«وَ حُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللؤلُؤِ الْمَكْنُونِ». الواقعة، ۲۳-۲۲.

و جماعة أخرى يطيب لها المُلک و الرئاسة. و هذا النوع من الملذّات يجدونه أيضاً فى الجنّة.

«وَ إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمَاً وَ مُلْكَاً كَبِيراً». الانسان، ۲۰.

و لکن هناک من أهل الجنّة من لا يعبأ کثيراً بهذه النعم، بل أکثر ما يطيب له و يستهويه رضوان اللّه تعالى و مجاورته.

«فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ». القمر، ۵۵.

و أما بالنسبة إلى النار فلابد من الاشارة إلى أنّ نار جهنّم ليست مثل نار الدنيا التى تحرق الجلد و اللحم فقط، و إنّما نار جهنّم تحرق حتى باطن الانسان و روحه!

«نَارُ اللّه الْمُوقَدَةُ * التى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ». الهمزة، ۷-۶.

و تُوصف نار جهنم بأنّها تتلظى حتى تکاد تتفجر من شدّة الغضب.

«إِذَا أُلْقُوا فيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقَاً وَ هِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ». الملک، ۸-۷.

و إذا احترقت الجلود يخلق اللّه جلوداً جديدة لکى تحترق مرّة أخرى و يذوق صاحبها العذاب اکثر فاکثر!.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ». النساء، ۵۶.

و اضافةً إلى النار يُقيّد أهل جهنم بأغلال و سلاسل ثقيلة.

«ثُمَّ فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ». الحاقة، ۳۲.

و يحصلون هناک أيضاً على نصيبهم من مجالسة و مصاحبة الشيطان الذى كانوا يلهثون وراءه طيلة أعمارهم.

«وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ». الزخرف، ۳۶.

و طعام أهل النار الزقوم و هى فاكهة كريهة تُشوى البطون.

«إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فى أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ». الصافات، ۶۷-۶۴.

و يأتيهم الموت من كلّ مكان، و لكنّهم لا يموتون!

«مِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِن ماءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَ لاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ». ابراهيم، ۱۷-۱۶.

و الاشد ألماً من كلّ ذلک العذاب هو أنّ اللّه عزّ وجلّ لا يهتمّ لهم و لا يسمع صوتهم، و لا يفسح لهم مجالاً لدخول ملكوته، بل يطردهم. و عندما يطلبون من اللّه تخفيف العذاب عنهم يأتيهم الجواب كذلک.

«قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فيها وَ لا تُكَلِّمُونِ». المؤمنون، ۱۰۸-۱۰۶.

فلماذا؟! انّ مَن دخل الجنّة كان إنساناً صالحاً فى هذه الدنيا على مدى أربعين أو خمسين سنة مثلاً، لماذا يجب أن يُكرَّم فى الجنّة إلى الابد و يعيش خالداً فى النعيم؟! و مَن دخل النار كان قد عصى و أذنب مدّة خمسين سنة مثلاً، فلماذا يُخلّد فى العذاب؟!

هناک جوابان لهذا السؤال:

الاول: إنّ جزاء الاعمال لا يكون بالسنوات و الاشهر. فقد يعمل المرء فى ساعة عملاً صالحاً يستحق ازاءه سنة من النعيم، أو قد يرتكب فى دقيقة جنايةً تستحقّ أن يُعاقب عليها بالسجن سنوات.

الثانى: أهل الجنّة يَصِلون إلى درجة من الكمال و الايمان و التقوى بحيث أنّهم لو خُلّدوا إلى الابد فى هذه الدنيا، لبقوا سائرين على ذات النهج و الاسلوب. و لابدّ أنّهم كانوا فى قرارة أنفسهم عازمون على الايمان و فعل الخير و الاحسان ماداموا فى هذه الدنيا و مهما عاشوا فيها. و النعيم الالهى الخالد لهم فى الجنّة يأتى جزاءً على حُسْن نواياهم فى البقاء على الصلاح و الخير. أما أهل النار فبلغوا درجةً من قساوة القلب و الضلال و كثرة الآثام بحيث أنّهم لو بقوا إلى الابد فى هذه الدنيا، لساروا على ذات المنهج و لارتكبوا نفس الاعمال. و من الطبيعى أنْ يكون جزاء تلك النيّة الابديّة عذاباً أبدياً.

تُزاح الحجب و يطّلع أهل الجنّة على أهل النار، و كثيراً ما يكون الاب فى النعم و الابن فى الجحيم، و الزوجة فى الجنّة و زوجها فى النار. و هذا بحدّ ذاته عذابٌ عظيم حين ترى أخاک أو أباک أو زوجتک الذين كانوا يعيشون معک، يتنعّمون الان فى الجنّة، بينما تتعذّب أنت فى النار!!

بل كلّ إنسان يخلقه اللّه تعالى يجعل له مكانة فى الجنّة و بؤرة فى النار. و فى هذا الحال يرى أصحاب النار أماكنهم فى الجنّة قد أُعطيتْ إلى مؤمن آخر. و حين يطلبون من أهل الجنّة أن يجودوا عليهم بشىءٍ مما هم فيه من النعيم، يأتى الجواب بالرفض، قائلين أنّ اللّه قد حرّم هذه النعم على الكافرين. و عند ذاک يسأل أهل الجنّة أصحاب النار عن العمل الذى أدّى بهم إلى دخولهم النارَ.

«**فى جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَکُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَ لَمْ نَکُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ**». المدّثر،۴۶-۴۰.

لاحظوا هنا أن السبب الاوّل و الاساسى لدخول النار ترک الصلاة و عدم الارتباط باللّه تعالى، و السبب الثانى عدم الاحسان للناس، حيث كُنّا نرى الجياع و البائسين فنمرّ دون أن نأبه لهم. و السبب الثالث هو أننا كُنّا نخوض فى أمور تافهة و نشغل أنفسنا بها. و السبب الآخر عدم الايمان بيوم الجزاء و الحساب.

شفاعة

الشفاعة هو أن يكون احد من اولياء اللّه واسطةً و شفيعاً عند اللّه حتى يطلب منه العفو للعبد. رحمة اللّه واسعة و تسبقُ غضبَه. بل أنّ رحمته وسعتْ كلَّ شىء.

«**وَ رَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**». الاعراف، ١٥٦.

و لابدّ و أنْ يُوجَد بين الحشود الغفيرة المحشورة إلى الحساب يوم القيامة أُناسٌ كانوا فى الحدّ الادون من الايمان و الاعتقاد، و ارتكبوا كثيراً من الاثام و الاخطاء، و صفحات كتاب أعمالهم تغلب فيه القبائح و السواد، على المحاسن و البياض. و لو جرتْ محاكمتُهم يومَ الحساب وفقاً لموازين العدالة الصارمة لكانوا من أصحاب النار، و لكنّ اللّه ذو فضل و كرم و جود. و هناک أيضاً جانب آخر للقضية و هو أن اللّه عزّ و جلّ يريد إظهار قيمة و مكانة عباده الصالحين، فيأذن لهم بالشفاعة لآخرين. و قد طلب رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله هذا المقام من اللّه تعالى و جاء جوابه فى الآية الشريفة.

«**وَ لَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَکَ مِنَ الأُولَى *وَ لَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضَى**». الضحى، ٥-۴.

و مِن الطبيعى انّ شفاعة هؤلاء العباد الصالحين ليست بمعزلٍ عن إرادة اللّه تعالى.

«**لايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لايَشْفَعُونَ إِلّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**». الانبياء، ٢٨-٢٧.

لا شکّ فى أنّ الشفاعة لا تكون اعتباطاً و مِن غير معايير و قواعد و شروط. و مِن ذلک أنْ يرتضيه اللّه، و يكون الاولياء و الصلحاء واسطة فيه و يشفعون له، على شرط أن يكون فى سجلّه و كتابه عملاً حسناً أو إيماناً راسخاً، أو صِلة محبّة، او أنْ تكون هناک نقطة بيضاء باقية فى قلبه، و يعرف ربّه من بعيد، و يذكره بين الفينة و الاخرى. و هذه الامور قد تكون سبباً لنجاته.

الرجعة، المعاد الاصغر

من المناسب هنا أن نشير بإيجاز على موضوع الرجعة. الرجعة تعنى العودة و الرجوع، و ليس المقصود طبعاً عودة كلّ الناس لانّ ذلک هو المعاد. أما الرجعة فهى عبارة عن لوحة صغيرة من مشهد المعاد الكبير. و استناداً إلى معتقداتنا نحن الشيعة يُعيد اللّه تعالى بعضَ الناس إلى هذه الحياة قبلَ انتهاء هذه الدنيا و قبيل قيام الساعة. و هؤلاء الذين يعودون طائفتان: طائفة الصالحين الاتقياء الوَرعين، فيحكمون الارضَ بقدرته تحقيقاً لوعده تعالى:

«**وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الاْءَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصّالِحُونَ**». الانبياء، ١٠٥.

و طائفة الذين كانوا سبباً فى ضلال الناس و انحرافهم. هؤلاء أيضاً يُعادون إلى الدنيا و يُحاكمون و خاصّة أولئک الذين حرَّفوا و بدَّلوا الاديان السماويّة؛ و شوَّهوا شريعةَ موسى عليه‌السلام ، و فعلوا ما فعلوا بالديانة المسيح عليه‌السلام ، أو الصقوا بالاسلام ما ليس منه. هؤلاء يرجعون أيضاً ليُكشَفَ عن أكاذيبهم و يُفضحون على رؤوس الاشهاد.

و لكن ما الدليل على مثل هذه الاعتقاد؟! لاحظوا الآيات التالية.

«**وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّة فَوْجَاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ**». النمل، ٨٣.

يوم القيامة يُبعث الناس بأجمعهم، و هذا يعنى أنّ هذه الآية لا تتحدث عن يوم القيامة، بل تتحدث عن بعث جماعة من كلّ أمّة. و مثل هذه الواقعة تحصل فى الرجعة.

«**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ**». غافر، ١١.

و هذه الآية تتحدث عن الاحياء مرّتين و الاماتة مرّتين. و نحن نعلم أنّ الناس العاديين يموتون مرّة واحدة فى هذه الدنيا و يُحيون مرّة واحدة فى الاخرة. أما الاِحياء مرتين و الاماتة مرّتين فهى خاصّة بمَن يرجعون إلى هذه الدنيا فى الرجعة.

«**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الاْءَشْهَادُ**». غافر، ٥١.

يوم يقوم الشهود هو يوم القيامة. و وعدَ اللّه تعالى أنْ ينصر الرسلَ و المؤمنين فى ذلک اليوم. و سيتحقق هذا الوعد. و لكن ماذا عن الوعد الاوّل؟! فهل نصرَ اللّه كلَّ المرسلين و المؤمنين فى هذه

الدنيا؟! الكثير من الموحِّدين و عباد اللّه الصالحين نُفوا و شُرِّدوا و قُتِّلوا فی هذه الدنيا و بَقوا مظلومين إلى آخر أعمارهم. و لهذا يبدو أنّ وعد نصرة الانبياء و المؤمنين فی الحياة الدنيا يتعلّق بزمان الرجعة.

استنتاجٌ

الحركة التكامليّة للانسان لا تتوقف بموته، بل وِفقاً لعدل اللّه و حكمته لابدّ و أن يكون بعد هذا العالَم عالمٌ آخر. و الموت عبارة عن الانتقال من هذا العالم إلى ذاک. فالجسم يموت و يُدفن فی القبر، و لكن الروح تبقى و تعيش هناک حياة من نوع آخر. و القيامة تعنی طی صفحة هذا العالَم و بداية عالمٍ آخر. و تُقام يومذاک محكمة العدل الالهی، و يحشرُ الناس جميعاً بين يديه و يُحاسبوا على إيمانهم و أعمالهم. ثمّ ينتهی بهم الحال فی آخر المطاف أمّا إلى الجنّة و نعيمها و رعاية اللّه تعالى و بركاته، و أما إلى جهنم و ما فيها من العذاب. و مِن الطبيعی أنّ عفوَ اللّه و رحمته و مغفرته تشملُ عبادَه سواء بشكلٍ مباشرٍ أم بواسطة شفاعة أوليائه الصالحين.